TIGHT BINDING BOOK



فتاة القيروان

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الخامسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين في افريقية ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر الى فتح مصر واستخراجها من الدولة الاخشيدية سنة ٣٥٨هـ ويتخلل ذلك وصف برابرة افريقية وعاداتهم واخلاقهم . وبيان الاسباب الاجتماعية التي ساعدت على ذلك الفتح ولاسيما انهماك الاخشيديين بالترف واستبدادهم وانقسام جندهم . واتحاد جند الفاطميين ومحافظتهم على مناقب البادية

تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال

مطبعة الهلال

سنة ١٩٣٢

فتاة القيروان

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الخامسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن ظهور دولة العبيديين أو الفاطميين في افريقية ومناقب المعز لدين الله وقائده جوهر الى فتح مصر واستخراجها من الدولة الاخشيدية سنة ٣٥٨ هـ ويتخلل ذلك وصف برابرة افريقية وعاداتهم واخلاقهم . وبيان الاسباب الاجتماعية التي ساعدت على ذلك الفتح ولاسيما انهماك الاخشيديين بالترف واستبدادهم وانقسام جندهم . واتحاد جند الفاطميين ومحافظتهم على مناقب البادية

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

مطبعة الهلال

سنة ١٩٣٢

مقدمة الطبعة الاولى

سنة ١٩١٢

هذه الحلقة الخامسة عشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام - غير رواية الانقلاب العثماني الحلقة الاخيرة من هذه السلسلة التي قدمنا صدورها لغرض ذكرناه في مقدمتها . ونحن نزداد تحققاً كل يوم اننا احسنا في اصدار هذه الروايات لما فيها من اللذة والفائدة فانها تشوق الى مطالعة تاريخ الاسلام وتشرح احوال الاعصر والامم الاجتماعية والادبية والسياسية وتمثلها تمثيلا لا تتسع له كتب التاريخ . ولذلك كان وضع الروايات التاريخية أكثر وعورة من تأليف التاريخ ولاسيما لمن يتوخى التحقيق وضبط الوقائع والمحافظة على الاصل التاريخي مع تطبيقه على حديث الغرام كما نفعل نحن

ويؤيد موافقة هذا الاسلوب لحاجة القراء ما نراه من اقبال قراء العربية على مطالعة هذه الروايات واقدام أدباء الامم الاخرى على نقلها الى السنتهم . فانها قد نقلت حتى الآن الى ثماني لغات وهي :

١ اللغة الفارسية : نشر فيها الى الآن روايات فتاة غسان وارمانوسة المصرية و١٧ رمضان وغادة كربلاء والحجاج بن يوسف وفتح الاندلس وأبو مسلم الخراساني

٢ اللغة الهندية (الاوردية أو الهندستانية) ظهر فيها حتى الآن فتاة غسان وارمانوسة المصرية وفتح الاندلس

٣ لغة التاميل من اللغات الهندية الدورية في سنقابور وغيرها : نقلت اليها فتاة غسان والمملوك الشارد

٤ اللغة التركية العثمانية : نقلت اليها رواية أبي مسلم الخراساني .وهي تنشر تباعاً في جريدة اقدام

٥ اللغة التركية الاذربيجانية في باكو واذربيجان : نقلت اليها عذراء قريش

٦ اللغة الروسية : نقلت اليها رواية المملوك الشارد (لم تطبع بعد)

٧ اللغة الفرنساوية : نقلت اليها رواية العباسة أخت الرشيد وهي تنشر في الفيغارو تباعاً . وأسير المتمهدي لم تنشر بعد

٨ اللغة الانكليزية : نقلت اليها فتاة غسان وعذراء قريش وستنشران قريباً

هذه هي اللغات التي عرفنا نقل بعض هذه الروايات اليها وقد يوجد غيرها مما لم نطلع عليه

ونحن باذلون الجهد في اتمام هذه السلسلة مع تحري الحقيقة والمحافظة على الوقائع التاريخية من حيث زمانها ومكانها ودمجها في القصة الغرامية على اسلوب يشوق للمطالعة . والغرض من هذه الروايات ليس تقرير الحقائق التاريخية ليرجع اليها في التحقيق وانما المراد بها التشويق لمطالعة التاريخ وبسط الاحوال الاجتماعية والسياسية المحدقة بالوقائع مع تمثيل عادات الامم واخلاقهم وآدابهم وبالله التوفيق

الفصل الاول

الشيعة العلوية في المغرب والدولة الفاطمية

قاسى الشيعة في زمن بني أمية في الشام عذاباً شديداً من القتل والصلب . وكذلك في الدولة العباسية ولا سيما في أيام المنصور والرشيد والمتوكل فحملهم ذلك على الفرار الى اطراف المملكة الاسلامية فهاموا على وجوههم شرقاً وغرباً وكان في من نجا منهم نحو المغرب ادريس بن عبد الله بن الحسن المثني اخو محمد بن عبد الله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته . فأتى ادريس مصر وهي يومئذ في حوزة العباسيين فاستخفى في مكان أتاه اليه بعض الشيعة سراً ومنهم صاحب البريد فحمله الى المغرب في أيام الرشيد فتلقاه الشيعة هناك وبايعوه فأنشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الادريسية من سنة ١٧٢ — ٣٧٥ هـ على ان هؤلاء لم يسموا أنفسهم خلفاء

أما ظهور الشيعة وتغلبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية نسبة الى بنت النبي لان أصحابها ينتسبون اليها وتسمى ايضاً الدولة العبيدية نسبة الى مؤسسها عبيد الله المهدي . وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بني بويه في اواسط القرن الرابع للهجرة

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها المغرب وهمت بفتح مصر . وكان آل بويه يغالون في التشيع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها فاشار بعضهم على معز الدولة البويهي ان ينقل الخلافة الى العبيديين أو الى غيرهم من العلويين فاعترض عليه بعض خاصته قائلا « ليس هذا برأي فانك اليوم مع خليفة تعتقد انت وأصحابك انه ليس من اهل الخلافة لو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو امرهم بقتلك لقتلوك » فرجع معز الدولة عن عزمه

على ان ظهور الشيعة في الشرق هون على الدولة العبيدية فتح مصر

والانتقال اليها وكانت قصبتها اولا المهدية بافريقية وخلفاؤها ينتسبون الى الحسين بن علي وللمؤرخين في انتسابهم اليه اقوال متناقضة فالذين يتعصبون للعباسيين ينكرون ذلك عليهم . ويغلب في اعتقادنا صحة انتسابهم اليه وان السبب في وقوع الشبهة طعن العباسيين فيه تصغيراً لشأنهم

والمصريون كانوا يحبون علياً من صدر الاسلام وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية لان العلويين استنصروا اولا أهل العراق وفارس . فلما قامت الدولة العباسية وتأثرهم المنصور بالقتل والحبس وقتل محمد ابن عبد الله الحسني وبعض اهله من بني حسن وفر سائر العلويين من وجه الدولة العباسية كان في جملتهم علي بن محمد بن عبد الله فجاء مصر بامر دعوته بعض رجال الشيعة لكنه ما لبث ان حمل الى المنصور واختفى

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلب بين الشدة والرخاء بتقلب احوال الخلفاء في بغداد فان تولى خليفة يكره العلويين ضيق على الشيعة واضطهدهم والعكس بالعكس . فلما تولى المتوكل واضطهد الشيعة العلوية كتب الى عامله بمصر باخراج آل أبي طالب الى العراق فاخرجهم سنة ٢٣٦ هـ ولما قدموا العراق أرسلوهم الى المدينة واستتر من بقي في مصر على رأي العلوية . لان عمال المتوكل كانوا يبالغون في اظهار الكره للشيعة تزلفاً من الخليفة - يحكى ان رجلا من الجند اقترف ذنباً أوجب جلده فامر يزيد بن عبد الله عامل مصر يومئذ بجلده فاقسم عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه فزاده ثلاثين ضربة ورفع صاحب البريد الى المتوكل ذلك الخبر فورد كتابه الى العامل ان يضرب الجندي المذكور مئة سوط فضربه . وتتبع يزيد المشار اليه آثار العلويين فعلم برجل منهم له دعاة وانصار فقبض عليه وأرسله الى العراق مع اهله وضرب الذين بايعوه

ولما تولى المنتصر بن المتوكل سنة ٢٤٧ هـ كتب الى عامله بمصر ان لا يضمن علوي ضيعة ولا يركب فرساً ولا يسافر من الفسطاط الى طرف

من اطراف مصر وان يمنعوهم من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد . واذا كان بينهم وبين أحد الناس خصومة قبل قول خصمهم فيهم بغير ان يطالب ببينة . فقاسى العلويون عذاباً شديداً بسبب ذلك

ولما استقل احمد بن طولون بامارة مصر سنة ٢٥٤ ﻫ اضطهد الشيعة لانه تركي ولانه على رأي الخليفة العباسي فاقتص آثار العلويين وحاربهم مراراً . حتى اذا ضعف امر بني طولون بمصر واختلت احوال الدولة العباسية في بغداد وتغلب آل بويه عليها في القرن الرابع للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوى فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ ﻫ بقيادة جوهر الصقلي كانت الاذهان متأهبة لقبول تلك الدعوة ففتح جوهر مصر على أهون سبيل

الفصل الثانى

القيروان والمنصورية

القيروان من المدن الاسلامية التي اختطها العرب بعد الفتح كالبصرة والكوفة والفسطاط . اختطها عقبة بن نافع الفهري سنة ٦٠ للهجرة بما يقرب من تونس وهو الذي افتتح أكثر المغرب . وكانت القيروان في زمن روايتنا هذه (في اواسط القرن الرابع للهجرة) قصبة بلاد المغرب وقد تقاطر الناس من انحاء العالم لتعميرها فقطنها العرب من قريش وسائر البطون من مصر وربيعة وقحطان واصناف من العجم من اهل خراسان واصناف من البربر والروم واشباه ذلك . وكان شربهم من ماء المطر ينصب من الاودية الى برك عظام يقال لها المؤاجل فنها شرب السقاة ولهم واد يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة

وكان بنو الاغلب لما نزلوها في القرن الثالث قد ابتنوا على ميلين منها قصوراً لانفسهم ثم ابتنوا محلة على ثمانية اميال منها سموها رقادة . حتى اذا نزلها الفاطميون في اول القرن الرابع للهجرة ابتنوا لانفسهم حصناً مستديراً

بالقرب منها سموه صبرة ويسمى أيضاً المنصورية جعلوه مستقر لهم ولاهلهم .
كما فعل المنصور ببناء بغداد قبل ذلك بقرنين فالمنصورية بلدة مستديرة الشكل
قرب القيروان بناها اسماعيل بن القاسم بن عبد الله المهدي سنة ٣٣٧ هـ
واستوطنها وجعل قصره في وسطها والماء يجري فيها وانشأ بها اسواقاً
جميلة وجامعاً وعرض سورها ١٢ ذراعاً وهي منفصلة عن القيروان بعرض
الطريق . ومن أبوابها باب الفتوح وباب زويلة وباب وادي القصارين وكلها
مصفحة بالحديد [1]

وأول الخلفاء الفاطميين عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر
الصادق من نسل الحسين بن فاطمة الزهراء . قام له بالدعوة رجل شيعي
اسمه أبو عبد الله الشيعي بمساعدة قبائل البربر وخصوصاً كتامة وصنهاجة كما
قام ابو مسلم الخراساني في المشرق بدعوة العباسيين بمساعدة الخراسانيين .ولما
استقر لعبيد الله المهدي الملك قتل أباعبدالله الشيعي كما قتل المنصور أبا مسلم [2]

وكان عبيد الله في اول الدعوة يقيم في المهدية على ساحل تونس ثم
نقل الى القيروان وتوفي سنة ٣٢٢ هـ فخلفه ابنه القاسم ولقب القائم بامر الله
وتوفي سنة ٣٣٤ هـ فخلفه ابنه المنصور ابو طاهر وتوفي ٣٤١ هـ فخلفه المعز
لدين الله وعلى عهده فتحت مصر على يد قائده جوهر الصقلي . وفي أيامهما
جرت حوادث هذه الرواية

الفصل الثالث

المعز لدين الله وقائده جوهر

خرج المعز في ليلة مقمرة من ليالي سنة ٣٥٧ هـ الى حديقة قصره في
المنصورية قرب القيروان وفي الحديقة بركة واسعة يصب فيها الماء من نبع جر
ماءه المعز اليها من جبل بقرب المنصورية وفرقه بانابيب الرصاص الى قصور
المدينة ومسجدها واسواقها . وينصرف ما بقي من ذلك الماء الى القيروان.

(١) ياقوت ج ٣ والمقدسي واليعقوبي (٢) ابن خلدون ج ٤

وقد علمت ان المنصورية خاصة بالخليفة وأهله وحاشيته واعوانه لا يشاركهم فيها أحد . وقد احاطوها بسور ضخم عال فهي اشبه بالحصون منها بالمدن . وهو هنـاك في مأمن من غدر الغادرين لانهـا محاطة بسور منيع أبوابه مصفحة بالحديد تقفل وتفتح عند الحاجة

خرج المعز في تلك الليلة وهو مطمئن الخاطر لا يخاف غدراً . حتى اذا توغل في الحديقة ولا شيء فيها من زخارف المدنية اشرف على تلك البركة وليست هي مما يستجلب النظر أو يستلفت الانتباه لـكن لها حديثاً يطرب له المعز ولا يطرب له سواه الا قائده جوهر البطل الصقلي . وكان قد اسكنه في مدينته واختصه بقصر من قصورها وبالغ في اكرامه ورفع منزلته

وصل البركة والقمر قد تكبد السماء فاسرع البستاني الى مقعد معـد لجلوس الخليفة اذا نزل في تلك الساعة واهل القصر نيام حتى الخدم . وانما أرقه أمر شغل خاطره وأخذ بمجامع قلبه لم يكاشف به أحداً من اعوانه لانه كان حريصاً على سره لا يطلع عليه أحداً الا اذا نضج وآن اخراجه الى حيز الفعل ـ شأن رجال العمل وأهل الحزم . على انه ضاق ذرعاً في تلك الليلة عن الاحتفاظ بذلك السر فخطر له ان يكاشف به قائده جوهر

وكان المعز عالي الهمة عظيم الهيبة واسع المطامع ادرك الاربعين من عمره وقد لبس في تلك الليلة رداء أبيض بسيطاً والتف بالعباءة وجعل على رأسه عمامة صغيرة . فلمـا استقر به الجلوس صفق ونادى « خفيف » وهو غلام صقلي كان قد اختصه بخدمته فحضر فقال « ادع قائدنا جوهر »

فمضى خفيف وما عتم ان عاد ومعه جوهر . وهو كهل في السادسة والخمسين من عمره وقد وخطه الشيب وكان طويل القامة ثابت الجأش عظيم الهيبة . وكان لما جاءه رسول المعز قد ذهب الى فراشه فنهض وارتدى ثيابه وبادر الى ملاقاة مولاه . فلما شعر المعز بقدومه تحفز للنهوض ورحب به وبش له فخجل جوهر من ذلك الاكرام فاكب على يدي الخليفة فقبلهما وقبـل ركبتيه وأوشك ان يقبل قدميه فانهضه المعز ودعاه للجلوس بجانبه فجلس متأدباً فبادره المعز قائلا « مرحباً بقائدنا الحازم وحبيبنا الباسل »

فتأدب جوهر وقال « اني عبد مولانا امير المؤمنين ضارب بسيفه وافديه بروحي »

قال « بل انت سيفنا المسلول وحامي دولتنا واني لا أجلس الى هذه البركة وأرى السمك يسبح فيها الا ذكرت بلاءك في سبيل الحق . ان هذا السمك يشهد بما لك من الافضال على هذه الدولة . أليست هذه الاسماك من نسل ما حملته الينا من سمك البحر المحيط في القلل يوم جردت وفتحت افريقيا واخضعت قبائلها . لا أنسى يوم جئتنا بتلك القلل وفيها السمك من ذلك البحر العظيم اشارة الى ما أدركته من تلك الفتوح العظيمة التي لم يسبق اليها سواك فلا غرو اذا اختصصتك بصداقتي وفضلتك على سائر بطانتي واهلي . . »

فخجل جوهر من هـذا الاطراء وقال « العفو يا مولاي اني لم افعل شيئاً الا باسمك . والله انما نصرني بك لانك سلالة احق الناس بالخلافة ابن عم الرسول (صلعم) وصهره — انت ابن فاطمة الزهراء فكيف لا ينصرك الله ولو قام بهذه الدعوة غلام لافاح لان الحق يعلو ولا يعلى عليه »

فاسكته المعز قائلا « ان الحق لا يعلو دائماً وكم ظل اجدادي العلويون يجاهدون وقد ذاقوا أنواع العذاب ممن استأثر بالسيادة دونهم . ولو اتيح لهم سيف مثل سيفك لغلبوا ـ ألم تفتح هـذه البلاد من هنا الى البحر المحيط واخضعت اهلها بارك الله فيك . وهذا ما لاريب فيه فاذا رفعنا منزلتك فقد أعطيناك حقك . . » وسكت وقد بدا الاهتمام في وجهه وجوهر ينتظر ما يبدو منه لاعتقاده انه لم يدعه في تلك الساعة الا لامر هام . فاعتدل في مجلسه وتوجه بكليته نحوه كأنه يستفهم عما يريده

أما المعز فمد يده واستخرج من تحت العباءة قضيباً من عود طوله شبر ونصف مكسو بالذهب . فلما رآه جوهر علم انه قضيب الملك فتأدب احتراماً له فابتدره المعز قائلا « أليس هذا قضيب الملك يا جوهر ؟ » . .

قال « نعم يا مولاي انه قضيب الحق وصاحبه صاحب الخلافة الحقة »

قال « هل يكون في الدنيا خليفتان على حق ؟ »

فادرك جوهر أنه يشير الى خلافة العباسيين في بغداد انها على غير الحق ولحظ ما وراء ذلك من الامور فقال « كلا يا سيدي ان النبي واحد وخليفته واحد »

قال « الى متى نترك اولئك القوم فى ظلمائهم ؟ »

فأجاب جوهر على الفور « نتركهم حتى يأمر مولانا أمير المؤمنين »

فاكبر المعز هذا الجواب الدال على حزم جوهر واستهلاكه في سبيل نصرة العلويين فابتسم وقد اشرق وجهه وكان القمر مواجهاً له بحيث يظهر ذلك لجوهر وقال « بارك الله فيك هـذا ما كنت ارجوه منك وقد جال هذا الفكر في خاطري منـذ اعوام وأنا أتردد فيه استطلع المنجمين ولا أبوح به لاحد حتى اذا كانت الليـلة رأيت ان اسره اليك وكنت احسبه جديداً عليك فاذا أنت أكثر تفكيراً به مني . أما وقد اطلعت على سري وأنت الوحيد الذي اطلع عليه مني فارجو ان تشير علي »

قال ليس لهذا العبد ان يشير وانما عليه ان يطيع .. فوالله لو أمرتني أن أركب الاسـنة واذهب في الارض فاتحا لفعلت لعلمي اني ذاهب في نصرة الحق »

قال « لله درك من قائد باسل وصديق حميم . ولـكن الامور مرهونة باوقاتها . فالآن اكتم ما دار بيننا واخبرني عن رأيك في قوادنا »

قال « انهم نعم الرجال يستهلـكون في نصرة مولانا ولا سيما شيوخ كتامة فانهم قاموا بنصرة أمير المؤمنين خير قيام وعليهم المعول في أمرنا .. »

الفصل الرابع

ابو عبدالله الشيعي

فسكت المعز برهة وعاد الى الاهتمام وأخـذ يلاعب قضيب الملك بين أصابعه وهو يتأمله ثم قال « ولـكنني أخاف عليهم الجنوح الى الترف فيأخذهم

ما أخذ أعداءنا في بغداد من أسباب المدنية حتى صاروا الى ماصاروا اليه من الذل فغلبهم مواليهم الاتراك والديلم ولم يتركوا لهم من الخلافة إلا اسمها ـ ولا أخفي عنك اني لم أطمع بهم إلا لما بلغني من ترفهم وانهماكهم واسترسالهم في الملذات فاذا أصاب رجالنا ما أصابهم صرنا الى مصيرهم »

قال « ليس هـذا ما أخافه يا سيدي فان قومنا بعيدون عن الترف. وكيف نخاف عليهم ذلك وهم يرون امير المؤمنين ابن بنت الرسول يتولى الدولة بنفسه. يجلس في برد الشتاء على اللبود وعليه جبـة وحوله ابواب مفتحة تفضي الى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب لا يأكل ولا يشرب ولا يتقلب في الديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر كما يفعل ارباب الدنيا [١] ـ كيف يرونه في مثل ذلك لا يفضل احداً منهم في احوالهم بل هو مشغول بكتب ترد عليه من المشرق والمغرب يجيب عنها بخطه لا يشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون ارواحهم ويعمر بلادهم ويذل اعداءهم هل يجسرون على شيء غير ذلك ؟ »

فاعجب المعز بما سمعه منه فقال « ان هـذا لا يكفي يا أبا الحسين اني أخاف على رجالي الاستكثار من النساء. اني لا أرى للواحد منهم ان يقتني غير المرأة الواحدة لئلا يتنغص عيشهم وتعود المضرة عليهم وتنهك ابدانهم وتذهب قوتهم. وكثيراً ما أوصيتهم بذلك ليقرب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب »

قال « ان سهر مولاي على دولته بمثل ما تقدم كفيل بالنجاة من الوقوع في ما تخوفه ولـكنني أخاف . . » وسكت وهو يتشاغل باصـلاح عمامته وخماره

فلحظ المعز في وجهه شيئاً يكتمه فقال « وما الذي تخافه يا جوهر ؟ قل »

قال « أخاف الدسائس السرية »

قال « وما تعني ؟ أي الدسائس ؟ »

---

(١) المقريزي ج ١

قال « أخاف قوماً لا نعرفهم ولا نعرف نياتهم »

قال « من تعني . . كيف نخافهم ونحن لا نعرفهم ؟ »

قال « لو عرفتهم لبددت شملهم ولكنني أتوسم خطراً من جماعة يزعمون انهم موتورون . . لا أعرف من هم ولكنني أتنسم رائحة ذلك من بعض الاحاديث . . »

قال « صرح يا جوهر . . أنك في مأمن »

قال « ألا تعلم يا سيدي ما أصاب أبا عبد الله الشيعي الذي قام بالدعوة في أول أمرها ومهد الدولة لجدك المهدي رحمه الله ؟. »

فلما سمع اسم أبي عبد الله تغير لونه ولكنه أظهر الاستخفاف وقال «أظنك تعني ان ذلك الرجل قتل مظلوماً »

قال « لا أعني ذلك ولكن بين اصحابه الذين أعانوه في نصرة دعوة مولانا الملك من يتوهم انه ظلم لانه جمع القبائل لنصرة مولانا ولما استتب له الامر قتله وقتل اخاه أبا العباس . أما أنا فأعتقد أنه قتل حقاً بعد ان غير نيته وطمع بالامر لنفسه فلا بد ان يكون لاصحابه مطمع في افساد أمرنا وان كنت لا أخاف فوزهم . ولو سألتني عن واحد منهم لاعترفت اني لا أعرف أحداً وإنما هو سوء الظن لا بد منه في مثل هذه الحال »

فاعتدل المعز في مجلسه وقال « صدقت ولكن لا خوف من ذلك غير اني أسمع ان ذلك المقتول كان عنده مال خبأه في مكان لا أعرفه وقد تعجل جدي في قتله قبل معرفة مستودع المال . سمعت انه مال كثير — ولا يخفى عليك شدة الحاجة إلى المال فى هذه الاحوال . »

قال « نعم يا سيدي سمعت بخبر المال المخبأ لكنني لا أعرف مكانه ولو عرفته لاستخرجته ولا يبعد انه قد تبعثر وسأوالي البحث عنه »

قال « ومع ذلك لا يهمنا المال وعندنا صناديق منه قد شذ عني ترتيبها لكثرتها قد ادخرتها للقيام بذلك العمل لعلمي ان اعداءنا قد أصابهم الفقر حتى تغيرت قلوب الناس عليهم . . »

قال جوهر « صدق مولاي ولكني أرى مع ذلك ان نحتاط ونسيء الظن حتى برجالنا وأمراء القبائل البربرية ولاسيا الذين كانوا حكاماً وعرفوا الدسائس . أخص منهم حمدون صاحب سجلماسة فان هذا الرجل حاربناه وهو صاحب دولة فاخضعناه وسلم لكني أحسبه مكرهاً فاذا رأى مولاي أن نقيده برهن كان ذلك اقرب الى الصواب »

قال « وما هو الرهن ؟ »

قال « لهذا الامير ابنة اسمها لمياء هو عالق بها وشاهدت منها في اثناء حربنا معه بسالة وانفة لم أعهدها بفتاة قبلها فقد كانت تحارب كأكبر القواد على جواد من خير الجياد . ولم نستطع القبض عليها إلا بعد الجهد الكثير وقد أراد الفارس الذي قبض عليها ان يتخذها سبية فمنعته وانقذتها من السبي وأكرمتها . ولا ريب ان والدها يحبها ويضن بها فاذا اتخذناها رهناً على تصرفه في طاعتنا لا يقدم على الخيانة »

قال « قد رأيت حسناً وأين هي الآن ؟ »

قال « هي في فسطاط أبيها المضروب في هذا السهل خارج القيروان »

قال « ولكني أخاف ان ننبهه الى الحقد اذا طلبناها منه الآن »

قال « لاخوف من ذلك فاني أطلبها منه لتكون مكرمة معززة في قصر أمير المؤمنين في خدمة أم الامراء (زوجة المعز) وهذا الشرف لا يتأتى لاحد سواه وأنا على يقين ان مولاتنا أم الامراء سترتاح الى رؤيتها . فان في وجهها مهابة وجمالا مع تعقل وبسالة وقد تحققت مع ذلك أنها من أشد الناس غيرة على دعوة الحق فانها تجل مقام الامام علي وتنصر شيعته مما لم أره في سواها من جماعة البربر كافة ومن الجهة الاخرى أرى ان نصاهره فنكتسب حزبه »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال سأجعل القصد من نقل ابنته الى قصر أم الامراء اني اريد ان أتخذها زوجة لابني الحسين . وهو بلا شك سيكون سعيداً بهذا الاقتران فنكسب الفتاة ونكسب قلب أبيها »

قال «حسناً . افعل بارك الله فيك ولا حرمنا سعيك الحميد» وتزحزح الخليفة فنهض جوهر واستأذن في الانصراف

الفصل الخامس

حمدون

خرج جوهر من حضرة المعز وقضى بقية ليلته مفكراً بما سمعه وكان شديدالاهتمام بامور الدولة كثيرالغيرة علىالدعوة العبيدية. وان لمح به للمعز عن الدساسين شيعة أبي عبد الله لم يكن وهماً بل هو حقيقة . ولكن تلك الاحزاب لم تكن تستطيع الظهور لتغلب القوة فهي تتربص فرصة للوثوب بالدولة — وكان يخاف صاحب سجلماسة على الخصوص لانه صاحب سطوة وله حزب كبير وهو مجازف لا يقدر العواقب . فرأى من حسن السياسة ان يقيده بالرهن على تلك الصورة ثم يقربه بالزواج فيخطب ابنته لابنه فيكتسب ثقته ومساعدته أو يتخلص من شره على الاقل

ولم يكن صاحب سجلماسة يشعر بشيء مما في خاطر جوهر عليه بل كان يحسبه في غفلة عن حركاته وخطواته ففي صباح ذلك اليوم جاءه غلام جوهر يدعوه اليه في قصره بالمنصورية فبادر الى ذلك . وكان حمدون هذا كهلا طويل القامة دقيقها اسود العينين غائرهما لا تستقرحدقتاهما على حال . ولم يكن عنده من الولد غير لمياء . وماتت والدتها فتزوج غيرها وترك تربية الابنة الى رجل من خاصته كان شديد التشيع لاهل البيت . فشبت على ذلك. وأما حمدون فلميكن تشيعه الا ظاهرياً جرياً مع تيار القوة . ولو ترك لنفسه لاختار ان يكون مهدياً يدعو الناس الى نفسه فكانت مطامعه أعلى ما يخطر للبشر . وكان قدهم ان يدعى المهدوية وهو في سجلماسة ولكنه غلب على امره وقيد أسيراً الى القيروان فاظهر الطاعة على غل وشعر جوهر بشيء من ذلك كما رأيت

وكان حمدون مع سعة مطامعه ليس من أهل الدهاء لكنه كان اذا

خطر له أمر بادر الى تنفيذه لا يبالي بما قد يكون في سبيله من الخطر . وكان عرش سجلماسة قد اتصل اليه بالارث من اجداده واتصل بخدمته شيخ اسمه ابو حامد زعم انه من أهل الكرامة نزل عليه منذ اعوام ومعه شاب جميل الصورة اسمه سالم قال انه ابن اخيه وهو فارس شجاع . نزل كلاهما في دار صاحب سجلماسة وهو في ابان امارته . وكان سالم يرى لمياء وهي تذهب وتجيء او تركب الجواد والبربر أقل حجباً لنسائهم من سائر المسلمين فوقعت من خاطره موقعاً جميلا وتعارفا وتحابا فتقدم أبوحامد الى حمدون في خطبة لمياء الى ابن اخيه سالم فاجابه . وقبل أن يحين الاقتران اتى جوهر القائد بجيشه وفتح سجلماسة وأسر اميرها وأهله وفي جملتهم لمياء وابو حامد ولم يقفوا لسالم على خبر فظنوه قتل في المعركة فبكته لمياء وهي في ريب من امره

اما حمدون فكان يعتقد أن سالماً قتل لا محالة وكأنه شاهد شبحاً مثله ملقى على الصعيد في اثناء القتال . ولم يمض على قيامهم من القيروان أيام قليلة حتى خطر لجوهر ما خطر له فبعث اليه في ذلك الصباح . فأتاه في قصره وحده فبالغ في اكرامه وتقديمه وهو لا يعلم سبب هذا الاكرام . ثم قال جوهر « أتعلم لماذا دعوتك ايها الامير »

قال « كلا يا سيدي ؟ »

قال « أنت تعلم اننا كنا بالامس اعداء يستحل أحدنا دم الآخر فصرنا الآن اخواناً نتعاون في نصرة الحق وخدمة امير المؤمنين واحببت ان تزيد تلك الروابط متانة فارجو أن توافقني على ذلك »

فلم يفهم حمدون قصده لكنه بادر الى الثناء على هذه الرغبة فقال « ان ذلك غاية مناي وفيه شرف لي »

قال « لا شرف ولا تشريف ... أتعرف ولدنا الحسين ؟ »

قال « نعم اعرفه حفظه الله . . »

قال « وانا اعرف ابنتك لمياء — وقد شهدت منها في اثناء حربنا

ما حبب الي ان تكون زوجة لابني الحسين وانت تعلم مقدار حبي له فبهذا المقدار سيكون حبي لها »

فلما « سمع حمدون ذلك الطلب اطرق هنيهـة يفكر ثم ابرقت اسرته ليس رغبة في الشرف الذي سيناله من مصاهرة اكبر قواد المعز الفاطمي ولـكنه توسم من ذلك عوناً على امر قام في نفسه فقال « ان مثلي يا مولاي لا يطمع بمثل ذلك فكيف باكثر منه »

فاثنى جوهر على قبوله وقال له « لـكنني زيادة في رفعة قدرها احب ان يكون العقد عليها في منزل أم الامراء زوج امير المؤمنين وخصوصاً لان لمياء يتيمة الام هل ترى بأساً من ذلك ؟ »

فنهض وهو يظهر الامتنان وقال «أي بأس ارى فيه ؟ انه شرف عظيم»

قال « اني مرسل الساعة غلامي اليك في الفسطاط فترسل معه لمياء الى دار امير المؤمنين »

قال « سمعاً وطاعة » وخرج وقد ادهشه توفيقه الى فرصة طالما تمناها وسار تواً الى صديقه ابي حامد فقص عليه ما دار بينه وبين جوهر وأظهر أنه يستشيره فصاح فيه « يعرض عليك ان تكون لك يد وعينان في قصر المعز وقائده وتستشيرني ؟ اقبـل . . » قال ذلك وهو يحك ذقنه ليخفي ما خامره من الفرح بتلك البشارة وله في ذلك غرض يشبه غرض حمدون

فقال حمدون « لم أتردد في قبول ذلك الطلب لحظة . ولـكنني توقفت اولا لان ولدنا سالماً اولى بها و ... »

فقطع ابو حامد كلامه قائلا « دع سالماً الآن انه بعيد ولا ندري متى يعود »

فاطمأن حمدون إذ ظهر له من ذلك القول ان سالماً لا يزال حياً وكان يحسبه قتل فقال « وأين هو سالم الآن ؟ »

قال « ليس هو قريباً . . وسأخبرك بمكانه . اما الآن فلا ترفض ما عرضه عليك القائد الفاتح . . » وتنحنح

فذهب حمدون للحال وقص الخبر على ابنته وحسن لها الذهاب فامتنعت في باديء الرأي لانها عالقة القلب بسالم فأكد لهـا ان سالماً قتل أو هرب ولا أمل برجوعه . ونظراً لما يعلمه من تعلقها باهل البيت ضرب لها على وتر الدين فقال انك « تكونين هناك قرب امير المؤمنين ابن بنت الرسول »

فرضيت وذهبت مع الرسول الى المنصورية حتى اتت قصر المعز

الفصل السادس

لمياء فتاة القيروان

وكان المعز قد بات تلك الليلة وخف بلباله بعد ما دار بينه وبين قائده من الحديث . وفي صباح اليوم التالي قام بفروض الصلاة ثم ذهب الى العمل وبينما هو جالس في ديوانه ينظر في اعماله ويقرأ كتب العمال ويجيب عليها بنفسه جاء غلامه خفيف الصقلبي واستأذنه في كلمة فقال « ما وراؤك ؟ »

قال « ان مولاي القائد بعث فتاة قال انها لقصر مولانا »

فقال المعز « ادخلها ... أين هي ؟ »

فدخلت الفتاة وهي تنظر الى ما في تلك القاعة من صناديق الكتب وليس فيها غير الخليفة وكاتب . وكانت لمياء طويلة القامة اشبه في مشيتها بالرجال منها بالنساء مع جمال وهيبة . سمراء اللون كبيرة العينين اذا نظرت فيهما توهمت انهما تخاطبانك بصيغة الامر . مقوسة الحاجبين متناسبة الملامح غليظة الشفتين قليـلا عريضة الوجنتين مما يدل على القوة . حول رأسها عصابة تدلت منها خيوط في اطرافها كرات من الذهب أو قطع أخرى من المصوغات . وقد أرسل شعرها على كتفيها متجعداً واحاط به رداء كالخمار عقد في أعلى الصدر بعروة من الذهب . وحول عنقها عقود من الجزع ونحوه كما ترى في الشكل

فلما وقع نظر المعز عليهـا لم يتمالك عن الاعجاب بهـا وخصوصاً بعد

ما سمعه عنها من قائده فاستدناها وهش لها تلطفاً وقال « تقدمي يا فتاة . . ما هو اسمك ؟ »

قالت « لمياء يا أمير المؤمنين »

قال « ألعلك ابنة نصيرنا صاحب سجلماسة ؟ »

قالت « نعم يا مولاي »

قال « وهل سرك ان تكوني في قصرنا ؟ »



لمياء فتاة القيروان

قالت « هذا شرف لا استحقه » وابتسمت بامتنان

قال « بل انت أهل لاكثر من ذلك . ألعلك متزوجة ؟ »

فلما سمعت سؤاله أطرقت وبان الخجل في محياها من الدم الذي تصاعد الى وجنتيها ولم تجب

فعلم أنها عذراء فاكتفى بذلك الجواب وقال « لها اذهبي مع غلامنا

هـذا الى أم الامراء فاني أوصيتها بك خـيراً وستحسن وفادتك . لـكني ارجو أن تكوني حسنة الاعتقاد بنا »

فرفعت بصرها نحوه وقالت « إذا كنت تعنى غير الاعتقاد بصحة خلافة آل البيت فلا ... »

فاعجب بصراحة جوابها وقال « انك لنعم الفتاة العلوية لولا ما أراه من كثرة الحلي على رأسك وصدرك فاننا لا نرى الجنوح الى شيء من أسباب الترف »

ولم يتم كلامه حتى أسرعت بيدها الى رأسها وصـدرها واستخرجت ما كان عليهما من الحلي والعقود ورمت بها الى الارض وقالت « لم أكن أعلم ذلك يا سيدي .. وقد كان لي بما شاهدته من بساطة ردائك عبرة وعظة .... هذه جواهري أرميها تحت قدميك . . »

فازداد المعز فرحاً بهـا وابتسم لها ابتسام الرضا والاعجاب وقال « بورك فيك أنك ستنالين اضعاف ما نزعته من الجواهر . فضلا عن سرور أم الامراء بك » وأشار الى الصقلبي فمشى بها وعاد المعز الى عمله

الفصل السابع

أم الامراء

وكانت أم الامراء امرأة عاقلة حكيمة ذات مبرات وحسنات ولها رأي وحزم . وكثيراً ما كان المعز يباحثها ويستشيرها وكان قد أخبرها في ذلك الصباح عن لمياء وأوصاها بها

دخلت لمياء قصر أم الامراء ولو كانت ممن دخل قصور الامراء في مصر أو بغداد في ذلك العهد لحسبته منزل بعض الخدم . لانه كان من البساطة بحيث يقرب من حال البداوة ـ تلك كانت سياسة المعز خوفاً من عواقب الترف لعلمه ان الترف والرخاء من أكبر العوامل في سقوط الدولة كما علمت من كلامه لقائده

وكانت أم الامراء جالسة في غرفتها على بساط من السجاد بلا وشي ولا تطريز وعليه مساند من الديباج البسيط وقد لبست لباساً بسيطاً واتشحت بمطرف وارسلت شعرها مضفوراً بابسط ما يكون . فسرت لمياء لتسرعها في نزع حليها قبل الدخول على تلك الاميرة . فتقدم خفيف الصقلي أولا فأنبأ أم الامراء بمجيء لمياء . فأمرتها ان تتقدم فتقدمت ولم يقع نظر لمياء على أم الامراء حتى استأنست بها كأنها ربيت في منزلها وأشارت اليها أم الامراء ان تقعد فقعدت متأدبة وانصرف خفيف . فقالت أم الامراء « أهلا بالضيفة الجديدة »

فقالت « أشكرك يا سيدتي على هذا اللطف.انما أنا جارية في قصرك »

قالت « بل انت ضيفة مكرمة فان قائدنا جوهر أثنى كثيراً على أدبك وتعقلك وقال انه لم يرض لك العبودية فاطلق سراحك »

قالت وهي تنظر في البساط مبالغة في التأدب « ان ذلك فضل كبير له لا أنساه في عمري . أما فضل مولاتي زوج امير المؤمنين فلا أقدر على القيام بشكره »

فتجاهلت أم الامراء عند سماع ذلك الاطراء وغيرت الحديث فقالت « لم أفعل شيئاً بعد ولعلي استطيع أن أفعله في المستقبل إذ يكون لك قصر مثل هذا القصر تعيشين فيه آمرة ناهية . لأن مثلك ينبغى أن يكون لها أحسن نصيب من كبار الرجال »

ففهمت لمياء أنها تشير الى رغبتها في تزويجها من أحد الامراء فلم يعجبها ذلك لانها عالقة القلب بسواه فبدا ذلك في وجهها وتساقطت من عينيها دمعتان تدحرجتا على خديها فمسحتهما بكمها وهي تبتسم اخفاء لما ظهر من عواطفها فادركت أم الامراء ذلك فبادرتها قائلة « يظهر أنك مشغولة القلب بسوانا »

فلم تمالك لمياء عن البكاء وهي تخجل من بكائها فغطت وجهها بيديها وكأنها استضعفت نفسها وأنفت من ظهور ضعفها فتجلدت وتشاغلت بالابتسام وهي تنظر الى أم الامراء والدمع يتلألأ في عينيها . فأحست أم الامراء

معها فارادت استطلاع حقيقة حالها لعلها تنفعها في شيء فدنت منهـا وهي تظهر الاهتمام بها وقالت « لا يشق عليك تعرضي لك في أمر تريدين كتمانه وإنما أردت أن أباسطك . ونظراً لما توسمت فيك من اللطف أردت أن أكرمك باحسن رجالنا والظاهر أنك مشغولة الخاطر بسواه . الا تجدين في الثقة لتطلعيني على سرك وان كانت هذه أول مرة رأيتني فيها »

فغلب الخجل على لمياء بعد هـذا التنازل وقالت العفو يا سيدتي إنك تتنازلين كثيراً في مخاطبتي وما أنا أهل لشيء من ذلك . . »

فأحست أم الامراء أنهـا ضايقتها في الحديث لاول مقابلة فرأت أن تتركها على أن تعود الى هذا البحث في فرصة أخرى فقالت « بل أنت خير لاحسن منه .. والآن قد آن لك أن تستريحي » وصفقت فأتتها قيمة الدار فأمرتهـا ان تعد غرفة خصوصية للضيفة وان تساعدها في تبديل ثيابهـا وتؤانسها . فنهضت لميـاء ومشت مع القيمة وقد تنبهت عواطفها وهاجت أشجانها

فأخذتهـا القيمة الى غرفة من القصر تطل على الحديقة التي فيها البركة من ناحية وعلى المسجد الجامع من جهة أخرى فساعدتها في تبديل ثيابها فالبستهـا ثوباً من أثواب الاميرات وهو مع غلاء قيمته بسيط في زيه بلا زركشة ولا تأنق . وقد اعجبت لمياء بكل ماشاهدته هناك من أدلة البساطة والجنوح الى العمل . وقلما وجـدت شيئاً يراد به الزخرفة فقط . مع ان قصر أبيها في سجلماسة لم يكن يخلو من الترف والرخاء يقلد بهما حضارة بغداد أو مصر أو الاندلس فيأتي من كل بافخر مصنوعاتها ـ وأما المعز فكان يخاف ذلك الرخاء فيميل الي التمسك بالبساطة والبعد عن الترف

الفصل الثامن

المناجاة

ولما خلت لمياء في تلك الغرفة تصورت ما أصابها من الانتقال في ذلك

اليوم . باتت أمس في فسطاط أبيها خارج القيروان وهي الآن في قصر الخليفة المعز لدين الله معززة مكرمة . وتذكرت أن المعز من نسل الامام علي وفاطمة الزهراء فاختلج قلبها من الفرح لحصولها على الحظ بالتقرب من ذلك الدم الطاهر والشرف العظيم ـ ومشت الى شرفة مطلة على الحديقة ولم تكد تجلس حتى تقاذفتها الهواجس وتذكرت خطيبها سالماً وكانت قد أحبته ووطنت النفس على الاقتران به . فلما آن وقت العقد أخذت أسيرة مع أبيها ولم تعد ترى سالماً ولا علمت أين هو ..وكانت تعلم من اسراره ما لا يعرفه عمه وكان في ما اطلعها عليه من أغراضه أمور تنكرها عليه ولا يعلم عمه أبو حامد باطلاعها على تلك الاسرار ولعله لو علم لم يسمح بتقربها من المعز

فأطرقت حيناً وهي غارقة في التفكير وجعلت تناجي نفسها قائلة «أين أنت يا سالم لا . لا أصدق أنك قتلت . . لا . لم تقتل بل أنت مختبىء أو متنكر .. أو لعلك تفكر في ذلك الامر .. ليتني أستطيع أن أراك لاطلعك على امور تهون عليك العدول عن عزمك . . وأتخلص مما يعرضونه علي . . اني لا أحب الزواج إلا بك لاني لم أحب سواك ولكنني مع ذلك لا أوافقك على عزمك لأن فيه خطراً . آه أين أنت ؟ »

وهي في ذلك سمعت حركة وحديثاً في الحديقة فتحولت مجاري أفكارها نحو ما سمعته وجلست تتوقع أن ترى أحداً وكانت قد ضفرت شعرها ضفيرتين جانبيتين ولفت رأسها بخمار كبير كالحبرة يغطي كتفيها وجنبيها . وما لبثت ان سمعت خفق نعال على مقربة من النافذة فتراجعت وهي لا تزال تنظر نحو الحديقة.واذا هي برجلين عرفت منهما القائدجوهر وبجانبه شاب في مقتبل العمر يظهر من ملامحه أنه ابنه الحسين وتذكرت ما قيل لها عن رغبته فيها فأحست بنفور وانزوت مخافة أن يقع نظره عليها

أما جوهر فكان ماشياً وعليه الجبة والقفطان وفوق رأسه العمامة الصغيرة وحولها الخمار وقد تقلد السيف . وفي مشيته وثبات قدميه ما يدل على أنه قائد عظيم وأما ابنه فكان في مثل لباسه لكنه لا يزال يانعاً وفي

محياه نضارة الشباب مع هيبة القواد والبسالة بادية في عينيه وجبينه

ولحظت لمياء وهي منزوية أن الحسين بن جوهر لما وصل الى جانب غرفتها التفت كأنه يلتمس أن يرى أحداً وسمعت أباه يقول له بصوت منخفض « لا شك انك لو رأيتها ما تمالكت عن الاعجاب بها لانها جمعت بين مهابة الرجال ولطف النساء . »

فقال الحسين « اني لا أراجعك في شيء تراه .. وأنت أعلم مني وأوسع اختباراً لكنني لا اثق بأبيها ولا اظنك تجهل ما في خاطره و ... »

وكانا يتكلمان وهما ماشيان فلم تسمع لمياء من حديثهما الا نتفاً فهمت منها انهما يتحادثان بشأن خطبتها له فوقعت في حيرة وخافت ان يطلب منها الزواج به وهي عالقة القلب بسالم وان كانت لا تعرف مقره

وكانت لمياء مع بسالتها وقوة بدنها قوية العواطف إذا احبت تمكن الحب من قلبها حتى يشغلها عن كل شاغل لا سيما وان سالماً اول شاب عرفته واحبته

ثم عادت فسمعت جوهر يخاطب ابنه وقد عادا من حيث أتيا وإنما الحديث فاصغت لعلها تسمع تتمة الكلام فسمعت جوهر يقول «ان معاملة هؤلاء بالحسنى اولى بنا واقرب الى جمع القلوب . وصاحب سجلماسة من أولى الامراء بذلك .. » ثم انقطع الحديث من البعد فاصبحت لمياء اشد رغبة في الاطلاع عليه فاصغت لسماعه عبثاً . فقعدت وهي تصلح خمارها وتعمل فكرتها وإذا هي تسمع لغطاً فيه صوت أبيها فاجفلت ثم رأت أباها وجوهر ماشيين وجوهر يحتفي بحمدون ويلاطفه . ومن قوله له «لا ريب ان مولانا المعز يقدر صاحب سجلماسة حق قدره وطالما ذكرك في غيابك واثني على علو همتك »

فقال حمدون « نحن نفتخر ان نقوم بنصرة ابن فاطمة الزهراء »

ثم بعد الصوت وعلمت لمياء من هذا الحديث أن أباها وجوهر ذاهبان الى المعز بزيارة وربما كان ذلك بشأنها . فاشتغل خاطرها لئلا يعدهم أبوها بها أو يخطبها للحسين وهي لا تريد . فمشت من غرفتها وهي تود أن تحضر

تلك الجلسة لتعلم ما يدور بين أبيها والمعز بشأنها . ولكنها لم تجد وسيلة الى ذلك إلا على يد أم الامراء وكانت تسمع بمشاركتها زوجها بالآراء أحياناً حتى كثيراً ما كانت تحضر مجالس المداولة من وراء ستار (١)

الفصل التاسع

لمياء وأم الامراء

وكانت أم الامراء قد اعجبت بلمياء كل الاعجاب وأحبتها من كل قلبها . وكذلك لمياء فانها أحبت أم الامراء واستأنست بها كأنها تعرفها من اعوام وقد هان عليها أن تكاشفها بما يكنه قلبها وتستشيرها في امرها وتستعينها في حاجتها . فذهبت تطلبها في غرفتها فلم تجدها فلقيت حاضنتها — وهي امرأة رومية الاصل استجلبها المعز من صقلية لما دخلت في حوزته في جملة نساء حملهن للخدمة وتدبير المنزل . وقد استلطفتها لمياء ورأت منها انعطافاً نحوها فسألتها عن أم الامراء فقالت « قد ذهبت في شغل وستعود قريباً » ودعتها للقعود

فقعدت وخاطرها مشغول بمسير والدها الى المعز مع جوهر فأحبت ان تشغل نفسها ريثما تأتي أم الامراء فقالت للحاضنة «يا خالة يظهر لي من ملامحك أنك لست من أهل هذه البلاد .. »

قالت « صدقت اني من صقلية يا سيدتي »

قالت « فأنت إذن رومية الاصل .. »

قالت « نعم وافتخر بأني من نفس البلد الذي منه أكبر قواد أمير المؤمنين »

---

(١) المقريزي ج ١

فعلمت انها تعني جوهر القائد فقالت « وهل القائد جوهر من صقلية أيضاً ؟ »

قالت نعم ياسيدتي أنه من نفس ذلك البلد . ألا يحق لي أن أفتخر به ؟ »

قالت « كيف لا ؟ وهو موضع فخر أهل هـذه الدولة . نصره الله على اعدائه »

وهي في ذلك جاءت أم الامراء وهي تمشي مشية النشاط لا تتثاقل تثاقل أهل الترف فتراجعت الحاضنة وخرجت . ووقفت لميـاء وهي تبتسم وتنظر الى أم الامراء نظر شاكر بهج فأجابتها تلك بمثل ذلك وتناولتهـا بيدها على غير كلفة ودخلت بها الى مخدعها الخصوصي وهي تقول « احب أن أراك تستأنسين بي وأن تعدي نفسك ابنة لي »

فأكبت لمياء على يدها فقبلتها ودموع الفرح تتساقط من عينيهاوقالت « لقد غمرتني بفضلك يا سيدتي بما لم يعد في امكاني القيام بشكره .. كفى .. ان ذلك فوق ما استحقه أو يخطر ببالى »

قالت وهي تقربها من وسادة في صدر الحجرة وتقعدها بجانبها « إنك أهل لاكثر من ذلك يا لمياء ولا فضل لى إذا أحببتك فاني لم أسمع أحداً ذكرك إلا أعجب بك وبكمالك وهيبتك . . . هـذا قائدنا جوهر شديد الاعجاب بك وقد رغب في تقريب والدك من امير المؤمنين اكراماً لخاطرك . وقد جاء به الآن وسيدخلان اليه ولا شك ان المعز سيحل اباك محلا رفيعاً اكراماً لقائده .. » وسكتت وبلعت ريقها وهي تنظر الى لمياء وتتأمل ملامحها وما يبدو منها فرأتها مصغية لا يبدو على وجهها شيء من الاضطراب . فعادت الى إتمام حديثها فقالت « وبلغ من افتتان قائدنا بك انه أحب ان يأخذك اليه ويجعلك ابنة له . . »

فظهرت البغتة على لميـاء واطرقت حياء فابتدرتها ام الامراء قائلة « لا اعني ان تصيري ابنة له دون ابيك بل هو ينوي ان يخطبك . . . الى ابنه الحسين . . هل رأيت هـذا الشاب ؟ . . لا ينبغي ان تخجلي مني . . اتخذيني أماً لك »

فتصاعد الدم الى وجنتي لمياء وابرقت عيناها من التفكير وقالت « اشكر لك هـذا الاحسان يا سيدتي . نعم اني يتيمة الام ولـكنني في حضن أم تتمنى كل فتاة ان تكون امها ـ نعم ينبغي لى ان اخاطبك بحرية اما من جهة رؤية الحسين بن جوهر فاني لم اره الا في هذا النهار عرضاً وهو مار في الحديقة مع ابيه . . »

فقطعت ام الامراء كلامها قائلة « لم يكن مجيئه عرضاً ولـكنه جاء عمداً ليرى الفتاة التي حدثه ابوه عنها .. طيب وماذا تضمرين بعد ذلك ؟

فتنهدت لمياء وهمت بالـكلام واسكتها الحياء فأدركت ام الامراء انهـا تخفي شيئاً من قبيل الحب ـ والنساء يتفاهمن بلغات القلوب اسرع من تفاهم الرجال . فقدمت لها مذبة كانت في يدها تروح بها على سبيل المؤانسة وقالت لها « لا ينبغى لك تستحي مني يا لميـاء بعد ما لقيته من حبي لك . ويكفي دليلا على هذا الحب ان اسعى في تزويجك باحسن شاب في القيروان بعد ابناء الخليفة .. وهؤلاء يا لمياء لم يبلغوا سن الزواج بعد . » وضحكت

فازدادت لمياء خجلا من هذا التلميح الممزوج بالتقريع على الـكبرياء ولم تعد ترى باعثاً على الحياء فتناولت المذبة من يدها ثم اعادتها اليها بلطف وشكر وقالت « لا تظني يا سيدتي اني جاهلة حقيقة قدري او اني لم ادرك مقدار فضلك فيما تعرضينه علي فاسمحي لى ان اصرح بحقيقة حالى . اني يا سيدتي مخطوبة .. » وصبغ الحياء وجهها

لم تستغرب أم الامراء قولها لانهـا لحظت ذلك فيها من قبل لـكنها تجاهلت لتسمع منها هذا التصريح فأجابتها وهي تبتسم « من هو ذلك الخطيب السعيد الذي حظي بك وما اسمه ؟ »

فخجلت من هـذا الاطراء وقالت « انه يا سيدتي شاب من اصدقاء والدي عرفته في سجلماسة وله عم كثير التودد لاسرتنا فخطبني اليه واسمه سالم . . . »

فقالت « أين هو ؟ »

فأجابت لمياء وهي تهز كتفيها الى الاعلى اشارة الانكار « لا أدري

أين هو ولكنني اعلم أنه كان في جملة من شهد المعركة الاخيرة التي قضى بها لامير المؤمنين فقادوني ووالدي اسيرين . ولم أعلم أين ذهب سالم . . . »

فضحكت أم الامراء وقالت « يظهر انك تحبينه كثيراً حتى أنك مع شكك بوجوده لا تزالين ثابتة في وده »

فتنهدت تنهداً عميقاً وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها ولم تجب

فتشاغلت أم الامراء باصلاح ضفائر الشعر المرسلة على صدرها من الخمار وقالت « قد يصح ذلك ولكن هل تحسبينه ثابتاً في حبك لا يلتفت الى سواك ؟ . ان هؤلاء الرجال لا يركن اليهم . ولا تظني الحسين بن قائدنا جوهر يتأتى العثور على مثله في جيل من الناس .. ومع ذلك فالخاطر لك . وأنا إنما أردت خيرك لانني أحببتك و ... » قالت ذلك وبان العتب في عينيها

الفصل العاشر

التصريح

فأثر ذلك التوبيخ في نفس لمياء تأثيراً شديداً ورأت قولها معقولا ولكن قلبها لم يطاوعها على العمل به ولا طاوعها عقلها على الرفض . وهي مع ذلك لا تعلم أين هو سالم . ميت أو حي ولم تر فرجاً من تلك الحيرة الا بالبكاء فجاشت خواطرها وهمت بالبكاء ثم امسكت عواطفها تجلداً وسكتت وهي تبلع ريقها وتغالب نفسها وقد اطرقت لا تبدي حراكا . وأظهرت أنها تتفرس في جلد اسد مفروش هناك

فلم تبال أم الامراء بسكوتها فأتمت كلامها قائلة « ومع ذلك فقد سمعت قائدنا جوهر يطري شجاعتك وثباتك في حومة الوغي.. فمالي أرى فيك هذا الضعف الآن ؟ »

فلم تعد لمياء تستطيع التمالك فتنهدت تنهداً شديداً ورفعت عينيها الى أم الامراء والدمع يتلألأ فيهما وجلست جثواً على سبيل التأدب وقالت وهي

تغص بالـكلام « لقد غمرتني بلطفك يا سيدتي . . اني لا استحق هـذا الالتفات ... نعم لا استحق النعمة التي تعرضينها علي ولـكنني . . آه ... لا املك قياد قلبي . . . سامحيني على التصريح لك . لقد رأيت من عطفك ولطفك ما يخولني الدالة عليك وان خالفت العادة والطبع اني يا مولاتي لا أملك من قياد نفسي شيئاً . نعم اني شجاعة في الحرب لا اهاب لقاء الابطال ولـكنني مع سالم ضعيفة ... لا اذكره الا واشعر بانحلال عزائمي وخفقان قلبي ... ألعل ذلك ما يعبرون عنه بالحب ؟.. وقد سألتني اذا كان يحبني فـكيف يمكن أن لا يكون كذلك وانا لا ارى للحياة قيمة بدونه .. »
ولمـا وصلت الى هنا انتبهت لنفسها واحست انها تورطت في التصريح بمـا لا يجوز لمثلها وانما غلبت على عواطفها فلم تملك امساك هواها . وخجلت من ام الامراء فحولت وجهها نحو الحائط واخـذت في البكاء وقد بكت هذه المرة أسفاً على ضعفها وتطلعاً الى رؤية حبيبها سالم وهي لا تعلم أين هو

أما أم الامراء فاستغربت تعلق لمياء بخطيبها ولم تكن تتوقع ان ترى منها ثباتاً وشغفاً الى هذا الحد .فلما آنست منها ذلك قالت « يسرني يا بنية انك تحبين خطيبك الى هذا الحد فان المحبة من أكبر النعم . واطلب الى الله ان يجمعك به واذا رأيت اني قادرة على مساعدتك في ذلك قولي ... أما الحسين فاني استمهله لنرى ما يكون ـ إذ لا يعلم ما في الغيب الا الله . . . . »

فهمت لميـاء بتقبيل يدها شكراً على صنيعها فأبت عليها ذلك وقبلتهـا برأسها ونهضت وهى تقول « قد تعودت ان اذهب في مثل هذه الساعة الى مقعد لى يشرف على قاعة امير المؤمنين التى يقابل الناس فيهـا اطل عليهـا من وراء حجاب فاشاهد مجلس الامراء واسمع ما يدور بينهـم اني كثيرة الاهتمام بشؤون الدولة . . »

فاعجبت لمياء بعلو همتها وقالت « سمعت بذلك عنك » وقد سرها أن تبدأ هى بالعزم على ذلك ومالت الى مرافقتها فقالت « وهل ترين بأساً من ان اكون معك ؟ »

قالت « كلا .. وبالعكس فاني استأنس بك »

ومشتا في دهليز الى غرفة في احد جدرانها مقعد على دكة يصعد اليه ببضع درجات وراءه ستر يحجبه . وفي الستر ثقوب اذا شاء الجالس ان يشرف على من في القاعة الكبراء رآهم وسمع اقوالهم . فتناولتها أم الامراء بيدها حتى اجلستها بجانبها على المقعد وقالت لها « انظري من هذا الثقب » فنظرت فاذا هي تشرف على مجلس الخليفة من اعلى الحائط بحيث ترى الجلوس هناك ولا يرونها

رأت قاعة واسعة قد فرشت ارضها باللبود البسيط وقد جلس المعز لدين الله في صدرها على منصة كالوسادة الصغيرة وهو في لباس بسيط بالنسبة الى سواه من الملوك والخلفاء . على رأسه العمامة وعلى كتفيه برنس كالعباءة يغطي اثوابه . وقد التف به واقعد الاربعاء قعود من اتعبه العمل فتربع وألقى كوعيه على فخذيه . والى جانبه حسام مغمد وفي يمينه قلم . وفي يساره ورقة من الكاغد ينظر اليها وكاتبه واقف امامه ينتظر امره فبعد ان تأمل الورقة وضع القلم بجانب دواة بين يديه ودفع الورقة الى الكاتب وأشار اليه أن يذهب . ثم تنفس الصعداء وقال « اذا شاء الامراء والمشائخ الدخول فليتفضلوا »

فلما سمعت أم الامراء قوله قالت للمياء « أنه يدعو مشائخ كتامه وصنهاجة وهوارة وهم رجال دولته من امراء البربر لعله يريد النظر في أمر هام »

فسرت لمياء لهذه الفرصة لترى كيف يعقد مجلس الملوك . على أنها ما لبثت أن رأت جماعة من المشائخ والامراء دخلوا وألقوا التحية بصوت عال كالعادة . وأشار اليهم المعز فقعدوا على وسادات مثل وسادته محيطة بالقاعة . وجعلت لمياء تتفرس فيهم فرأت بينهم وجوهاً تعرفها من قبل ولما استقر بهم الجلوس جعل المعز يرحب بهم وهم يدعون له ثم قال « قد تكبدتم المشقة في المجيء الينا وانما دعوتكم لاريكم حالي من العمل . إذ قد يتصور بعض الذين لا يعلمون ان الامامة من اسباب الراحة والتنعم والانقطاع عن

العمل . نعم هى كذلك لمن شغلوا بالترف عن مصالح الدولة كما يفعل صاحب بغداد وصاحب قرطبة وامراؤهم في الاطراف . لأن الدنيا شغلتهم عن الامامة الحقة فانغمسوا بالملذات وتقلبوا في المثقل والديباج والحرير والسمور والمسك والخمر مثل سائر ارباب الدنيا

وأما أنا فقد أحببت استقدامكم لاريكم كيف ينبغى أن يكون الامام : انظروا الى هذا الكساء والجبة وها أنا جالس على اللبود وهذه الابواب مفتحة تفضي الى خزائن الكتب وأنا اشتغل بمكاتبة الاطراف بيدي لا التفت الى امور الدنيا الا بما يصون أرواحكم ويقمع اضدادكم فافعلوا يا شيوخ في خلواتكم مثل ما أفعله ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم »

فتصدى شيخ منهم أكبرهم سناً وقال « ان امير المؤمنين قدوتنا ونعم المثال هو »

فقال « اذا فعلتم ذلك يقرب الله منا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب .. انهضوا رحمكم الله ونصركم »

فوقفوا وحيوه وخرجواوقد امتلأت قلوبهم هيبة ولمياء تعجب لسرعة صرفهم وادركت أم الامراء فيها ذلك فقالت « لابد لسرعة صرفهم من سبب فقد تعودت ان اجلس هنا ساعات اسمع مباحثاتهم في أهم الامور »

ولم تتم كلامها حتى سمعت المعز يصفق وهو يقول « خفيف ! » فحضر غلامه فقال « ذكرت لى منذ هنيهة ان قائدنا يحب ان يرانا على حدة فاسرعنا في صرف شيوخ كتامة لنتفرغ له . ادعه »

فخرج الغلام وهمست أم الامراء قائلة « هذا هو السبب في سرعة صرفهم . . ان جوهر قادم اليه . . لله دره من رجل باسل »

فلما سمعت لمياء اسمه تذكرت انها رأته ذلك اليوم في الحديقة مع ابيها وخطر لها انها رأته ايضاً مع ابنه الحسين فخفق قلبها لانها اصبحت تخاف أن تراه بعد ان دار مادار بينها وبين أم الامراء بشأنه وتخاف إذا تكرر

الترغيب فيه أن يخونها قلبها فتميل اليه وهى لا تريد أن يكون لاحد نصيب من فؤادها غير سالم

الفصل الحادى عشر

الخطبة

وما كادت تفكر في ذلك حتى رأت جوهر في وسط القاعة وقد أمسك أباها حمدون بيده كانه يقدمه الى المعز وهو يقول « اقدم لمولانا امير المؤمنين الامير حمدون صاحب سجلماسة صديقنا الجديد »

فنظر المعز اليه وابتسم ابتسام الملوك وقال « اهلا بصديقنا .. ارجو ان لا يكون في خاطره شيء من نحونا »

فاسرع حمدون وترامى بين يدي المعز كالمستغيث ـ وقد فعل ذلك مبالغة بالتزلف وقال « لقد اسعدنا الحظ بهذه الصداقة وهي شرف لنا ولو عرفنا مناقب الامام من قبل لجئناه بغير حرب »

فانهضه المعز بيده وأشار اليه ان يجلس بجانبه على وسادة وهو يرحب به ويبتسم . وأشار الى جوهر ان يقعد فقعد وهو مسرور من نجاح مهمته في مصلحة الدولة بتقريب هـذا الامير للطاعة لانه صاحب جاه واسع وحزب كبير

جلس حمدون وهو يظهر التأدب بحضرة المعز لكن عينيه كانتا تجولان خلسة في اطراف القاعة لا تستقران على حال كانهما عينا لص . على انه كان في وجهه هيبة الامراء

أما لمياء فلما رأت والدها هناك سرت لتقربه من المعز لانها كانت تعلم ما في خاطره عليه وانه لم يكن أثقل على قلبه من ذلك الاسر . فسرها أولا أنه رضي بارسالها الى بيت الخليفة وزاد سرورها انه تقرب منه . وهي تود ذلك من جملة وجوه أهمها اعتقادها الكرامة بالمعز لانه من نسل فاطمة الزهراء وهي حسنة الاعتقاد بالشيعة . وإنما كان همها بعد ذلك ان

يأتي سالم ويتقرب الى المعز فيتم لها السرور . وان كانت من فطرتها عزيزة الجانب ميالة الى الاستقلال وقد حاربت في سبيله ولم تسلم إلا قهراً . لكنها لم تكن راضية عن اعمال والدها فان بين أخلاقها واخلاقه بوناً عظيما .وقد لقيت من المعز وامرأته كل رعاية واكرام فوطنت النفس على التفاني في مصلحتهما وإنما ينقصها العثور على سالم واقناعه بالتسليم معها . ومع علمها بصعوبة تسليمه كانت تعتقد أنها تقدر ان تتغلب عليه بالدالة والبرهان

أما المعز فالتفت الى جوهر لفتة صديق معجب بصديقه وقال « يسرني كثيراً ان تجتمع كلمة شيعتنا على المطالبة بحقوقنا »

فقال جوهر « ان ذلك هين بتوفيق مولانا أعزه الله . وأنا أعد تقريب امير سجلماسة الباسل فألا مباركا . لانه رجل حرب وله اعوان يتفانون في نصرته فبمثله يعز الملك »

فقال حمدون « اني أفاخر سائر الامراء بهذه الحظوى بين يدي امير المؤمنين وقد أصبحت الآن سيفاً من سيوفه أناضل عنه الى آخر نسمة من حياتي ـ أقول ذلك عني وعن رجال قبيلتي . . »

فابتسم المعز وقال « انك اذا فعلت ذلك إنما تنصر الحق كما انصره أنا . وان امامتي على رجالي لا تميزني عنهم بشيء من مرافق الحياة . بل أنا أكثرهم تعباً وسهراً كما ترى مما بين يدي من الاعمال ـ اني اعمل بيدي ما لا يعمله صاحب بغداد ولا صاحب قرطبة . انظر في كل شيء بنفسي ـ لا أقول ذلك افتخاراً ولكنني أقول الحق فما أنا إمامكم إلا بما خصني به الله من النسب الطاهر وأما في ما خلا ذلك فأنا واحد منكم »

فقال حمدون وهو يظهر الاخلاص « اني أحمد الله بما من علي به من نعم أمير المؤمنين وسيرى مني ما تقر به عينه وتنبسط نفسه »

فأبرقت أسرة جوهر فرحاً بنجاح مسعاه ونظر الى المعز نظرة فهم المعز مراده منها فالتفت الى حمدون لفتة تودد وقال « وما أنا راض لامير سجلماسة بما أردته لغيره من الامراء المقربين . بل أنا أحب اختصه باكرام

لم ينله سواه . أنت تعلم منزلة قائدنا جوهر حامي حمى هذه الدولة . انه صاحب المنزلة الاولى عنـدنا فنحب ان نزيد أسباب القربى بينك وبينه . وهي قربى لنا أيضاً »

فأدرك حمدون غرضه ولـكنه تجاهل وقال « ان أمر مولانا مقبول على الرأس والعين . . فليأمر بما يراه »

قال « نحب ان نخطب ابنتك لمياء الى الحسين بن قائدنا جوهر وهو من خيرة الشبان ـ فهل توافقني على ذلك ؟ »

فبادر حمدون الى الجواب بلهفة وقال « ان هـذا شرف عظيم لنا يا سيدي .. ان لمياء لا تستحق هـذه النعمة لان جوهر حفظه الله قدوة القواد . وان لميـاء جارية أمير المؤمنين يضعها حيثما شاء . . لامير المؤمنين الامر ولنا الطاعة »

وكانت لمياء وهي تسمع كلامهم من وراء الستر تخاف ان يفضي الحديث الى هذه الغاية فلما سمعت اتفاقهما على الخطبة اجفلت وارتبكت والتفتت الى أم الامراء لفتة مستغيث . فضمتها الى صـدرها ولم تزد . فرفعت لمياء رأسها لتنظر في عيني أم الامراء لعلها تفهم مرادها من ذلك التحبب فرأتها تضحك ضحك من ظفر بغنيمة . فاشتبه عليها أمرها وهي لا تدري ماذا تعمل وأخذتها الرعدة وترقرق الدمع في عينيها

فهمست أم الامراء في أذنهـا قائلة « لم تقبلي ذلك الطلب مني فهاقد اتفق عليه والدك وامير المؤمنين فهل من سبيل الى الرفض ؟ »

فأجابتها لمياء بهز رأسها هز الانكار ولسان حالها يقول « اني لا ازال على عزمي . »

فاشارت أم الامراء بسبابتها على فمها « ان اصبري الآن وسترى »

فسكتت واذا هي تسمع المعز يقول « بارك الله فيك اني أهنيء ابن قائدنا بهذه الفتاة كما اهنئها به لانه من خيرة الشبان فعسى ان تكون راضية بذلك »

فقال حمدون « أنها لا شك راضية .. كيف لا ترضى بما رضي به لها امير المؤمنين ووافق عليه والدها ؟ »

فلم تعد لمياء تصبر على سماع ذلك فنهضت تريد الانزواء نفوراً من ذلك الحديث فأمسكتهـا أم الامراء وأجلستها . فأطاعت وسكتت وهي تكاد تتميز غيظاً ولا تعلم ماذا تعمل

اما المعز فتزحزح من مجلسه اشارة للصرف . فوقف جوهر وحمدون واستأذنا بالانصراف فأذن لهما وهو يقول « نترك تعيين وقت العقد لقائدنا ونحب ان يكون ذلك في حضرتنا اكراماً للعروسين »

انصرفا وتركا لمياء على مثل الجمر وقد جد الدم في عروقها وتولتهـا الدهشة وحق لها ذلك فانها مع شدة تعلقها بسالم لا ترى مندوحة عن طاعة والدها وامير المؤمنين

الفصل الثانى عشر

الحيرة

نهضت أم الامراء وأخذت لمياء بيدها تخفيفاً عنها . وقد شعرت بما هي فيه من الارتباك فمشت لميـاء معها وهي مستغرقة في الهواجس لا تنبس ببنت شفة

حتى اذا وصلتا الى حجرة أم الامراء استأذنت لمياء بالانصراف الى الغرفة التي أعدت لمنامهـا . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فدعتهـا أم الامراء الى البقاء عندها فاعتذرت أنها تشعر بصداع شديد لا ترى وسيلة للتخلص منه بغير النوم . فأذنت لها حباً باطلاق الحرية لها لئلا يؤثر الضغط على نفسها واضمرت ان تتفقدها بعد هنيهة

سارت لمياء وهي تتعثر بأذيالها ولم تصل غرفتها حتى أحست بخوار قواها فاستلقت على فراشها وقد انقبضت نفسها وزادها غروب الشمس انقباضاً . وأخذت تفكر في ما هي فيه من الضيق فرأت أنها لَولا حبها سالماً لـكانت

في سعادة لا مثيل لانها ستخطب لابن أكبر القواد على يد أحسن الخلفاء في دار الملك . وقد تقربت من أم الامراء وتصادقتا . وهي تشعر ان هذه الملكة تحبها حقيقة . فلم يكن اسعد حالا منها لولا تعلقها بسالم وأرادت ان تقنع نفسها بتركه والرضي بتلك النعم فلم تستطع . وحالما خطر لها ذلك الخاطر أحست بشيء كالملقط قبض على قلبها

وأخذت تغالب عواطفها وتخاطب نفسها وهي جالسة على الفراش قائلة « لعل أم الامراء مصيبة في قولها عن الرجال أنهم لا يحفظون ذماماً كالنساء . . ولكن سالماً ليس مثله سواه . كيف افكر في غيره وقد تعاقدنا .. لله ما هذه الافكار الشيطانية ليس في الدنيا اكبر نفساً واجمل خلقاً من سالم ــ ليست السعادة بالمال ولا في الجاه .. ان السعادة في الحب .. مهما عارضتني صروف الدهر وعاندتني وتراكمت علي فاذا تذكرت سالماً وانه يحبني شعرت بلذة وراحة لا مثيل لها ــ ما أجمل الحب وأحلاه ... ولكن هل سالم يحبني كما احبه ؟ . »

وهي في ذلك طرق الباب فاجفلت فرأت صقلبياً يحمل مصباحاً وقف بالباب وهو يقول « ان مولاتي أم الامراء أمرتني أن أنير لك هذا المصباح » ووضعه على رف في الحائط مصنوع لهذه الغاية وقال « ألا تريد مولاتي ان آتيها بالطعام للعشاء »

قالت « كلا . اني لا اشعر بالجوع وارجو ان تبلغ مولاتنا أم الامراء شكري الجزيل على افضالها »

فانحنى وهم بالخروج . فاستوقفته وقد خطر لها خاطر جديد فقالت « هل انت من خدم هذا القصر ؟ »

قال « نعم يا سيدتي هل تحتاجين الى شيء ؟ »

قالت « احب ان ارى مولاتنا أين هى ؟ »

فقال « هي هنا يا سيدتي » وتنحى

فاستغربت قوله . واذا بأم الامراء بالباب فبغتت لمياء لوجودها هناك وقالت « كيف حضرت يا سيدتي .. وأين كنت »

فضحكت واشارت الى الخصي فانصرف وضمت لمياء الى صدرها وقبلتها وقالت « أتظنين اني غافلة عما أنت فيه ؟ اذنت لك بالانصراف الى مخدعك وقلبي يراعيك ولم أعالك عن أن أجيء بنفسي لاراقب حركاتك . وإنما ارسلت الصقلبي قبلي ليرى هل أنت نائمة »

فلما سمعت كلامها اكبت على يديها وجعلت تقبلهما قائلة «بالله ياسيدتي ما هذه النفس الكريمة ما هذه الاخلاق العالية ما هـذا الحنو الوالدي .. هل استحق منك هذه العناية ؟ ان شعورك معي في هذه المشاكل خففها » وسكتت وهي تدعو أم الامراء للجلوس على فراشها

فأجابتها «قلت لك اني احبتك وأنا لا أقول جزافاً . ثم اني اعلم الناس بما يكنه قلبك فقلت في نفسي لعلي اذا جئتها وكانت مضطربة ان اخفف عنها شيئاً »

فتنهدت لمياء وسبقتهـا العبرات وقالت « لقد خففت عني كثيراً ولـكن . . . »

فمسحت أم الامراء دموع لميـاء بمنديلها وقالت « انك يا بنية حملت نفسك التعب باختيـارك . . ان النصيب الذي عرض عليك لو عرض على احسن نساء العالمين لفرحت به وأنت لا ... » وبلعت ريقها واستغنت عن التصريح بالاشارة

فقالت لمياء « هذا كله اعلمه وقد حاولت ان اقنع نفسي فاذا أنا عاجزة عن ذلك . . اني ضعيفة مسكينة . . آه من الحب . . سامحيني يا سـيدتي على هذه الحرية في خطابي ... اردت ان اقنع نفسي ان ماسيدعونني اليه والدي سعادة لا ترد فشعرت بقشعريرة ارتعدت لها فرائصي .. لا أقدر .. لا اقدر ان اتسلط على نفسي .. اني لا املك رشدي يظهر اني مجنونة . . »

فضحكت أم الامراء على سبيل المداعبة وقالت « هل تشكين في ذلك؟ الا تعلمين ان العلماء يسمون الحب الشديد جنوناً .. »

قالت « مهما يكن فاني غير قادرة على التخلص من هذه الهواجس .. بالله اشفقي علي وارفقي بي . . »

قالت « اني مستعدة لما تريدينه . نعم احب ان تكوني من نصيب الحسين بن جوهر ولكنني افضل راحتك . فاذا كنت تظنين اني في قدرة على مساعدتك في شيء قولي »

فأطرقت وسبابتها على شفتها السفلى وهي تفكر وأم الامراء تنظر اليها وتنتظر ما تقوله فاذا هي رفعت بصرها اليها وقالت « اني اطلب منك أمراً لا يصعب عليك . اني أحب الذهاب الى والدي لاراه وأباحثه في الامر الذي عرض عليه اليوم . لعله اذا علم بما في خاطري يعفيني منه . وانت تكملين فضلك في ارجاع امير المؤمنين عن عزمه »

ففكرت أم الامراء لحظة وهي تعلم ان زيجة لمياء للحسين يراد بها غرض سياسي لاكتساب قلب حمدون فضلا عن ملاءمة العروسين فلم تشأ أن تعدها باقناع زوجها لكنها طيبت خاطرها وقالت « لك علي ذلك .. متى تذهبين الى والدك ؟ »

قالت « الآن ياسيدتي . . اني لا استطيع رقاداً ان لم أره واباحثه »

قالت « كيف تذهبين الآن وقد داهمنا الظلام ووالدك في معسكره خارج المنصورية وقد أقفلت الابواب . ومثلك لا يؤذن بخروجها من هذا القصر »

قالت « أخرج متنكرة وأنا لا أبالي بالظلام إنما اطلب اليك ان تأمري بثوب احد الصقالبة خدم القصر البسه وأخرج بحجة رسالة احملها من امير المؤمنين الى صاحب سجلماسة »

ففكرت أم الامراء لحظة ثم قالت « ذلك هين علي ولكنني اخاف ان يستغشك الخفر على الابواب »

قالت « لا تخافي »

فقالت « ها أنا ذاهبة الى حجرتي وبعد قليل تعالى الي تجدي الثوب حاضراً »

فأكبت على يدها لتقبلها شكراً على هذا الصنيع . فمنعتها أم الامراء من ذلك وتركتها وخرجت

الفصل الثالث عشر

المعارضة

فسكتت لمياء برهة ثم مشت الى أم الامراء فرأتها قد أعدت الثوب فلبسته وأصلحت من شأنها حتى لا يشك من يراها أنها غلام صقلبي وودعتها . فارشدتها الى الطريق الاقرب المؤدي الى باب البلد

فمشت وهي ثابتة القدم لا يعتريها خوف . فمرت في الحديقة لا يستفشها احد واهل القصر مشغولون في مهامهم حتى وصلت باب البلد فاذا هو موصد والخفر وقوف عنده باسلحتهم . فطلبت اليهم ان يفتحوا لها الباب لانها ذاهبة في مهمة مستعجلة الى معسكر صاحب سجلماسة . ففتحوه ولا يشك أحد منهم انها رسول صقلبي

ففرحت بانطلاء حيلتها وخرجت فاذا هي في الخلاء . ونظرت نحو معسكر والدها فعرفت مكانه من النار الموقدة عنده فمشت بسرعة والظلام حالك والمكان خال وكل شيء هادىء . فلم تمش يسيراً حتى رأت شبحاً طويلا يدنو منها وعليه عباءة سوداء قد التف بها ومشى نحوها بهدوء فتحولت عن جهته لئلا يعترضها . فاذا هو قد وقف لها ونادى « من الرجل »

فقالت « رسول من امير المؤمنين الى هذا المعسكر »

فقال « قف عندك »

ولما سمعت الصوت اقشعر بدنها لانها تذكرت صوتاً تعرفه لكنها تجلدت وتجاهلت وقالت « دعني . . . اني سائر لامر مستعجل »

فناداها قائلا « لا يخرج الرسل من هذا القصر ليلا »

قالت « أنها رسالة هامة مستعجلة وقد رآني الخفر بالباب ولم يعترضوني »

قال « أنا اعترضك .. قف عندك أو تعال معي الى النور لارى وجهك .. اني أعرف غلمان القصر جميعاً »

فتحيرت في أمرها وتفرست بمخاطبها وأخذت تفكر في من عساه ان يكون وصوته يشبه صوت الحسين بن جوهر واستبعدت ان يكون هو هناك وليست الخفارة من شأنه . فتجاهلت وظلت ماشية وهي تقول «اني ذاهب في مهمة سرية لا يجوز للخفر ان يطلع عليها ولا أن يعرف من أنا »

« قال اذا كان ذلك لا يجوز لسواي فهو جائز لي » قال ذلك ومد يده يريد ان يمسكها من يدها فنفرت منـه وخبأت يدها وراء ظهرها وقالت « قل لي من أنت قبلا »

قال « أنا الحسين بن القائد جوهر »

فلما تأكدت انه هو بعينه ارتج عليها ولم تخف على نفسها منه لكنها خافت كشف سرها . فحولت وجهها عنه ومشت وهي تقول « لا نعهد الحسين بن اكبر القواد ينتحل مهنة الخفر ليتعرض لرسول امير المؤمنين . . دعني وشأني والا فان تأخري تعود عاقبته عليك »

فاعترضها وهم ان يمسك يدها فافلتت يدها منه بجسارة فقال لهـا ليس من شأنك ان تعين لكل انسان مهمته . نحن جميعاً نخـدم مصلحة امير المؤمنين نضرب بسيفه ونخفر قصره . دع عنك ذلك واتبعني واذا كنت رسولا كما تزعم فلا خوف عليك . بل أكون لك عوناً في ابلاغ الرسالة »

فلم تجد لميـاء بداً من الطاعة فقالت « ها أني واقف ما الذي تريده مني .. اكشف اللثام عن وجهك أولا ثم خاطبني »

فازاح اللثام فاذا هو الحسين بعينه نخفق قلبها واستغربت تلك المصادفة وقالت « نعم أنت مولانا الحسين بن القائد جوهر فما الذي يريده مني »

قال « اني لا ارى وجه صقلبي ولا أسمع صوت صقلبي اني اسمع صوت امرأة »

فضحكت استخفافاً وقالت « أرأيت كيف أنك مخدوع ؟ فحسبتني امرأة وأنا غلام »

قال « اذا كنت غلاماً صقلبياً فاصدقني ولا تخف »

فتماسكت لمياء ولم تجد بداً من التصريح فقالت «تأمل في وجهي جيداً» فتفرس فيها على شعاع النور وقال « أنت فتاة . . وكأني رأيت هـذا الوجه في صباح هذا اليوم .. ألست لمياء بنت صاحب سجلماسة ؟ »

فلم تطاوعها نفسها على الانكار فقالت « نعم أنا هي وما الذي تريده مني ؟ »

فتنهد وابتسم ثم قال « ان ما أريده منك ليس هنا محل الكلام فيه يا لمياء . ولكنني اطمئنك ان لاخوف عليك مني لسبب سوف تعلمينه ولكنني اعجب لخروجك في هذا الليل متنكرة ومثلك لا يؤذن لها في الخروج من قصر أمير المؤمنين . كيف خرجت ؟ »

قالت « ألم أقل لك اني خارجة في مهمة لصاحب سجلماسة »

قال « انت ذاهبة الى أبيك »

قالت « نعم .. هاقد قلت لك .. فأنت وشأنك »

قال بلحن التودد « ان شأني شأن المأمور المطيع يا لمياء ـ ولو كان الخارج فى هـذا الليل سواك لـكانت حياته في خطر . وأما أنت فاني في خدمتك حتى ترجعى الى مأمنك ـ إنما ارجو ان تذكري هـذا لي اذا ذكرت به »

فشعرت انه يحملها فضلا سيطالبها به يوماً ما فقالت « لم أخرج من هذا القصر في هذا الليل وحدي وأنا خائفة من أحد . فاذا شئت ان تبقى على اعتراضك فاني لا ابالي »

وكان الحسين قدعلم فيذلك النهار ان اباه وأباها زارا المعز وانه خطبها له من أبيها ورضي أبوها . ولـكنه كان على يقين أنها لم تطلع على شيء من ذلك بعد . وتوسم في اجتماعها بوالدها في تلك الساعة خيراً لنفسه إذ يبلغها أبوها ما كان من طلب أمير المؤمنين لها باسم الحسين ـ فقال « قلت لك ان شأني معك ان اكون في خدمتك حتى تبلغى مأمنك وتشاهدي والدك . ولعلك وانت راجعة يتغير لحن خطابك معى »

فادركت كل ماجال في خاطره وفهمت ما يشير اليه لـكنها تجاهلت

وقالت « اني لا أقدر ان اذكر ابن القائد جوهر بعد هـذه المكارم الا بالشكر والثناء في كل حال . فهل تأذن بانصرافي الآن »

قال « نعم . ولـكنني اكون في خدمتك لئلا يعترضك سواي فان في هذه الطرق خفراء آخرين اقامهم والدي سراً لزيادة الحرص على سلامة امير المؤمنين . ولا أحب ان يعرف احد منهم ولاسواهم بخروجك ولا أريد ان يخاطبك أحد ولا ان يقول لك كلمة ولو كانت سلاماً واحتراماً .. انى اكثر حرصاً عليك منك .. » قال ذلك بلحن الحب

فظلت على تجاهلها وقالت « بارك الله فيك فأنا واثقة بمروءتك واحب ان تكتم ما رأيت عن كل احد كأنك لم تشاهد احداً »

فاستأنس بهذه الوصية واستدل بها على ميل نحوه وقال « قلت لك انى احرص منك عليك . . وهذا يكفي »

فلم تجبه ولـكنها مشت ومشى هو في أثرها عن بعد حتى دنت من معسكر أبيها

الفصل الرابع عشر

ابو حامد

وكان ذلك المعسكر خياماً مضروبة اكبرها فسطاط الامير فلما دنت من الفسطاط صاح بها رجل من الواقفين للحراسة « من القادم ؟ »

فظلت على تنكرها وقالت « رسول من امير المؤمنين الى الامير حمدون »

فنظر في اثوابها فحسبها غلاماً صقلبياً فدخل ليستأذن لها بالدخول

وكان حمدون قد عاد في ذلك بعد مثوله بين يدي الخليفة وصدره مملوء بالاماني واختلى بصديقه ابي حامد مدة طويلة ودعاه للعشاء معاً فقضيا ساعات وهما يتساران لا يأذنان لاحد في الدخول عليهما . فلما دخل الحرسي يستأذن لرسول من عند امير المؤمنين قال حمدون « ماذا عسى ان يكون من أمر هذا الرسول ؟ فليدخل »

فدخلت لمياء ولم تقع عين ابيها عليها حتى عرفها فهم أن يناديها فاشارت اليه بالسبابة على فمها ان يكتم امرها . فاشار الى الحاجب ان يخرج ويبعد سائر الحجاب عن الفسطاط

وكان فسطاط الامير حمدون خيمة كبيرة من الادم المدبوغ بلون احمر وقد فرشت ببساط كبير حمله معه من سجلماسة وهو في الاصل مجلوب من اسبانيا مما كان امراء الاندلس يفرشونه في قصورهم . لانه كان وهو امير يقلدهم باسباب المدنية . والخيمة قائمة على ستة اعمدة علقوا عليها الاسلحة والدروع وانيرت اطراف الفسطاط بالمصابيح

فدعا لمياء للجلوس على وسادة بجانبه واخذ يرحب بها وابو حامد الى جانبه الآخر — وهو كهل قصير القامة دقيق العضل كبير الرأس بارز الجبهة خفيف اللحية قد برز فكاه ونتأت سناه المتوسطتان من فكه الاعلى نتوء كثيراً وافترقتا . وله عينان غائرتان متقاربتان تبرقان دهاء ومكراً كأنهما مصباحان متجاوران قد اختلط نورهما . وفي احداهما انحراف نحو الاعلى وبينهما انف كبير اعقف كانف النسر . وقد ارسل شاربيه علي شفتيه ليخفي سنيه البارزتين . وأهمل لحيته الخفيفة بلا تمشيط . وكان قد تخفف بلباس الليل وغطى رأسه بعرقية سوداء زادت تلك السحنة غرابة . اذا لقيه الرجل استخف به واحتقره فلا يلبث ان يخاطبه حتى يهابه لقوة عارضته وفصاحة لسانه

فلما رأى حمدون يرحب بلمياء شاركه في الترحاب وهش لها وسبق والدها الى مخاطبتها فقال «بارك الله فيك لقد جئت في ابان الحاجة اليك .. ولكن ما الذي جاء بك في هذا الليل ؟ »

فضحك أبوها وقال « يظهر ان روحنا خاطبت روحها عن بعد فلبت الطلب»

فقالت لمياء والاهتمام باد في عينيها البراقتين « جئت يا سيدي لامر همني كثيراً »

قال وهو يبتسم « ولعلهم انبأوك بما دار بيننا وبين المعز في هذا الصباح »

قالت « لم ينبؤني ولكنني سمعت الحديث في اذني »

فتصدى أبو حامد للكلام قائلا « اهنئك يالمياء بهذا النصيب الحسن »
فنظرت اليه نظرة عتاب وقالت « وانت تقول ذلك أيضاً ؟ »

قال « كيف لا أقوله ؟ . « ونظر الى أبيها كأنه يستشيره

فقال حمدون « نعم يحق لنا ان نهنئك يا بنية فان هذا النصيب لا يتأتى لاحد من اهل القيروان »

فالتفتت الى أبي حامد وقالت « وسالم ؟ » وهي تتوقع ان تفحمه بذلك الاعتراض

فقال « سالم ؟ . حتى سالم يفرح لك بهذا النصيب . . »

فدهشت لهذا الجواب وقالت « سالم ؟ لا . لا . لا أظنه يفرح ولا أنا فرحت به »

فالتفت أبوها اليها لفتة استغراب وقال « وانت لم تفرحي به ؟ .. يا لله ما الذي تتوقعينه أحسن من هذا ؟ »

قالت « أتوقع أن ... » وغلب عليها الحياء فسكتت

فقال ابو حامد « ان كنت ترفضين هذه النعمة مراعاة لخاطر سالم فأنا أضمن ارتياحه اليها »

قالت « سالم لا يرضى أن أكون لسواه ؟ كلا »

فضحك ابو حامد ملء فيه وهز رأسه باستخفاف وقال « يظهر انك تنظرين الى هذا الزواج من وجه واحد فقط »

فاستغربت هذا التعبير وقالت « وهل ينظر في هذا الامر من عدة وجوه ؟ »

فأخذ حمدون وابوحامد ينظر كل منهما الى صاحبه ويضحك . وأغرق ابو حامد في الضحك حتى كاد يستلقي على قفاه وقد برز سناه من بين شعر شاربيه . فشق ذلك على لمياء فابتدرها ابوها قائلا « ألا يكفي لقبولك بهذا النصيب ان يكون قد تم الاتفاق عليه بين أبيك وأمير المؤمنين ؟ واذا

كنت لا تبالين بخاطر والدك الا تهابين أمر الخليفة ؟ » قال ذلك بلحن العتاب والتوبيخ

فخجلت من هذا التعريض لكنها لم تقتنع فسكتت وأطرقت وفي سكوتها انكار لما يطلبونه منها . فتصدى ابو حامد وهو يظهر التلطف والاهتمام ويتشاغل باصلاح طاقيته وقال لها « أنا لاأشك في تعقلك وحكمتك ولذلك فانا أخاطبك بصراحة .. اؤكد لك لو كان سالم هنا الآن لامرك ان تطيعي والدك وتقبلي بما عرض عليك . ليس لانه لايحبك ولكنه يرجو من ذلك خيراً لنا جميعاً »

فلما سمعت قوله استغربت ما فيه من التلميح ولم تفهم مراده وهي تعلم ان سالماً اذا كان يحبها كما تحبه لا يرضى ان تكون لسواه ولو اعطي مال العالم كله .. ولم تفهم ما هو النفع الذي يرجوه من قبولها . فوقعت في حيرة وظلت ساكتة وقد بان الارتباك في عينيها فتنحنح أبو حامد فنهض والدها وخرج من الخيمة وهو يظهر أنه يريد حاجة عرضت له . فبقيت لمياء مع ابى حامد فتوجه نحوها باهتمام وقال ارجو ان تكونى قد فهمت مرادي »

فرفعت بصرها اليه وقالت « كلا يا سيدي . . اعترف لك انى لم افهم مرادك . وأنا أعلم أن سالماً اذا كان يحبني كما تقولون لا يمكن ان يرضى بهذا الامر .. اقيس ذلك على نفسي » واطرقت وقد توردت وجنتاها من الخجل وأخذت باصلاح المنطقة حول خصرها كأن ثوب الصقالبة قد ضايقها لانها لم تتعوده

فقال ابو حامد وهو يخفض صوته كأنه يسر اليها امراً هاماً « انى اجل ذكاءك عن ان يخفى عليك مرادنا .. أم أنت الآن راضية بالقعود اسيرة كالجارية في بيت ذلك الامير المغرور »

قال ذلك وفي صوته لحن الاحتقار . فتذكرت لمياء ما كانت تعلمه من نقمته على المعز قبل أن تغلب عليه . ولكنها كانت تحسبه غير عزمه واقتنع بما صار لعجزه عن مناهضته . وأحست لما سمعت اسلوب تعبيره بغيرة هبت

في صدرها للدفاع عن نفسها وعن المعز فقالت « لم أكن أتوقع منك ياعماه ما سمعته فما أنا جارية ولا المعز مغرور »

فقال « لله انت ما اطيب سريرك انهم خدعوك حتى حولوا قلبك عن والدك واهلك وصرت تجدين الاسر عزاً والذل سعادة .. أين أنفة لمياء راعية الجواد الادهم سليلة آل مدرار اصحاب سجلماسة ؟ أم غرك ما ناله اولئك من الظفر صدفة ؟ انهم غير اهل للملك والتحكم في الرقاب . . ألم تري منازلهم لا تتميز عن منازل العامة يجلس اميرهم على اللبود ويلبس كسائر الناس ؟. أين ابهة الدولة التي كانت لوالدك واجـداك ؟ .. ان آل مدرار وحـدهم أهل للسيادة وبهم وحدهم يليق الملك .. أقول ذلك وما أنا لسوء حظي منهم ولـكنني اعرف منزلتهم ولا غرض لى غير الانتصار للحق ـ ولو كان « الدا... تخذ هذه الحرية بمخاطبتك »

الفصل الخامس عشر

التحميس

وكانت لمياء تسمع وتعجب ولم تستطع صبراً على السكوت فقالت « اراك يا عماه قد بالغت في التقريـع ولا أرى حاجة الى ذلك .. ان المعز لدين الله لم يبلغ ما بلغ اليه من سعة الملك الا لانه احق بهذا الامر بما له من النسب الشريف انه من ابناء بنت الرسول وقد حاربنا وحاربناه ولو كان الحق في جانبنا لظفرنا به ـ كنت في مقدمة المحاربين المدافعين ولا ازال احب الاستقلال ولـكنني لا اجد اليه سبيلا . وهذا امير المؤمنين قد أكرم وفادتنا واحسن الظن بنا واخلصنا النية له فلا ينبغي ان نخونه »

فضحك ثم قطع ضحكته فجأة وقال « لم استغرب من قولك الا اعتقادك صحة النسب الذي يدعيه هؤلاء لانفسهم .. أنا اعلم الناس بانسابهم ولـكن الانسان اذا تغلب انتحل النسب الذي يريده . أما قولك انهم تغلبوا وان

ذلك دليل على حقهم في الخلافة فهو منقوض لانهم لم ينالوا هـذا الامر بيطشهم وانت تعلمين ان أبا عبد الله الشيعى هو الذي سلم اليهم هذا السلطان وانصاره هم أهل هـذه البلاد . ثم كافأه هؤلاء الخلفاء بالقتل . . اليس كذلك ؟ وتقولين مع هـذا أنهم اكرموا وفادتنا وأحسنوا الظن بنا ؟ ما الذي أكرموكم به وقد سلبوكم سلطانكم واغتنموا اموالكم ونهبوا منازلكم يكفي ما اخذوه من قصرك من التحف والاثاث والرياش أين جوادك بل أين مرآتك الذهبية التي كانت في غرفتك ؟ أين حاضنتك التي كانت تعتني بلبسك وتدبير شؤونك أين ماشطتك ومربيتك ألم يكن الخدم عشرات في منزلك واذا ركبت وقفوا واذا مشيت تطامنوا واذا أمرت اطاعوا . وكنت الملكة الآمرة الناهية لا يسمع في القصر غير امرك ونهيك ــ نسيت كل ذلك واعجبك ان تكوني رهناً عند هذا الرجل وتقولين انه اكرمك وأحسن وفادتك ؟ انهم لم يكرموا أحداً مثل اكرامهم أبا عبد الله المأسوف عليه ثم قتلوه غدراً ... » قال ذلك وغص بريقه وكاد يشرق بدموعه

فتأثرت لمياء من خطابه وكانت تعلم غدر الفاطميين بأبي عبد الله لكن تعلقها بطهارة نسبهم كان يحببهم اليها مع اعتقادها عجز والدها عن التغلب وخصوصاً بعد ما شاهدته من لطف المعز وامرأته وقائده وسائر أهل ذلك القصر . على انها لما سمعت تذكار سابق عزها ومجدها وشرف اسرتها ونخامة ملكهم تنبهت فيها شهوة الملك ونعرة السيادة فخفت لهجتها في المقاومة وأرادت أن تباحث أبا حامد في الامر وهي لا ترى بأساً من ذلك فقالت « ان ما قلته صحيح لا شك فيه لكن ما الفائدة منه ونحن لا حول لنا ولا طول و . »

فقطع كلامها قائلا « هـذا شيء آخر سنبحث فيه وقد سرني انك رجعت الى ما هو جدير بك من المحافظة على شرف ابيك وعز الملك . . أنتم آل مدرار توارثتم السيادة كابراً عن كابر . وأحرزتم الملك بحد السيف لا بالحيلة وادعاء النسب الشريف . »

فتحيرت لمياء لما سمعته من التناقض فقالت « اذا كان الامر كذلك

فما بالكم ترغبونني في ابن ذلك القائد وهو مولى بن مولى وعنفتموني على ترددي في امره »

فابتسم وقال « ان شعرة من رأسك تساوي ملك هـذا الخليفة وكل قواده .. ان ذلك الطالب لا يساوي قلامة من ظفرك . . . »

فاستغربت قوله وظنته يمزح فقالت « لم أفهم مرادك يا سيدي »

فقال « مرادي ؟. ألم تفهمي مرادي ؟ وعهدي بك الذكاء أو لعلك تتجاهلين .. أتظنين سالماً يرضى ان يحظى بك أحد من العالمين وهو حيٌّ ؟ »

فازدادت دهشتهـا وقالت « قلت لكم ذلك فغضبتم علي . لكنني لا ازال جاهلة مرادك ... »

فضحك ونظر نحو باب الخيمة وهم كأنه يتحفز للنهوض . فالتفتت ورأت أباها داخلا ومعه رجل ملثم ملتف بعباءة لا يبدو منـه الا عيناه . فلم تعرفه وابتدرها ابوها قائلا وهو يهش لها « العلك لا تزالين على تمسكك بالرفض ومقاومة امر الخليفة وارادة والدك » قال ذلك وهو يتقدم حتى جلس في مكانه والرجل الملثم واقف بجانب احد أعمدة الخيمة كأنه متكىء عليه . فشغل خاطرها به وخافت ان يكون في الامر دسيسة لكنها لم تستفش والدها . ولما سمعته يطرح ذلك السؤال عليها قالت « ولكن العم أبا حامد يقول انكم تبخلون بي حتى على الخليفة ولا تعطون شعرة مني بكل ملكه »

فضحك ضحكة تهكم وقال « هل قال لك ذلك ؟.. هل صدقته ؟ لا . لا . كيف نخرج من اسر أمير المؤمنين .. كيف تنكر فضله علينـا اننا مديون له بحياتنا .. » قال ذلك وتنحنح ونظرت لمياء في وجهه فرأت في عينيه معنى غير الذي نطق به لسانه . والعين أصدق تعبيراً من اللسان ـ فعلمت انه يتهكم ولكنها تجاهلت وقالت « لقد حيرتموني في امري . فلا أدري من أصدق »

ونظرت الى والدها فرأت الغضب في عينيه وهما تكادان تقدحان شرراً وشارباه يرقصان في وجهـه وقد تعودت ذلك فيه اذا اشتد غضبه فتهيبت

وأثر منظره فيها وتوقعت ان تسمع جوابه فرأته نهض مسرعاً وهو يتعثر بحمائل سيفه وأردان جبته ومشي على البساط مشية ملك يتخطر تيهاً وعجباً وليس في قدميه نعال وكان قد نزعهما بباب الفسطاط كالعادة . فالتفتت نحوه وهي تراعيه في تخطره وتنظر خلسة الى الرجل الملثم وقد ازدادت دهشة ولبثت صامتة . ووقع نظرها على أبا حامد فرأته ينظر اليها ويشير بسبابته على شفته السفلى ان « اسكتي لترى »

الفصل السادس عشر

عز الملك

أما حمدون فبعد ان خطر مرتين ذهاباً واياباً وهو يلاعب شاربيه وسيفه يجر على البساط وقد انحرفت عمامته من مكانها ولم ينتبه لها من الغضب وقف بين يدي لمياء وقال « لمياء يا لمياء ! الى متى تتجاهلين ومثلك لا يحتاج الى ايضاح هل تصدقين ان اباك امير سجلماسة سلالة آل مدرار السادة الفاتحين يرضى بمصاهرة عبد صقلي يباع امثاله في الاسواق بدنانير قليلة ؟ هل صدقت اننا نعير طلب صاحب القيروان التفاتاً. وانما نحن وافقناه حتى يتيسر لنا ما نريده .. لا تكوني ساذجة وانت ابنة حمدون صاحب سجلماسة قائدة الجند في ساحة الحرب . ما اسرع ما نسيت مجدنا وملكنا نحن اصحاب سجلماسه ونصاهر العبيد ؟. لا يغرنك ما اتيح لهم من النصر انها فلتة لا تستقر لهم طويلا .. لا تستقر الا ريثما توافقيني على ما اطلبه منك فيذهب ملكهم ونسترجع ملكنا . ونخضعهم لاسيافنا » قال ذلك وهو يرتعش من الغضب

فتحمست لمياء وعادت اليها روح السيادة وحب الرئاسة وتأثرت مما ظهر من تحمس والدها لكنها اعملت فكرتها فلم تجد كلامه مبنياً على شيء

واضح ثابت . لعلمها انهم هناك كالاسرى عند المعز لدين الله وان جند والدها وان كثر لا يعد شيئاً في جانب جندالمعز واتباعه . ولكنها انصاعت لقوله بنفوذ الوالدية فان الولد كثير التصديق لما يسمعه من والده ومعلمه ولو كان مستحيلا . ومع ذلك فهي لم تفهم حقيقة ما يريدونه من ذلك التناقض فقالت « صدقت يا ابناه وهل ترى وسيلة لارجاع ما كان الى ما كان انى أبذل روحي في هذا السبيل »

فلما سمع قولها اكب عليها وضمها الى صدره وقبل رأسها وابتسم ابتسام من فاز بضالة كان يبحث عنها وقال « بورك فيك من ابنة عاقلة . . انك جديرة ان تكوني ملكة سجلماسة والملك سيؤول طبعاً اليك إذ ليس لى ابناء سواك »

فاخذتها عزة الملك وشغلتها عن انعطافها الى المعز وأهله وتذكرت ما كانت فيه من الرفعة والكلمة النافذة وكيف كانت الرؤوس تطأطيء لها واللحى ترتجف تهيباً منها . فنهضت عن تحمس ووقفت بين يدي والدها قائلة « انكم تخاطبونني بالالغاز والاحاجي . ما معنى هذا التناقض قل يا ابناه ما الذي تريدونه مني .. وقبل كل شيء أحب ان أتحقق عدولك عن الرضا بطالب المعز لدين الله »

قال « اما هذا فلا .. لا اعدل عنه .. انها فرصة لاينبغي ان تضيعها .. انها فرصة ثمينة لنيل مرادنا . . »

فلم تفهم قصده فقالت « كيف تريدون ان أكون ملكة في سجلماسة وتطلبون الىّ ان اتزوج احد اتباع صاحب القيروان ؟ »

فقطع كلامها قائلا « لا أعني ان تتزوجيه ان باعه اقصر من ذلك كثيراً . كيف تتزوجينه وسالم حيٌ ؟ لو بلغ ذلك سالماً ماذا يقول عنا بل ما يقول عنك وانت راعية الجواد صاحبة السيف حامية حمى آل مدرار . أنا لا أعني بقبولك أن تتزوجي ذلك الرجل فعلا . . ولكننا نريد ان يكون قبولك وسيلة لاسترجاع ملكنا بكيفية ساشرحها لك وانما اريد ان اعلم قبل كل شيء هل فهمت مرادي »

قالت « لم أفهمه بعد »

قال « ان مرادي ان نتخلص من صاحب القيروان وقائده . . واذا تخلصنا منهما لا يبقى في افريقيا كلها من يقف في سبيلنا ولا ان يمنع سيادتنا . »

قالت « وكيف نتخلص منهما ؟ »

قال ويده على قبضة حسامه كأنه يستله « نقتلهما »

فاجفلت وتراجعت واستغربت هذا التصريح وهي تعرف تهور والدها واندفاعه ولم يكن يخطر لها انه يتصور قدرته على هذا العمل ولكنها اعتقدت انه لا يقول ذلك الا وهو على ثقة من قدرته عليه . فالتفتت الى ابا حامد وكان لا يزال قاعداً الاربعاء ويداه متصالبتان وقد اطرق في الارض كأنه يفكر باهتمام . ثم حولت نظرها الى الرجل الملثم بجانب العمود وقالت في نفسها « من عساه ان يكون هذا الملثم الذي شهد هذا التصريح الخطر لا بد ان يكون من الاقرباء » وخطر لها ان يكون سالماً نفسه وحالما خطر ذلك خفق قلبها ولم تعد تستطيع صبراً عن استطلاع الحقيقة فنظرت الى والدها وكان قد عاد الى التمشي . فمشت نحوه حتى قبضت على يده وقالت بصوت ضعيف « اراك تقول ما تقوله على مسمع من هذا الملثم فمن هو ؟ »

قال « ستعلمين حالا .. ولكن بعد ان توافقيني على ما قلته لك .. اني لم اعد استطيع صبراً على الذل .. يكلفوننا اذا دخلنا على صاحب القيروان ان نحييه تحية الامارة وان نؤمن على كل ما يقوله وان ندعو له بطول البقاء وان نقول له بأننا عبيده الطائعون . واننا لنضرب بسيفه ونجاهد في سبيله وانه صاحب الحق في الخلافة . وانه من نسل فاطمة الزهراء و . و . و . . ان ذلك فوق طاقة البشر . نحن اصحاب سجلماسة من اجيال متوالية وقد تأصلت السيادة في عروقنا فلا نستطيع احتمال هذا الذل فاما التغلب واما الموت »

فازدادت لمياء تحمساً بهذا القول وتناست كل شيء في سبيل العودة الى

بجدها وعزها . وسرها فوق ذلك انهم لا ينوون اكراهها على القبول بابن جوهر بدلا من سالم حبيبها . فاقتنعت بهذه النتيجة وفرحت لكنها لم تفهم سر ذلك التضاد اذ يريدونها ان تقبل الزواج بالحسين وهم لا يسمحون بشعرة منها له .. كيف يتفق ذلك فقالت لوالدها « ان ما تطلبه يا سيدي هو غاية مرادي ولا بد من مراقبة الفرص للحصول عليـه ـ أما الآن فارجو ان تطاوعني على التخلص من طلبة المعز ليطمئن بالى »

فقطع كلامها قائلا « ان تسنح لنا فرصة اوفق من هذه »

قالت « وأي فرصة تعني ؟ »

قال « قبولك بما طلبه صاحب القيروان . . وقبل اتمام الزواج تذهب روحه وروح قائده وابن قائده والسلام . .» قال ذلك بعجلة ومشى مسرعاً الى مجلسه وقعد وهو يفتل شاربيه وتركها واقفة متحيرة فادركت بعض مراده ولحظت انه يريد ان يتخذ العقد عليهـا ذريعة للفتك بالمعز وقائده وابن قائده ولا يكون ذلك الا غيلة . فاجفلت ولـكنها تجاهلت ولم تشأ ان تباحثه في التفاصيل وانما اقتنعت انه وافقها على التخلص من الزواج بغير سالم ـ وعادت الى التفكير بذلك الملثم وهو واقف كالصنم لا يتحرك فاقتربت منه وتفرست في عينيه ولم يكن ظاهراً من وجهه سواهما وقد وقع نور المصباح عليهما فابرقتا . ولم تتفرس فيهما قليـلا حتى اختلج قلبها في صدرها وصاحت « سالم ! »

فمد يده الى اللثام وازاحه فاذا هو سالم بعينه . فلما بان وجهه خجلت واطرقت وتسارعت دقات قلبها وخارت قواها على عادتها معه وغلب الحياء عليها واخذتها البغتة لانها لم تكن تحسب سالماً في تلك الديار فتراجعت واطرقت

الفصل السابع عشر

التحريض

وكان سالم شاباً جميل الخلقة ممتلىء الجسم وكانت قد احبته كثيراً فهي

ترى فيه طبعاً كل الحسنات ولا ترى في الدنيا اجمل منه . وكانت قوية الارادة مع كل انسان الا معه فانها كانت اطوع له من بنانه . فلما كشف وجهه وأطرقت قال لها « بورك فيك يا لمياء .. كنت اعتقد انك تحبينني ولكن ليس الى هذا الحد . ولا فضل لك فاني احبك مثل هذا الحب وأكثر .. ولكن حبنا لا فائدة منه ان لم نسترجع مجدنا أو بالحري مجد والدك وسلطانه .. بعد المسير على الخطة التي يرسمها لك »

فلم تمالك ان صاحت فيه « وانت ايضاً تريد ان ارضى بما عرضوه علي .. عرضوا علي أن أكون لرجل سواك ! . » قالت ذلك وهي تتوقع منه ان ينكره ويعترض عليه فاذا هو يقول « اريد ذلك وقتياً .. نعم اريد ان تظهري قبولك به ونحن ندبر ما يلزم في حينه » ومشى حتى قعد بجانب عمه ابي حامد وأشار الى لمياء ان تقعد

أما هي فشغلها فرحها بتلك المقابلة عن كل خطر تتوقعه ـ ودهشة اللقاء تنسي المحبين كل شيء لاشتغال عواطفهم بالحاضر عن سواه

ورأى ابو حامد ان الطبخة أوشكت ان تنضج فبادر الي اتمام معداتها فتزحزح من مكانه كأنه يستعد لحديث طويل ونظر في اطراف الخيمة ولسان حاله يقول « هل يسمعنا أحد ؟ » فقال حمدون « انت في مأمن يا أبا حامد لاني امرت الحرس بالوقوف بعيداً وان يمنعوا أياً كان من الوصول الينا »

فمسح شاربيه ولحيته بأنامله ونظر الى لمياء باهتمام وقال لها « قد وصلنا الآن الى الحد يا لمياء . هذا هو سالم صاحب الشأن وقد سمعت قوله ـ أنا غريب عن آل مدرار وان كنت صديقاً لهم ـ ولكنني مستعد ان ابذل حياتي في سبيل نصرة الحق ومقاومة أولئك الخونة الذين نالوا هذه السيادة بالغدر والنفاق كما تعلمين .. فلا يغرك مايبدونه من التقشف باللباس والاثاث فان الذهب عندهم بالقناطير وإنما يموهون على الناس ليطيعوهم ثم يفتكوا بهم كما فتكوا بأبي عبد الله الشيعي ..» وتنهد ثم عاد الى الكلام فقال «وهذا

والدك صديقي الامير حمدون أولى الناس بالامارة ولا حاجة الى دعوى كاذبة مثل دعواهم من الانتساب الى فاطمة الزهراء وإنما يكفيكم الانتساب الى آل مدرار وشرفهم معروف لا يختلف فيه اثنان . لا تظني هذا الفكر حديثاً عندنا ــ ولعل والدك لم يقله لك ولكننا بحثنا فيه ونحن في سجلماسة ودبرنا المهمات اللازمة للتغلب على افريقية كلها ففسد تدبيرنا لاسباب قهرية وافلح ذلك الصقلي وتغلب علينا ولكن تغلبه لا ينبغي ان يضعف عزمنا عن طلب حقنا ــ وقد تتوهمين ان رجالنا اضعف من أن يستطيعوا محاربة جند القيروان ــ ان ذلك صحيح بحسب الظاهر وقد ينخدع به غير العارف أما أنا فأؤكد لك ان هؤلاء الامراء والمشائخ من كتامة وصنهاجة الذين يظهرون الطاعة لهذا الرجل انما يفعلون ذلك تملقاً له وهم يتوقعون فرصة للخروج عليه ولا بد من واحد يبدأ بهذا العمل فيتبعه سائر الامراء وتكون السيادة له فاحب ان يكون ذلك الشرف لوالدك فانه اعرقهم حسباً ونسباً فلا يكاد ينهض حتى ينهضوا معه ــ فكيف اذا دبرنا وسيلة لقتل المعز وقائده وهما روح تلك القوة الموهومة فان القوم كلهم يأتون معنا حتى أهل الخليفة أنفسهم لانهم ناقمون متحاسدون .. » وتنحنح ومسح شاربيه بمنديله تشاغل بذلك لحظة وهو ينتظر ما يبدو من لمياء

أما هي فكانت قد غلبت عليها شهوة الشرف وحب الاستقلال وتذكرت ما كان لها من السيادة والابهة في زمن والدها ــ فغشى ذلك على احترامها للمعز وحبها لام الامراء . وكان ابا حامد صاحب نفوذ في حديثه وسلطان في برهانه فاقنعها كلامه ورأت الحق في جانبه وتأثرت منه حتى شغلها عن وجود سالم هناك . لكنها ما زالت ترى صعوبة ذلك العمل فظلت ساكنة لتسمع تمام الحديث وترى ما يراه سالم . وأدرك أبا حامد ما في خاطرها فقال « اني اوجه الكلام لك يا لمياء لعلمي انك عاقلة وعليك المعول في هذا الامر ــ فلا تغرك كثرة جند القيروان للاسباب التى قدمناها وعندنا مع ذلك جند يظهر عند الحاجة وعندنا اموال مدفونة لو اخرجناها

لدهش العالم من كثرتها وهي مهيأة قبل ولادتك وولادة سالم لمقاومة هؤلاء الغادرين وارجاع الملك الى اصحابه . وليس في افريقية اولى به من والدك »

فظهر لها من كلامه امور كانت قد عرفت بعضها من احاديثها مع سالم قبل الاسر ـ والمحب لا يؤتمن على سر لا يبوح الى حبيبه فاذا شئت ان يبقى سرك مكتوماً احذر أن تستودعه محباً ـ لكنها اظهرت انها لم تكن عالمة بشيء من هذا القبيل الا في تلك الساعة ونظرت الى والدها فرأته ساكتاً والتفتت الى سالم فاذا هو ينظر اليها كأنه يتوقع أن يسمع رأيها فقالت « انكم تسعون في أمر هام تقطع دونه الرقاب وتزهق النفوس ولكن بذل الحياة في هذا السبيل لذيذ . اني يا عماه أبذل حياتي اذا كان في بذلها مصلحة لوالدي .. على اني استميحكم عذراً في كلمة أقولها وان كنت فتاة ضعيفة العقل .. ان ما تنهضون له من جمع كلمة القبائل تحت سلطان رجل واحد لم نسمع انه تم لغير الخلفاء اصحاب النسب في قريش . ان الناس لا يخضعون لسواهم حتى صاحب القيروان لم يصل الى ماوصل اليه الا بهذا النسب سواء كان صحيحاً أو غير صحيح . وبغير ذلك لا يتم شيء و .. »

فقطع ابو حامد كلامها وهو يضحك ضحك الاعجاب بتعقلها وسداد رأيها وقال « بورك فيك من حكيمة عاقلة . قد استدركت علينا امراً لم يستدركه احد سواك ولا ينتبه له غير العقلاء الدهاة .. صدقت ان الامراء لا تجتمع كلمتهم الا باسم الدين وهذا امر قد دبرناه وخابرنا بشأنه خلافة أرسخ قدماً وأصدق نسباً من هذه . كوني مطمئنة .. لم يبق الآن الا خطوة واحدة وهي ان نتخلص من هذين الرجلين وثالثهما اذا أمكن وهذا لا يتم الا على يدك .. لا أطلب اليك ان تباشري ذلك بنفسك وإنما يطلب منك ان تظهري انك رضيت بابن جوهر ونحن ندبر ما بقي ونقول ما ينبغي »

فاطرقت هنيهة تفكر في ما رأته من الغرائب في تلك الليلة وكيف أتت وصدرها مملوء من الاعجاب بالمعز والاخلاص له ولامرأته وما لاقاها به الحسين بن جوهر في الطريق من دلائل التعفف وصدق المودة وهي الآن

تكاد تؤامر على قتلهم . فاجفلت وظهر التردد في عينيها فتلقاها سالم بالحديث قائلا « لم أكن أشك انك لو طلب منك ان تقتلي ذلك الرجل يسدك في سبيل ارجاع سلطة والدك لفعلت فكيف وهم انما يطلبون سكوتك ورضاك . اطيعي لئلا يقال انك وقفت عثرة في طريقهم وانا على يقين انهم ظافرون . وسترين ان ما يبدو لك من مظاهر القوة في هؤلاء العبيديين انما هو سحابة صيف »

وكان لكلام سالم وقع خاص على اذني لمياء ولوخاطبها في ان ترمى نفسها فى النار لفعلت . فلم تجد بدأ من اظهار الرضى واعتقدت انهم على صواب ـ ومع ذلك تركت الامر للمستقبل فان الوقت يفعل ما تعجز عنه حيل الرجال ـ فقالت لسالم « انما كنت أمنع رغبة فيك عن سواك فاذا كنت تريد ذلك فانا فاعلة »

فقطع كلامها بلحن الحب وقال « لا أعني ان تقبلي الى الآخر . . . ولكن اقبلي فاذا لم استطع قطع الحبل قبل ان يقبضوا عليه فما أنا أهل للحصول عليك . وتكونين قد حصلت على أعظم شاب عندهم » قال ذلك وتنحنح وابتسم يظهر المداعبة وهو بالحقيقة يعني ما يقول ـ وهو الواقع

الفصل الثامن عشر

الرجوع

فتصدى والدها عند ذلك وقد سره اقتناع ابنته فقال « بورك فيك يا ابنة صاحب سجلماسة ـ انهضي الآن وارجعي الى قصر المعز اذا شئت ومتى سئلت عن الرضى بالخطبة فاجعلي انت رضيت لان أباك وأمير المؤمنين رضيا . . . فهمت ؟ . هل ارسل معك من يوصلك الى المنصورة (قصر المعز) ؟ »

فنهضت وهي تقول « . لا احتاج الى أحد »

فاعترض سالم على ذلك وقال « كيف تذهبين وحدك في هذا الليل أ، أرافقك الى هناك . . »

فتذكرت أنها لا تلبث عند خروجها من معسكر أبيها ان تلتقي بالحسين بن جوهر فكيف تجمع بين المتناظرين ؟ فألحت على سالم ان لا يرافقها هو ولا سواه لانها أتت وحدها وتعود وحدها وهي متنكرة بلباس خدم القصر ولا تخاف أحداً . فقال لها أبوها « ومع ذلك لا بأس من ارسال بعض الحرس في أثرك ولو عن بعد لاننا لا نعلم ما يحدث . »

فاستحلفته ان لا يفعل فسكت وقبلها وودعها وودعت سالماً والعم أبا حامد ولكل منهم وداع خاص على شكل خاص . واصلحت هندامها وخرجت وقد اشتد الظلام والارض خالية بين المعسكرين لا انيس فيها . فمشت حتى خرجت من معسكر والدها فما لبثت أن رأت شبحاً يقترب نحوها عرفت حالا انه الحسين كان في انتظارها وجاء لتشييعها الى المنصورة فأحست عند رؤيته بوخز في ضميرها واحتقرت نفسها لانها كانت مندساعة صادقة اللهجة شريفة النفس لا يخامر ذهنها غش أو خداع وهي الآن خادعة غاشة . وهذا الشاب ينبغي ان تظهر له أنها تريده مكراً وكذباً وأصبحت تعد نفسها كالمؤامرة على قتله وقتل والده والخليفة المعز الذي هو ساهر على سلامته يفديه بروحه ـ مرت هذه التصورات في ذهنها مرور البرق والحسين يمشي نحوها . فلما اقترب منها حياها باحترام ولم يزد على ان مشى بجانبها والامام كالخادم المولج بايصال مولاه الى مقصد . فاكبرت منه هذا التلطف ولم تتمالك عن ان قالت « لقد اتعبت نفسك يا سيدي في الانتظار طويلا في هذا الليل . . »

قال وهو يماشيها على مهل « لم أتعب نفسي يا سيدتي فان ذلك فرض علي بل هو من بواعث سروري ـ كيف وجدت والدك الامير عساه ان يكون في خير ؟ » قال ذلك وهو يشير الى ما كان يتوقعه من ان يطلعها على خبر خطبته اياها ولم يكن يشك في أنها ستفرح به وتحسب نفسها سعيدة وأدركت هي غرضه من ذلك السؤال وأثر فيها تلطفه كثيراً . فقالت

« ان والدي في خير الحمد لله » وكانت تريد أن تزيد على ذلك انه شاكر راض وانه مشمول برضى أمير المؤمنين فلم تشأ ان تكذب فاقتصرت على هذا الجواب المختصر . فحمل ذلك منها محمل الحياء فعمد الى مداعبتها فقال « يسرني أن يكون والدك مسروراً ولكن يهمني أن تكوني أنت مسرورة أيضاً

ففهمت مراده وشعرت بصدق طويته وخلوص نيته في حبها وكيف هي تضمر غير ما تقول فعظم ذلك عليها وشعرت بصغر نفسها وتلجلجت. لكنها تجلدت واجابت « وأنا أيضاً مسرورة لما رواه من التفات امير المؤمنين وأم الامراء انها بالحقيقة قدوة الاميرات حفظها الله »

وأراد الحسين أن يغتنم تلك الفرصة لمخاطبتها صريحاً بامر الخطبة وليس هناك من يسمع ـ ومهما يكن من تحجب الفتيات عن طلابهن امام الناس فاذا خلت احداهن بخطيبها يرتفع الحجاب ويتشاكيان . ولم يجد الحسين فرصة أثمن من هذه ولا اوفق منها وهما في غفلة عن الرقباء . ولم يكن يشك ابداً ان أباها فاتحها بشأن خطبته وانها رضيت ولكن الحياء يمنعها من التصريح فعمد الى تجربتها فقال « أتشعرين يالمياء بالسرور الذي أشعر به أنا »

فشق عليها أن يفاتحها بالمشاكاة واحاديث الغرام وهي في ما علمت من التردد والارتباك فقالت «لا اعلم مقدار سرورك ولا نوعه ولكنني اعلم انى مسرورة من حسن وفادة أمير المؤمنين وام الامراء . . » وأظهرت البغتة وهي تقول « أظننا صرنا على مقربة من المنصورة فاني أرى أنوارها . . . فاشكرك شكراً جزيلا على تنازلك يا سيدي فقد اتعبتك ..» وهمت بفراقه

فقال « لا نزال بعيدين عن تلك المدينة وان كنت ترين أنوارها فلا تتعجلي في الفراق ـ الا ان اكون قد ثقلت عليك بالحديث ولعلي تطوحت الى وراء ما يجوز لي .. سامحيني » قال ذلك بلحن العتاب

فخجلت لمياء وودت لو انها لم تقابل اباها في تلك الليلة لانها كانت تعرف ما تجيب على هذه الاسئلة بصراحة . فربما أجابت انها تحبه وتحترمه

ولكنها مخطوبة لسواه. أما الآن فمع اعتقادها انها كذلك فهم يطلبون منها اظهار رضاها به . وقد يهون عليها اذا سألها عن ذلك الخليفة أو أم الامراء وأما هو فيصعب عليها الكذب عليه وهي تشعر انه يحبها من كل قلبه فكيف تخادعه . ولما سمعت عتابه غلب عليها طيب عنصرها فقالت « العفو يا سيدي انك تبالغ في توبيخي فهل أسأت الادب في خطابك ؟ أو كان ينبغي لي أن اعرف حدي فاقف عنده »

فغلبته في العتاب وأحس انه أساء اليها وجرح احساسها بكلامه فقال « اني لا أستحق هذا التقريع يا لمياء . وانما أنا أحتال في سماع كلمة تدل على رضاك وكفى »

الفصل التاسع عشر

صدفة غريبة

فلم تجد لمياء خيراً من السكوت المطلق لان الكلام يجر الكلام وهي لا تعرف ما تقول . وسكت هو تهيباً من سكوتها . وهما في تلك الحالة سمعا وقع حوافر فرس مسرع وراءهما فالتفتت فرأت فارساً قادماً من معسكر أبيها ولم يقترب منها حتى علمت انه سالم فاجفلت من ذلك الاتفاق الغريب وخافت على سالم أن ينكشف أمره لان أهل قصر المعز يعلمون انه غائب . والمعز يحب القبض عليه . وهو لم يلحق بها الا مبالغة في اكرامها لتثبت في وعدها وهم يبنون على ذلك الوعد العلالي والقصور ولكنه أظهر انه جاء ليخفرها . فلما رأى الحسين بلبس الخفر وهو يمشي في خدمتها ظنه من الحراس ولم يخطر له مطلقاً انه الحسين بن جوهر نفسه . فوقعت لمياء في حيرة لكنها تجاهلت

أما الحسين فالتفت الى الفارس وصاح فيه « من أنت ؟ »

فقال سالم « وما يعنيك من أمري ؟ سر في طريقك »

فقال « بل يعنيني ... قف حالا »

وكان سالم قد وصل الى لمياء فلم يجبه لـكنه خاطب لمياء قائلا « لمياء من هو هذا الرجل الذي تسايرينه »

فارتبكت في أمرها وهي لا تعلم هـل يريد الحسين ان يذكر اسمه أم يحب أن يبقى مكتوماً . فتلجلجت في الجواب لحظة وهي تنظر الى الحسين كأنها تنتظر ان يكون الجواب منه

أما هو فاستغرب خطاب الرجل بهذه الدالة على لمياء مما لا يكون الا بين الاقرباء فتبادر الى ذهنه انه من اقاربها الاقربين فخفف غضبه اكراماً لها وسألها قائلا « من هو هذا ألعله من بعض اهلك »

قالت « نعم يا سيدي انه من أبناء عمي ويظهر انهم رأوني ماشية مع رجل لا يعرفونه فظنوا علي بأساً فجاء أحدهم لنجدتي .. »

فوجه الحسين خطابه الى سالم وقال « لا تخف يا صاحبي اني صديق محب وأنا في خدمة ابنة عمك حتى اوصلها الى مأمنها »

فلم يرض سالم بهذا الجواب لان لمياء متنكرة بلبـاس الصقالبة فكيف تأتي لهذا الرجل أن يعرفهـا ويماشيها على انفراد ؟ فسبق الى ذهنه سوء الظن فقال « من أنت يا صاحب العلك متنكر مثلها ومن اخبرك انها فتاة وأنها لمياء ؟ . »

فاستنكف الحسين من لهجته في خطابه وهم ان يخبره عن حقيقة حاله لـكنه فضل الـكتمان حفظاً لـكرامة لمياء فقال « أنا أيضاً في خدمة قصر أمير المؤمنين وعرفت بخروجها بمهمة الى والدها الامير فجئت لمرافقتها في ذهابها وانتظرت عودتها وها أنا معها الى مأمنها كما قلت لك »

فاستحسنت لمياء منه هـذا الاسلوب وتوقعت ان ينتهي الجدال هنـا لـكنها ما لبثت ان رأت سالما ترجل عن جواده وهو لا يزال ملثما ووقف بين لمياء والحسين وولى وجهه نحوها وقال لها « لا حاجة الى مماشاة الخدم انى اسير في خدمتك .. ألم اقل لك انى مزمع على ايصالك فابيت ؟ »

فتجلدت وهى تخاف ان يغضب الحسين لهذه الجسارة وقالت « لم ارض أن يأتي منكم احد معي لاني على يقين من وجود هـذا الرفيق . « قالت

ذلك ومشت فمشى سالم بجانبها بينها وبين الحسين وهو يقول « لماذا لم تقولى لى عنه من هناك »

فاستثقلت ذلك الاعتراض وتحيرت في أمرها وقالت « لم أجـد حاجة الى ذلك »

قال « كيف ؟ انك بنت الامير حمدون صاحب سجلماسة لا ينبغي ان يستهان بك وان يكون رفيقك في هذا الطريق المظلم أحد الغلمان . . قولى له ان ينصرف وأنا اسير معك »

فارتبكت في امرها وخافت ان يغضب الحسين ويجر الجدال الى القتال أو الى كشف أمر سالم . وصارت ترتعد من التأثر وهي لا تدري ماذا تعمل فأجابه الحسين برزانة ولطف قائلا « ان مسيرك معهـا لا يخلو من الخطر عليك يا سيدي لان حراس المدينة يستغشونك وربما آذوك أو قبضوا عليك »

فضحك ضحك الاستهزاء وقال بتهكم « لا . لا يقبضون علي . فأنت لا تعرف من أنا سر بطريقك ودعني . . » قال ذلك ومشى وهو يقود الجواد وراءه وأومأ الى لمياء ان تتبعه فاغضبها عناد سالم ولم تعرف كيف تتخلص من هذه الورطة وهي تتوقع ان يغضب الحسين ويفتضح امرها . فرأته ظل ساكنا فعلمت انه سكت اكراماً لها وصيانة لشرفها لئلا يقال انهم رأوه معها في ذلك الظلام . فتراجعت وقالت لسالم « لا حاجة بي الى من يحرسني وخصوصاً اني صرت على مقربة من السور بالله الارجعت وخليتني أسير وحدي »

فلم يجبهـا بل ظل ماشياً وظل الحسين واقفاً مكانه لا يبدي حراكا . ولم يمشيا يسيراً حتى سمعا دبدبة وقرقعة واذا بكوكبة من الفرسان خارجين من السور مسرعين نحوها فقالت « لماذا فعلت بنا هذا يا سالم ؟ انني اخاف عليك ... لان الاوامر شديدة في القبض على من كان يرونه خارج السور وانت تعلم ان القوم يطلبونك فلا أحب أن نفتح باباً للقيل والقال . عزمت عليك الا رجعت من هنا .. اركب جوادك الى معسكر والدي .. »

فعظم عليه قولها واستخف بانذارها وقال « انهم لن يدركوا مني وطراً »

قالت « ولكنهم ربما آذوني بسبب . . بالله ارجع . . ارجع . . رباه ما هذا العناد ؟ »

الفصل العشرون

الشهامة

والتفتت نحو الحسين فلم تره فظنت الظلام حجبه لبعده فوقفت وأعادت التوسل الى سالم ان يرجع فأبى خجلا من نفسه ان يفر . فازدادت حيرتها وقد دهمها الوقت لان الفرسان وهم عشرة اصبحوا على مقربة منها. وتقدم واحد منهم وصوب سنان رمحه نحوها وقال « من أنتم »

فتصدت لمياء لهم وقالت « اني رسول امير المؤمنين كما تعلمون »

فقال « ومن هذا » وأشار الى سالم

فقالت « أحد فرسان الامير حمدون جاء لمرافقتي في هذا الطريق »

قال «قد ذهبت بالرسالة بلا حارس .. وكيف يحتاج غلام امير المؤمنين الى من يحرسه في بلده .. وقد يكون هذا الرفيق جاسوساً فلا بد من القبض عليه» قال ذلك وأشار الى رفاقه الفرسان فأحاطوا بسالم وقد صوبوا الاسنة نحوه وأمروه أن يمشي أمامهم . وتقدم اثنان ليأخذا الفرس منه

أما سالم فانتتر منهما وصاح «اخسأوا . لا يقترب مني أحد الا أرديته » وهم ان يستل سيفه . فصاح فيه مقدمهم وقال « لا تتعب نفسك بالمحال انك في قبضتنا ولا نريد بك سوءاً وإنما نطلب اليك ان تدخل معنا وتمكث عندنا الى الصباح فنعرضك على القائد جوهر فاذا أمر باطلاقك اطلقناك وليس لك وجه آخر »

فوقع الرعب في قلبه وندم لانه لم يصغ لنصيحة لمياء ورفيقها ولكنه

اكبر الرضوخ وهو يخاف ان يكون في القبض عليه خطر على حياته فوقع في حيرة . والتفت الى لمياء لفتة استغاثة فتقدمت نحو الفارس وقالت « ألا تعرفني أيها الفارس ؟ أنا أضمن ما تريدونه . احبسوني مكانه الى الغد وقدموني الى القائد . وأنا المسئول لديه عن هذا الفارس »

فقال « قد كان ذلك ميسوراً لولا ما أبداه من الوقاحة وهو ملثم ويظهر من كلامه أنه من أهل سجلماسة فلا بد من القبض عليه» قال ذلك وأشار الي سالم اشارة التهديد ان يمشي امامهم

فقال « لا أمشي .. »

فترجل بضعة منهم وهموا أن يوثقوه ولمياء تتقدم اليهم ان يتركوه ولعلها لو كانت على جوادها ومعها سلاحها لم تبال بهم . ولكنها كانت راغبة في التستر ولعنت الساعة التي جاء بها سالم . وهي في ذلك وعيناها نحو الجهة التي تركت الحسين فيها واذا بشبح يتقدم من تلك الجهة نحوها مسرعاً . فعرفت انه الحسين فلبثت صامتة لترى ما يكون وخافت أن يتعمد البحث عن سالم ويكشف وجهه . لكنها رأته حالما وصل الى المكان صاح في الفرسان قائلا « خلوا هذا الفارس فانه من الاصدقاء »

فأجفلوا والتفتوا اليه وقالوا « ومن أنت ؟ »

فتقدم خطوة أخرى حتى صار بينهم وقال « اتركوه أنا أعرفه »

فلما دنا منهم عرفوه من صوته فتلملموا وتأدبوا وتراجعوا وتقدم رئيسهم وتفرس في وجه الحسين وهو ملثم فلم يعرفه وان كان قد عرف صوته . فلما رآه الحسين يتفرس فيه ازاح اللثام عن وجهه وقال « اتركوه »

فصاحوا جميعاً « مولانا الحسين بن القائد جوهر ! . انت هنا يامولانا وابتعدوا عن سالم ورئيسهم يخاطبه قائلا » أرجو المعذرة يا سيدي لم أكن أعرف ان ابن قائدنا الاكبر يعرفك » وأكب على يد الحسين يريد تقبيلها وهو يقول « العفو أننا تجاسرنا . . »

فقطع الحسين كلامه قائلا « لا حاجة الى الاعتذار فقد فعلتم ما عليكم وستنالون الجوائز على سهركم . ولكنني اتفق اني أعرف هذا الفارس

وهو من الاصـدقاء فأطلقوا سراحه » واقترب من سالم وهمس في اذنه وقال « ألم أقل لك اني أخاف عليك من حرس المدينـة ؟ . لانهم لايعرفونك ... ولا أنا اعرفك ولـكنني صدقت شهادة هـذا الرسول . . سر بحراسة الله » ومد اليه يده ليصافحه مصافحة الصديق

الفصل الحادي والعشرون

الفشل

فمد سالم يده وقد غلب على امره وأخذ الخجل منه مأخـذاً عظيما . واستغرب تلك المقابلة وكيف التقى بالرجل الذي كانوا يتحدثون عنه ويدبرون المكيدة له وخامرته الغيرة من الجهة الاخرى ولم يفهم سبباً لوجود الحسين مع لمياء غير تواطؤهما على ذلك . وكيف يتواطآن على الاجتماع سراً في ذلك الليل هناك وهي تزعم انها لا تريده خطيباً لها . فدارت الهواجس في رأسه لـكنه لم يستطع غير اظهار الامتنان من محاسنة الحسين وكبر نفسه وخصوصاً لانه لم يسأله عن اسمه ولا طلب منه ان يكشف وجهه فودعه ورجع ولم يصدق انه نجا قبل انكشاف أمره

وأشار الحسين الى الفرسان فرجعوا الى السور وتقدم الى لمياء وقال « لها افلت صاحبنا بلثامه وهو يعتقد أنني لم أعرفه . وإنما أطلقته اكراماً لك وحرصاً على كرامتك »

فأجفلت من قوله وأرادت ان تغالطه فابتدرها قائلا « أليس هـذا سالماً طلبة امير المؤمنين انهم يبحثون عنـه ولو علم والدي بوجوده لبعث الجيوش للقبض عليـه ولـكنني رأيت فيك ميلا الى كتمان امره فأطعتك وأخليت سبيله رغم ما أبداه من الوقاحة ـ لا يخامرك شك في أني عرفته وكيف أجهله وقد رأيته في حربنا مع والدك وتبارزنا في سجلماسـة وفر مني . وها قد نجا الآن من اجلك ـ ولـكنني اتقدم اليك ان تكتمي أمره وأحب أن لا يطلع أحد على ما جرى »

فنظرت اليه نظر اعجاب وامتنان وقالت «لقد غمرتني بفضلك ياسيدي وأشكرك على مروءتك وكرم اخلاقك .. أنها أخلاق كبار القواد . وقد عرفت ذلك لك »

فمد يده نحوها وهو يقول « انها أخلاق المحبين . . أتأذنين لي ان اصافحك وأودعك»

فلم تستطع الرفض بعد ان غمرها بفضله مع ما أبداه من الاريحية وسعة الصدر وكبر النفس رغم ما كان من عجرفة سالم وخشونته فاحتمل منه الاهانة وصفح عنه وأنقذه من الموت وهو مع ذلك يطلب من لمياء كتمان ذلك حرصاً على كرامتها وكرامة رفيقها . فمدت يدها نحوه وهي لا تبدي غير الاحترام ولكنها شعرت عند المصافحة شعوراً جديداً تمشى في مفاصلها . فاسرعت في جذب يدها منه وأظهرت أنه قد آن وقت انصرافها وأشارت برأسها اشارة الوداع وتحولت نحو المنصورية

فودعها هو بقوله « بحراسة الله يا لمياء »

فارقته ومشت وهي تائهة الافكار من هول ما شاهدته . وقد قدرت مروءة الحسين حق قدرها وأحست نحوه بشيء غير الاعجاب والامتنان ـ أحست بميل وانعطاف لم تشعر بهما من قبل لكنها غالطت نفسها وكذبت عواطفها لانها لا تريد ان يكون في قلبها محل لغير سالم حبيبها الاول

دخلت باب السور فوسع لها الحراس لاعتقادهم أنها غلام صقلبي من غلمان القصر يحمل رسالة الى امير المؤمنين . وما زالت حتى دخلت القصر وسارت تواً الى غرفتها وقد انقضى معظم الليل . فدخلت الغرفة واقفلت الباب وراءها كأنها تفر من شبح يطاردها . فلما خلت بنفسها لم تشأ أن تنير المصباح مبالغة في الانزواء والتستر ـ ولا باعث على التستر وهي في مأمن ولكن هواجسها حدثتها بذلك ـ وجدت نفسها تحاول عبثاً لانها تريد الفرار من شعور في داخلها لا يحجبه الظلام ولا تمنعه الاقفال ـ بل رأت الظلام يضاعف هواجسها ويجسم خوفها . لانها لم تكد تقعد على

الفراش حتى تصور لها سالم بأقبح الصور - رأته دنيئاً غادراً خائناً وقحاً جباناً ورأت الحسين شهماً فاضلا واسع الصدر كبير النفس . فاقشعر بدنها وتوهمت أنهـا ارتكبت ذنباً بذلك التصور . لان سالماً حبيبهـا الاول وقد أحبته وتركت كل شيء لاجله وعرضت نفسها لغضب أبيها والخليفة حباً به فكيف ترى فيه تلك الخسة حتى يحملها على التواطؤ معه لقتل أعظم الناس قدراً وأفضلهم نسباً ومروءة . وتذكرت كيف رجع سالم في تلك الليلة مرذولا بعد ان عرف ان خصمه هو الحسين بن جوهر . وبماذا عساه ان يعلل وجودها مع الحسين في ذلك الليل هناك . وراجعت مادار بينها وبين والدها وأبي حامد من الحديث فاظلم قلبها وودت لو أنهـا لم تذهب في تلك المهمة

ولـكنها صبرت نفسها الى الغد لترى ما يكون وأخذت في تبديل ثيابها طلباً للرقاد .. وكيف تنام وهي في تلك الحال وقد تراكمت عليها الهواجس وأحست بصدمة عنيفة زعزعت أوتار قلبها وشوشت أفكارها . وأصبحت لا تجد راحة الا في النوم لعلها اذا أفاقت في الصباح وجدت ما مر بهـا حلماً مزعجاً - وكثيراً ما يقضي الانسان امثال هذه الاضطرابات في نومه وتظهر له في الصباح اضغاث أحلام . فتوسدت الفراش وتغطت الى فوق رأسها وقضت تلك الليلة في أشد الاضطراب والقلق

أما سالم فلما انفرد بعد رجوعه أحس بصغر نفسه وعظم عليه ما اصابه من الفشل بين يدي خطيبته وخصوصاً مع مناظره عليها . وكان منذ ساعة يحرضها على احتقاره واحتقار والده وخليفته . وزعم أنه قاتلهم على أهون سبيل ليعيد الملك الى والدها فتصير هي الملكة .. وغير ذلك مما دار بينهـا وبينهم في تلك الليلة . غير ما أظهرته هي من التفاني في حبه والثقة ببسالته

كل هذه الهواجس خطرت له وهو عائد على جواده يمشي الهويناء ويتوهم لفرط خجله ان الحسين يتبعه - وأخذ يفكر في مادار بينهما في ذلك الموقف ويزن أقواله ليرى هل فرط بكرامته وهل له عذر مقبول بذلك الرجوع

البارد ؟ وأخذ يؤول ما قاله او ما سمعه وينتحل الاعذار ويهيء الاسباب ويقدر العواقب لو انه ظل على جسارته. فاقتنع انه أحسن بالرجوع محافظة على كرامة لمياء وانه لو تمسك بقوله واراد تخليصها من أيدي أولئك القوم لا نفضح أمرها وهي قد تقدمت اليه ان يقتصر ويعود

فارتاح عند هذا العذر السفسطي ـ وكذلك الانسان قد يصدق المحال تبريراً لعمله ووداً لكرامته وحفظا لمنزلته عند نفسه . ولما اطمأن خاطره من هذه الوجهة عاد الى التفكير في سبب تلك العلاقة بينها وبين الحسين حتى يصطحبها فى ذلك الليل على موعد وتواطؤ . فلما تصور ذلك اقشعر بدنه وهبت الغيرة في بدنه. والغيور سيء الظن ويتعاظم سوء ظنه كلما تعاظم حبه — قد يرى بعض الرجال رجلا يخاطب امرأة في ريبة فيغار منه وتحدثه نفسه أن يعترضه وقد يسيء الظن به لكنه لا يلبث ان يلتمس عذراً ويحسن الظن . أما اذا كان الخطاب مع فتاة يحبها فانه يبني العلالي والقصور على ما رآه أو سمعه ويتعاظم سوء ظنه كثيراً ولا يقبل عذراً . وكان سالماً يحب لمياء ويعجب ببسالتها وجمالها ويرتاح الى الاقتران بها ولكنه لم يكن يعشقها كما كانت تعشقه هي . وانما صمم على خطبتها لغرض سياسي سيظهر بعد قليل

الفصل الثانى والعشرون

الحقيقة

دخل سالم معسكر حمدون وتجاوز فسطاطه وهو لا يشعر . وكان في عزمه ان يعود الى ذلك الفسطاط ليقص ما رآه على أبيها . فما شعر إلا وهو بباب خيمة عمه أبي حامد فاراد أن يثني عنان جواده نحو فسطاط حمدون واذا بابي حامد قد خرج من تلك الخيمة وأشار اليه أن يدخل فترجل ودخل . فرأى أبا حامد وحده هناك وقد احمرت عيناه وبان الاهتمام في وجهه . وكان قد تعود أن يرى ذلك فيه اذا طال التفكير في أمر عظيم

فلما دخل ابتدره أبوحامد قائلا «قد وصلنا ياسالم الىالغرض المطلوب. اقعد» وأشار الى وسادة على البساط فقعد وقعد أبو حامد الى جانبه وهو يقول له «اين كنت ؟»

قال «ذهبت لاشيع لمياء الى المنصورية وليتني لم اذهب»

قال «ولماذا ؟»

فقص عليه ما جرى من حيث وجود الحسين هناك وكيف كان في انتظار لمياء وقد رافقها على غير كلفة ولم يذكر فشله

فقال ابو حامد «وهل ساءك ذلك ؟»

قال «كيف لا ؟ وقد كنا منذ ساعة نتحدث في اقناعها أن تقبل به وهي تظهر انها لا تريده فكيف تكون على موعد منه وترافقه في هذا الليل»

فضحك ضحكة اغتصابية لا تلتئم مع ما كان فيه من الاهتمام وقال يظهر انك لا تزال تهتم بهذه الصغائر . . هل يحول ذلك الاجتماع دون غرضنا الذي اوقفنا حياتنا من أجله ؟ كلا بل هو يهونه علينا ، وخفض صوته وقال «ام نسيت الغرض الاصلي من علاقتنا مع هذا الامير المغرور ؟»

فسكت سالم وأطرق كأنه يفكر في حديث دار بينه وبين ابي حامد من عهد بعيد

فقال أبو حامد «لا انكر ان لمياء فتاة شجاعة وجميلة وهي تجلك . ولكن هل خطبناها لاننا لم نجد بين نساء هذه القبائل من يليق بك ؟ انك ستجد خيراً منها ولا سيما بعد أن ننال بغيتنا وتتخلص من اولئك الخائنين . . كن رجلا واعمل عمل الرجال . وانظر الى الغاية التي نحن سائرون اليها . يكفي اننا أقنعنا هذه الفتاة ان تمهد لنا السبيل لقتل ذلك الرجل وقائده . فاذا قتلناهما لا يبقى لهذا الغلام حظ من الحياة فتكون لمياء لك وعند ذلك . . . وسكت وهو يتلفت يميناً وشمالا كانه يحاذر أن يسمعه أحد وقال «ألا تعلم متى تزوجت لمياء بعد ذلك كنت أنت صاحب القيروان ؟»

وكان لابي حامد سلطة عظيمة على افكار سالم . فاذا قال قولا صدقه ولو كان مستحيلا لـكنه أحب الاستفهام فقال « وكيف ذلك ؟ »

قال « ما هو الغرض الذي اوقفت حياتي من اجله ؟ »

قال « هو الاخذ بثأر أبي عبد الله المقتول ظلماً »

قال «وهل نكون قد أخذنا بالثأر ان لم نخرج هذا السلطان من أيدي هؤلاء الخونة ؟ »

قال « أنت اعلم »

قال « أنا أقول لك ان عظام أبي عبد الله رحمة الله عليه تنادينا من ظلمة القبر أن نأخذ بثأره ونخرج الملك من أيدي هؤلاء الخائنين . وأنت تعلم أننا كنا ندبر ذلك قبل ان يؤخذ صاحب سجلماسة أسيراً . وكنت أحسبه رجلا يعول عليه في العظائم فاذا هو ثرثار مغرور بنفسه يقول مالا يفعل وليس هو اهلا لغير الادعاء الفارغ ولا يغرك ماسمعته من اطرائي اجداده ومبالغتي في مدحه .. لو كان رجلا لما صار الى الاسر واضطر الى طاعة هذا الرجل . وإنما أنا أداجيه لنستخدم ابنته في تمهيد السبيل لقتل المعز وقائده فنجعله صاحب القيروان . واذا تزوجت أنت بابنته وهو ليس له ذكر يرثه صارت الامارة اليك أو نجعلها اليك قبل موته بما أعددناه من الاحزاب والاموال وسائر المعدات . . . وعند ذلك نكون قد انتقمنا لذلك المقتول »

ورغم ما غرس في ذهن سالم من مقدرة أبي حامد العجيبة لم يفته ما يحول دون الوصول الى تلك الغاية من العقبات فقال « اسمح لى ياسيدي ان استفهم عن امر . . . »

فقطع كلامه وقال « لا تخف يا سالم اني لا اخطو خطوة قبل ان أقدر ماوراءها انك تقول في نفسك كيف تنتهي مهمتنا بقتل ذينك الرجلين وهذه قبائل البربر من كتامة وصنهاجة وهوارة كلها من انصارهما وهم يعدون بمئات الالوف . ونحن ليس عندنا غير رجال صاحب سجلماسة .. ان تلك القبائل يا ولدي لم تذعن للمعز الا لتخاذل امرائها وتفرق كلمتهم مع اعتقادهم صحة انتسابه الى الامام علي . وهذا علي تدبيره . الا يكفيك

اني عالم بهذا الاعتراض ؟ أم انك تخاف أن أسيء التدبير ولا أحسن الحيلة - ألا يكفي هؤلاء الامراء من هذه الغنيمة ان يعود كل منهم أميراً مستقلا بحكومته وان من يفوز بقتل صاحب القيروان يكون له الحق بامتلاكها ؟ وهي ستكون حصة صاحب سجلماسة . وهل تظن أهل القيروان يرمون نبلا علينا بعد قتل خليفتهم ؟ ان رجال سجلماسة معنا وهم اشداء قادرون على أخذ القيروان وان لم يساعدهم أحد من سائر القبائل فكيف اذا ساعدوهم ... »

فازداد اعجاب سالم بدهاء عمه وقال « لله درك من ملك قادر .. انك والله أولى بهذا الامر مني ومن سواي »

فاسرع ابو حامد فوضع كفه على فم سالم يريد اسكاته عنوة وقال « لا تقل ذلك ان هذا الملك مقدر لك هذه وصية امامنا المرحرم وكفى » قال ذلك ونهض وهو يمسك بيد سالم لينهض معه فنهض وقد تهيب وود لو يستزيده بياناً لانه مع طول صحبته لم يسمع منه التصريح بالوصاية وأما أبو حامد فقال وهو يصلح عمامته « لاحاجة بي ان اوصيك بالكتمان - حتى الحديث الذي ذكرته عن لمياء والحسين أخفه واجعل انك لم تر شيئاً ، ثم سكت وبان الاهتمام في وجهه وقال « اما انت فلا ينبغي ان تبقى هنا بعد هذه المقابلة لا بد من سفرك الى مصر في صباح الغد باكراً لمهمة مثل التي اتيت منها بالامس ... فتقابل ذلك العبد الاسود اميرها (كافور) وتعقد معه عهداً على هؤلاء الفاطميين فانه يخافهم كما تعلم وسيكون عوناً لنا في تأييد دولتنا مع صاحب بغداد . . اذ لا بد من خلافة ثابتة تتأيد بها دعوتنا . اظنك فهمت مرادي . ولا ينبغي ان يعلم حمدون بهذه المساعي ولا غيرها .. فهمت ؟.. »

فاشار بعينيه انه فهم وهم بالخروج فاستوقفه وقال « لابد من سفرك في الصباح خلسة فاني أخاف من دسيسة عليك .. »

قال « سأسافر »

ثم وقف أبو حامد فجأة وقد تذكر أمراً هاماً ونظر في عيني سالم

وحدق فيها طويلا كأنه يستطلع ما يجول في خاطره . فأطرق سالم تهيباً فقال ابو حامد « اخاف ان تكون قد بحت لاحد بما اعددناه في فج الاخيار هناك. هناك في فج الاخيار قوتنا التي سيتم لنا بها الامر فننشيء دولة تخفق اعلامها على ضفاف النيل وضفاف الفرات »

فلما سمع قوله اختلج قلبه في صدره لعامه انه لم يحافظ على ذلك السر لكنه اسرع الى طمأنته بانه يستحيل ان يبوح بذلك السر . فهز رأسه وقال « كيف ابوح به وعليه معولنا ؟ . كن مطمئناً »

فصدقه وقال « فاذهب الى فراشك . . ولا تثق بأحد سواي »

فهم بتقبيل يده وخرج وظل ابو حامد وحده وقد اصبح بعد هذا الحديث كالجمل الهائج . وازداد احمرار عينيه حتى صارتا مثل عيني المحموم من شدة ما هاج في خاطره من البواعث . فلما خلا بنفسه جعل يخطر بالغرفة ذهاباً واياباً وهو يقضم اطراف شاربيه باسنانه . وقد جعل يديه متصالبتين وراء ظهره وأخذ يناجي نفسه قائلا رحمك الله يا ابا عبد الله .. قد آن لى أن أنتقم لك من هؤلاء الغادرين · · فج الاخيار · ·فج الاخيار في جبل ايكجان . . هناك دار الهجرة التي جعلها ابو عبد الله هجرة للاحزاب التي نصر بها العبيديين . . هي الآن هجرتنا وفيها الاموال التى ضربها أبو عبد الله عند أول الفتح · · هناك قوتنا · · وضحك ضحكة ظافر وقال « أحب أن يبعث ابو عبد الله ويرى نجاحنا · · ولكن · · » وسكت وبلع ريقه وأخذ في تبديل ثيابه للرقاد

الفصل الثالث والعشرون

الضمير

أما لمياء فانها قضت تلك الليلة وهي تتقلب كأنها على فراش من شوك القتاد ولم يغمض جفناها الا في الفجر فنامت وتوالت عليها الاحلام المزعجة

واستغرقت في النوم من شدة التعب حتى صار الضحى فأفاقت على قر الباب فاستيقظت مذعورة وتحركت عينيها وتذكرت حالها أمس فاسفت انه لم يكن حلماً . وبادرت الى الباب ففتحته فرأت حاضنة أم الامراء وحالما وقع بصرها عليها قالت « كيف أم الامراء عساها فى خير »

قالت « قد استبطأتك فارسلتني في السؤال عنك »

فأحست بوخز ضميرها من ذلك التلطف لعلمها بما دبروه لزوجها من المكائد لكنها تجلدت وقالت « كان ينبغي لي أن أسرع اليها باكراً لكنني استغرقت في النوم »

قالت « لا بأس يا سيدتي فاني ذاهبة لأطمئنها عنك »

قالت « وقولي لها اني مسرعة لتقبيل يدها حالا »

فعادت الحاضنة وعمدت لمياء الى تبديل ثيابها وخرجت تطلب غرفة أم الامراء ولحظت وهي سائرة في الدهليز ان أهل القصر في حركة غير اعتيادية كأنهم يتأهبون لاحتفال . ثم علمت انهم يتأهبون لصوم رمضان فتذكرت انهم دخلوا في شهر رمضان وقد أصبحوا في ذلك اليوم صائمين

وصلت غرفة أم الامراء فرأتها جالسة على مقعد . وحالما دخلت لمياء نهضت لها وهي تبتسم كأنها تستقبل بعض أولادها فلم تمالك لمياء من فرط امتنانها لذلك التلطف أن أكبت على يدها تقبلها وقد سبقتها العبرات . فاستغربت أم الامراء بكاءها لكنها ظنتها تبكي لامر يتعلق بخطبتها للحسين وهي انما تبكي أسفاً لما فرط منها في حق الخليفة من المؤامرة فضمتها أم الامراء الى صدرها وقالت « ما بالك تبكين يا بنية ؟ »

فأغرقت في البكاء وغلبت على أمرها حتى لم تعد تستطيع امساك نفسها . فجعلت تخفف عنها وقالت لها « أرجو انك لم تنجحي في مهمتك » وهي تشير بهذه المداعبة الى رغبتها في زفافها الى الحسين

فتماسكت وتجلدت وقالت وهي تمسح عينيها « نعم يا سيدتي اني لم أنجح والظاهر ان الله قد أراد ما أراده أمير المؤمنين

فبان السرور في وجه أم الامراء وأجلست لمياء الى جانبها وقالت

« ألذلك تبكين يا لمياء ؟ لا ينبغي أن تحزني وسوف تتحققين انك أحرزت نصيباً حسناً . وأحمد الله لانه قدر لك أن تكوني زوجة لهذا الشاب النادر المثال . وبرهاناً على سروري بذلك فاني سأجعل لك مهراً لم تنله فتاة من اهل القيروان لانك عزيزة علينا . ومتي علمت اني سأقوم بتأدية مهرك يطمئن خاطرك انه سيكون مهراً يليق بك .. وسأجعل امير المؤمنين يهبك قصراً من قصوره الفخمة أفرشه احسن فرش وأملأه بالتحف والجواري بحيث يجعلك تنسي ذلك الرجل الذي كاد يسبقنا الى نيلك »

فلم يزدها هذا الكلام الا غيظاً من نفسها وندماً على ما فرط منها ولكنها تجلدت وقالت « أشكرك يا سيدتي على هذه النعم اني لا أستحق شيئاً من ذلك » وهي تعني حقيقة ما تقوله . ولكن أم الامراء حملت قولها محمل التواضع فقالت « بل أنت أهل لاكثر منه ولكن لا بد من الانتظار الى انقضاء رمضان لاننا دخلنا في هذا الشهر المبارك من صباح اليوم وأظن أمير المؤمنين يؤجل الزفاف الى عيد الفطر أو ما بعده وسننظر في ذلك »

فسرها أن يطول أجل الاقتران لعلها تتمكن في أثنائه من تدبير طريقة للتخلص من هذه الورطة . فبان الارتياح في محياها وقالت « اني أمتك ولساني قاصر عن أداء حق شكرك جزاك الله خيراً »

فقالت انما يهمني يا لمياء أن تكوني مسرورة وأحب أن يكون قرانك بالحسين سعيداً لافرح أنا ايضاً . وقد أخذت اشعر منذ الآن انك صرت من أهلنا وأصبح والدك يفضل سائر امرائنا بحقوق القربى من قائدنا . وأنت تعلمين منزلة جوهر من نفس امير المؤمنين فانه يفضله على كثيرين من آله وذوي قرابته . وسترين في هذا المساء متى جلسوا للافطار عند الغروب كيف يجلسه بجانبه ويقربه اليه دون سائر العبيديين . ولا ريب انه سيقرب الامير حمدون والدك ايضاً اكراماً لك »

فلم تعد لمياء تستطيع سماع هذا الاطراء وودت لو انها تسمع عكسه عسى أن يخف بعض ما بها من وخز الضمير . فأحبت تغيير الموضوع فقالت

« سندخل الليلة في شهر رمضان جعله الله شهراً مباركاً عليك وزادك من نعمه ومتعك بأبنائك . ما هي العادة في تناول الافطار عندكم ؟ »

قالت « ان لامير المؤمنين عناية خصوصية في هذا الشهر . يأمر اصحاب المطابخ باعداد طعام الافطار لاهل القصر فتمد الاسمطة للخليفة وأهله وقواده وأمرائه وسائر رجال حكومته حسب درجاتهم فيأكلون معاً . وتعد الموائد ايضاً للنساء من أهل هـذا القصر فأتولى أنا تدبيره على أيدي الجواري . وستكونين أنت في من يفطر معي وسأجعل مجلسك بالقرب مني لاستأنس بك . وكذلك نفعل في طعام السحور أحياناً وأما أنت فستكونين معي كل هـذا الشهر في السحور والفطور . وسأريك في ساعة الغروب كيف تمد الاسمطة وكيف يجلس الخليفة والامراء عليها وسترين والدك معهم »

فشكرت لها فضلها وأحبت الاستئذان في الذهاب الى غرفتها فراراً من ذلك الحديث ولـكي تريح دماغها . لانها أحست بألم في رأسها بسبب ما قاسته أمس من الانزعاج . وزادها حديث أم الامراء انزعاجاً فأظهرت التعب ولم تكن تحتاج في إظهاره إلى تكلف لانه كان بادياً في وجهها وقالت « ألا تأذن مولاتي في انصرافي فقد شغلتها عن شؤونهـا وأنا أحس بحاجة الى الراحة »

قالت « اني أقرأ ذلك في عينيك وهو طبيعي في مثل هـذه الحالة ولـكنني ارجو ان تنسي ذلك بعد قليل . . « وصفقت فجاءت حاضنتها فقالت « احب ان تكون عزيزتي لمياء في غرفة قريبة من غرفتي . قولي لقيمة القصر ان تهيء لها الغرفة بما تحتاج اليه فانها ذاهبة بعد قليل للراحة فيها »

فأشارت مطيعة وخرجت ولم تفرح لمياء بهذا الاكرام لانهـا كانت تود البقاء بعيدة على انفراد خوفاً من ان يظهر شيء منها على حين غفلة فيفضح امرها . لـكنها لم تجد بداً من الثناء على ذلك الانعام . وبعد قليل جاءت الحاضنة وقالت « ان الغرفة مهيأة »

فنهضت لمياء وودعت . فقالت لها أم الامراء « سنلتقي هنا قبل الغروب» فأومأت لمياء مطيعة ومشت الى غرفتها الجديدة وهي تعرف طريقها اليها لكنها لا تدري ماذا تعمل . فلما وصلت الغرفة رأتها أحسن أثاثاً وفرشاً من تلك . وفيها مرآة جميلة من الفضة الصقيلة مستديرة الشكل . وهناك منضدة عليها المكحلة والمشط والسواك وسائر ما تحتاج اليه المرأة في اصلاح شأنها . وسريرها من الابنوس وهو مع بساطته ثمين وكل ما في الغرفة ثمين وبسيط

على انها لم تنتبه الى شيء لفرط قلقها . وما صدقت أنها دخلت الغرفة حتى اغلقت بابها وتوسدت الفراش واستغرقت في الافكار . وقد سرها تأجيل الزفاف شهراً كاملا اذ يكون لها فرصة للتفكير والتدبير . وأخذت تفكر في استنباط طريقة تريح بها ضميرها . فتبقى هذه النعمة لها وتعرف حق المعز وامرأته وفضلهما عليها فلا تخونهما . ومع ذلك تريد ان تحفظ كرامة والدها . وأما سالم فحالما تصور لها خفق قلبها لما تذكرته من امره في أمس وكيف عاد خائباً وما اظهره الحسين من المروءة وكبر النفس في شأنه واحست بانعطاف نحو الحسين ـ فكذبت نفسها وأخذت في تحويل فكرها عنه وصورته لا تغيب عن مخيلتها كما رأته في آخر لحظة وهو يودعها ويوصيها بكتمان ما جرى لسالم . وقدرت تلك الاريحية حق قدرها وجعلت تقنع نفسها أن ما تحس به من الانعطاف نحوه انما هو من قبيل الامتنان لانها لم تكن تريد بدلا من سالم وهو أول من طرق حبه قلبها وهي صغيرة . تسرب حبه اليها تدريجاً لانهما تعارفا منذ الصغر فلم يأتها الحب دفعة كما اصابها هذه المرة . ولذلك لم تقتنع ان شعورها نحو الحسين من قبيل الحب الذي لا يلبث ان يتمكن . وخصوصاً انها اصبحت تنتظر ساعة الافطار بفارغ الصبر لكي تراه جالساً على السماط في جملة الجالسين كما قالت لها أم الامراء

الفصل الرابع والعشرون

افطار رمضان

على ان التعب غلب عليها فنامت واستغرقت في النوم . وما أفاقت الا على اصوات المؤذنين في العصر فنهضت واصلحت من شأنها ونظرت الى وجهها في المرآة فاذا هي قد امتقع لونها قليلا وذبلت عيناها . فأحبت ان تتشاغل عن تلك الهواجس فخرجت لملاقاة أم الامراء فرأتها في انتظارها فهشت وسألتها عن صحتها . فقالت انها في خير فأشارت اليها ان تتبعها لتطلعها على ما يعدونه من اسمطة الافطار. فمشت معها حتى دخلتا روشناً يشرف على ساحة بعيدة الاطراف في جانب الحديقة قد نصب فيها سرادق كبير وأخذ الخدم في مد الاسمطة والموائد . فأشارت اليها أم الامراء فقعدت على مقعد أمامه ستر فيه منافذ صغيرة تأذن للجالسين هنـاك في رؤية كل حركة في تلك الساحة بدون ان يراهم أحـد من اهلها . وقعدت أم الامراء الى جانبهـا وجعلت تقص عليها ما تعودوه في الافطار. وهي ترى الخدم يهيئون الاسمطة على شكل خاص . اعلاها في الصدر سماط يسع بضعة عشر رجلا يجلسون على الوسائد حوله وقد وضعت عليه انواع الاطعمة والاثمار . ونحو ذلك في اسمطة أخرى بين يدي ذاك هنا وهناك . وعليها الاطعمة من اللحوم والافاويه وقد تصاعدت عنها روائح البهارات وغيرها . وما زالت رائحة الند المحروق في اطراف الحديقة غالبة على سواها حتى تكامل وضع اطباق الطعام فتغلبت رائح الاطعمة وبهاراتها . واشتغل جماعة من الخدم السود في انارة المصابيح المعلقة باعمدة السرادق . وأما الصقالبة البيض فأكثر اشتغالهم في حمل اطباق الاطعمة . ووقف جماعة منهم يحملون الاباريق الفضية والاقداح الزجاج حول الاسمطة يسكبون الماء لمن يريد حسب الطلب

أعد كل شيء قبل الغروب ولمياء تتشاغل برؤية الخدم يذهبون ويجيئون في ترتيب تلك الموائد وهي صامتة . رشاركتها أم الامراء بالصمت ثم قالت « اذا شئت ان نذهب الى مائدتنا هلمي اليها فانهم يعدونها كما يعدون هذه»

فأظهرت انها تفضل البقاء هناك حتى يجلس الخليفة والامراء على الطعام ثم تنصرف فأطاعتها . وبعد قليـل أصبح أهل الحديقة في هرج واهتمام يتسابقون الى التأدب في مواقفهم استعداداً لاستقبال أمير المؤمنين . ثم اطل الخليفة ماشياً الهويناء وبجانبه القائد جوهر . ووراءهما ابنه الحسين ثم اولاد الخليفة وأهله . ثم جماعة الامراء والقواد فتفرقوا الى مقاعدهم على الوسائد حول الاسمطة . فجلس المعز في صدر السماط الاول وأومأ الى جوهر ان يجلس الى يمينـه ونادى الحسين فأجلسه بجانب أبيه . ثم جلس ابنـاء الخليفة وأهله حول ذلك السماط . وجلس سائر الامراء والقواد حول الاسمطة الاخرى . وبعد قليل عات اصوات المؤذنين فأخذ القراء يتلون الفاتحة وضج المكان بتلاوتهـا . وجعلت لمياء تتفرس في الوجوه فرأت والدها في جملة المدعوين وقد دعاه المعز الى اقرب الاسمطة اليه وهو يبش له ويرحب به . وظنت أم الامراء ان لمياء لم تنتبه الى ذلك فقالت لها «هذا والدك قد جاء .. ويسرني ما أراه من اكرام امير المؤمنين له »

وكانت لميـاء مشتغلة الخاطر بالتفرس في الوجوه ولا سيما في وجه الحسين . وكانت حالما وقع نظرها عليه خفق قلبها وتصاعد الدم الى وجهها رغم ارادتها . ومع رغبتها في رؤيته وانها أتت الى هناك لتراه فلما أحست بخفقان قلبها ندمت وحولت نظرها عنه واخذت تغالب عواطفهـا ونهضت وأظهرت انها مستعدة لمرافقة أم الامراء الى مائدتها متى شاءت . فاظهرت تود البقاء هناك وقالت هذا الحسين أراه جالساً بجانب والده ان هذا المنظر يغنيني عن الافطار . كيف انت ؟ « قالت ذلك على سبيل المداعبة . فسكتت لمياء وصبغ الحياء وجهها ولم يصبغه الحياء بل الارتباك ايضاً . ولم تجد سبيلا الى اخفاء عواطفها الا بالتحول من ذلك المكان فأطاعتها أم الامراء

فتحولنا الى قاعة مد فيها سماطها الخاص فجلست اليه واجلست لمياء الى جانبها وتناولنا الافطار على نحو ما وصفناه من افطار الخليفة وامرائه

ولحظت أم الامراء ان لمياء تسرع في تناول الطعام وهي ساكتة والاهتمام باد في عينيها فأدركت انها تود الرجوع الى الروشن فاختصرت في الاكل حتى اذا فرغت منه قالت لها « هلم بنا الى الروشن لنسمع ما يدور من الحديث هناك »

الفصل الخامس والعشرون

حديث الزفاف

فنهضت ومشت معها وتناست ندمها – وانما سيقت الى هناك بدافع لا سلطان للعقل عليه فيأتيه المحب رغم ارادته وقد يرتكب في سبيل ذلك اموراً يوبخ نفسه عليها ولا يرى مندوحة له عنها – قعدتا فرأتا الاسمطة قد رفعت وانصرف معظم المدعوين وجلس من بقي منهم بين يدي المعز وفيهم جوهر وحمدون والحسين . وقد جلس حمدون بقرب جوهر وهما يتحادثان كأعز الاصدقاء . ويتخلل حديثهما ضحك وتودد . فأصاخت لمياء بسمعها لتسمع ما يدور . فسمعت الخليفة يقول لابيها « قد سرني ما تجدد بيننا من روابط القرابة بخطبة لمياء الى ابن قائدنا وانهما لنعم العروسان . وسرور أم الامراء لا يقل عن سروري وهي تود ان تختص عروسنا لمياء بالتفات هي أهل له وستؤدي لها المهر عن قائدنا . وسنسوقه اليكم قريباً . وسنخص العروسين بقصر من قصورنا فيكونان مثل بعض اهلنا »

فاسرع جوهر الى مقابلة هذا الانعام بالنهوض ثم اكب على يدي المعز ليقبلهما علامة للشكر فمنعه المعز وقال « ان الحسين ابننا ولمياء بنتنا لا موجب للشكر وانما يهمنا أن يكون زفافهما سعيداً مباركاً »

فقال حمدون وهو يظهر الامتنان « ان نعم مولانا فوق ما نستحق ويكفي شرفاً لنا ان يكون ذلك العقد على يده . فهو لا شك يكون مباركا

ويزيد بركة اذا تنازل مولانا بحضور حفلة الزفاف . وان كان ذلك مما لا يطمع فيه أحد ولكني تجرأت عليه لما ظهر من تلطف المولى في محاسنتنا »

فلما سمعت لمياء هذا القول أكبرته وخافت ان يكون ابوها قد تطوح في طلبه الى ما لا يمكن الاجابة عليه . ورأت مثل هذا الاستغراب من جوهر ايضاً. اما المعز فابتسم وقال « ان ذلك هين علي ولا مانع عندي منه . لان قائدنا جوهر اهل لما هو فوق ذلك. وانما أخاف ان يكون فيه ثقلة عليكم »

فترامى جوهر على ركبة المعز وقبلها وهو يقول « قد غمرني امير المؤمنين بفضله واحسانه . وكان الامير حمدون قد خاطبني بهذا الامر ف أجسر على عرضه والتماسه فكان هو أحسن مني تقديراً لتلطف امير المؤمنين

فأسرع حمدون الى الكلام قائلا « لم أقل ما قلته إلا وأنا أعرف منزلة القائد جوهر عند مولانا اعزه الله . وقد جرأني على ذلك ان أمير المؤمنين جعل نفسه بمنزلة والد الحسين وخطب له جاريته ابنتنا لمياء .فسبق الى ذهني انه لا يرفض طلبنا ولا شك فان ذلك تنازل كبير منه ـ اما ما اشار اليه من الثقلة علينا فأي ثقلة فيه ونحن لو مشينا على رؤوسنا بين يديه لا نكافئه على انعامه »

فكانت لمياء تسمع هذا الحديث وقلبها يطفح سروراً لما توسمت فيه من تغير رأى والدها في المعز فظنته يعدل عن الفتك .. ولما تصورت ذلك اعترضها شبح سالم كأنه يوبخها على رضاها بالحسين دونه . لانها اذا تم الزفاف بلا فتك صارت عروساً للحسين فارتبكت في تفكيرها ولبثت صامتة وافكارها تائهة وام الامراء تراعي حركاتها فلحظت ارتباكها لكنها لم يخطر لها ما كان يجول في خاطرها

ولما فرغ حمدون من قوله اجابه المعز وهو يبتسم قائلا « ان ظنك في محله ايها الامير. ولكن قائدنا لم يعرف حقيقة منزلته عندنا ـ أننا سنحضر حفلة الزفاف معه ولا بد ان يكون ذلك في معسكركم حيث تقيم العروس قبل زفافها الى عريسها » وسكت ...

فأجاب حمدون اينما كنا فنحن في ظل امير المؤمنين . وليس لاحد

منا معسكر ولا قصر الا من نعمه . واذا تنازل المولى بأن يكون ذلك في ظاهر المنصورية أريناه عادة السجلماسيين في الاحتفال باعراسهم. وسيجري الفرسان هناك في حلبة السباق ويلعبون على ظهور الخيل . ولعله يسر أن يرى رجاله وعبيده يتسابقون على الافراس بين يديه. ولو كان في المنصورية متسع لهذه الالعاب او لو امر سيدي بذلك فاننا مطيعون »

قال المعز « بل نذهب الى معسكركم ونشاهد احتفالكم . اني كثير الشغف برؤية الفرسان يتسابقون ولا سيما فرسان سجلماسة المشهورين بالفروسية والمهارة في ركوب الخيل . فمتى ترى ان يكون ذلك ؟ »

فقال حمدون « ليس لاحد منا رأي فان الامر في ذلك لمولانا »

فنظر المعز الى جوهر كأنه يستشيره فبادر الى الجواب قائلا « الامر لمولاي »

فقال المعز « اما وقد دخلنا في شهر رمضان المبارك فلا أرى ان يتم الزفاف قبل انقضائه . فنجعله في عيد الفطر تبركاً به ويكون احتفالنا بالزفاف في جملة احتفالنا بالعيد »

فبان البشر في وجهي حمدون وجوهر عند هذا الاقتراح وأخذا في تنميق عبارات الثناء أما لمياء فلم يكن ذلك جديداً عليها وكانت قد سمعته من ام الامراء ولحظت من خلال تلك الاحاديث ان المعز عمل بما اوحته اليه امرأته فتأكدت حينئذ اهتمامها بأمرها وشدة حبها لها . والتفتت اليها لفتة ملؤها الامتنان والشكر . ففهمت ام الامراء من تلك اللفتة ما لا تقوى الالسنة على بسطه . وكان جوابها انها ضمتها الى صدرها وقبلتها فأكبت على يدها لتقبلها فنعتها وقالت « أكدي يا بنية ان فرحي بتمام هذا الامر يكفيني . . . ولكنهم اطالوا اجل الاقتران أليس كذلك ؟ . . » قالت ذلك على سبيل المداعبة

فأطرقت لمياء حياء فابتدرتها ام الامراء قائلة « اعنى انهم اطالوه على او على الحسين . . ألا ترينه ساكتاً مطرقاً لا يكلم أحداً . . أكدي اني أعد هذا الشاب من أولادنا وأنت ابنتنا . . ولذلك لا أرى أن يأخذوك

الى بيت أبيك الا قبل الاقتران ببضعة أيام . . أريد ان اشبع منك . . »

وكانت لمياء في اثناء ذلك قد عادت هواجسها اليها وأصبحت شديدة الرغبة في ملاقاة والدها لترى هل تغير رأيه وعول عن الفتك بعدما لاقاه من اكرام المعز او هو يقول ما قاله مداجاة . لكن سبق الى ذهنها انه يظهر ما يعتقده لان الصادق الحر لا يقدر أن يتصور نفاق الكاذبين . ثم هي من الجهة الاخرى يشق عليها ان تقبل بالحسين وتعد ذلك خيانة فضلا عن داعي قلبها . وهي في ذلك رأت الخليفة يتحفز للنهوض وقد نهض الجلوس واستأذنوا في الانصراف . ونهضت ام الامراء ومشت لمياء معها وهي تود ان لا تعود الى محادثتها بشأن ذهابها الى ابيها لانها تحب أن تترك الامر للتقادير لترى ما يكون في اثناء رمضان . وتحب ان تخلو بنفسها بعدما تقرر لتفكر في امرها وتحل هذه المشكلة حلا معقولا

الفصل السادس والعشرون

المناجاة

ودعت لمياء ام الامراء وذهبت الى غرفتها وهي غارقة في بحار هواجسها . ولم تكد تخلو بنفسها حتى طرق ذهنها فكر احست بارتياح اليه — وذلك انها قابلت بين ما دار بينها وبين والدها أمس في فسطاطه بحضور أبي حامد وما ظهر منه بين يدي المعز في هذا المساء فوجدت فرقاً كبيراً . فتبادر الى اعتقادها ان أبا حامد هو الذي حرضه على الفتك بالخليفة وانه لو ترك لنفسه لم يرض بذلك . وتذكرت ما تعرفه من ظواهر هذا الرجل في اثناء اقامته بسجلماسة وما كان يسر اليها سالم احياناً من الاغراض السياسية التي يرمي اليها . فترجح لديها ان أبا حامد هو علة المفاسد وانها لو انفردت بأبيها وباحثته في امر المعز لاقنعته أن يرجع عن عزمه — فارتاحت لهذا الفكر . لكنها لم تكد تشعر بالراحة حتى تصورت انها تصير عند ذلك زوجة للحسين تقيم في المنصورية . . وماذا تفعل بسالم ؟

فوقف ذهنها عند هذه النقطة فرأت عدول أبيها عن الفتك بالمعز يحرمها من سالم وهي تحبه ولا ترضى عنه بدلا

فاخذت تخاطب نفسها قائلة « ما العمل اذاً ؟ أأرضى بقتل المعز وهو سلالة فاطمة الزهراء وصاحب الفضل الاكبر علي وأسلم بقتل جوهر القائد العظيم ؟ وهب اني رضيت فهل تفلح هذه المكيدة ؟ ألا يعقل ان تعود عاقبتها وبالا علينا ؟ بأي شيء نحارب جند الخليفة ؟ كيف نحارب الحسين ـ ذلك الشهم صاحب المروءة ونقتله ايضاً ؟ ما هو ذنبه ؟ بل ما هو ذنب الخليفة وقائده ؟ انها مكيدة ملؤها الخداع والغش ـ كيف ترضين يا لمياء بهذه الرذيلة ؟ . يكفي ما أراه من كرم اخلاق هذه المرأة التي تحبني محبة الوالدة ـ أأرضى ان اكون وسيلة لسقوطها ـ انا افعل ذلك ؟ كلا..كلا .. اني إذاً قاتلة خائنة . واحرم من حبيبي . . ماذا افعل ؟ اطلع ام الامراء على سر الامر ليتحذروا منه ؟ عند ذلك أكون قد عرضت سالماً للقتل وعرضت والدي ايضاً للموت . . هل اسمح بقتل والدي وحبيبي ؟ كلا . . ويلاه ما هذه المشكلة التي لا حل لها ؟ »

وكانت جالسة على الفراش تفكر في ذلك وعيناها شاخصتان الى نور المصباح فلما وصلت الى هذا الارتباك نهضت كالواثبة وقد هاجت اشجانها وأخذ القلق منها . وجعلت تتمشى في الغرفة وتعيد النظر في المسألة طرداً وعكساً فلا تجد لها حلا إلا بارتكاب الخيانة أو القتل فضلا عن محاربة العواطف وهي اشد وطأة من كليهما

قضت في التفكير ساعة او ساعتين حتى ملت التردد واغلق عليها الامر فوقفت تجاه المرآة فرأت ما اصاب سحنتها من التغيير لفرط التفكير فقالت « اني أرى لمياء في هذه المرآة غير لمياء في مرآة ابيها بسجلماسة . ويلاه ماكان اغناني عن هذه القلاقل بل ما اغنى اهل القيروان عن هذه السحنة العائدة عليهم بالشؤم والخراب .. هل العيب في المرآة وهي التي غيرت لمياء ؟ لا ذنب لها انها تريني وجهي كما هو . وانما العيب في . . بل العيب في من شوش افكاري وأدخل القلق على قلبي ـ كان الاولى بي ان ابقى على

رفض هذا النصيب وليتسابق هؤلاء الى القتل على غير يدي . هل اقدر على ذلك الآن ؟ بأي لسان اقوله ! وبأي وجه أقابل ام الامراء . هل ابوح لها بسري وأستشيرها في امري ؟ لا اقدر .. ويلاه يارب ماذا افعل !؟ وتحولت عن المرآة الى السرير واستلقت عليه وقد اظلمت الدنيا في عينيها فلم تجد لها فرجاً بغير البكاء فاطلقت لنفسها العنان فيه وأغرقت في البكاء حتى كاد يغمى عليها وصارت تشهق وتندب نفسها .. ثم عادت الى المناجاة فقالت « إلهي قد لذ لي الموت خذني اليك ..هل اقتل نفسي وأخلص من هذه الحياة ؟ ان موتي احسن حل لهذه المشكلة فينجو المحسنون إلي من القتل وأتخلص من التردد القبيح . ولكن هل اقتل نفسي بيدى ! .. لا .لا. بل الافضل ان افر من هذا المكان الى حيث لا يراني احد حتى تأتي ساعتى ..لمياء ! لمياء انت راعية الحصان . تلاقين الاعداء في حومة الوغى وترزخين تحت هذه الاوهام ؟ بل اعود فارفض الحسين وأعتذر له اني لا اريد الزواج .. كيف افعل ذلك ! . مسكين الحسين انه ذو فضل ويظهر انه احبنى ..آه يا سالم يا حبيبي. كيف أموت أو أفر وأتركك !. بارزت الفرسان واستقبلت النبال في ساحة القتال فلم اجد اصعب مراساً من الحب انه يملك ناصية القلب .. ويلاه هل في الدنيا فتاة أشقى حالا مني ! . . »

ثم سكتت وكأن البكاء خفف مصابها وقشع السويداء عن عينيها وتذكرت ان لديها شهراً كاملا لاعمال الفكرة فقالت « فلنصبر ان الله مع الصابرين » وذهبت الى فراشها وقد أخذ التعب منها مأخذاً عظيما

الفصل السابع والعشرون

المراوغة

أما حمدون فانه خرج من قصر المعز بعد العشاء وقد أدهشه ما رآه هناك من الابهة والعظمة واكبر الاقدام على تنفيذ تلك المكيدة ولا سيما

بعد الذي لقيه من الاكرام والمؤانسة من الخليفة وقائده وسائر امرائه وأحس بخطارة الامر الذي هو مقدم عليـه . فقضى مسافة الطريق الى معسكره وهو يفكر في ذلك ـ وتحريض أبي حامد لا يزال غالباً على عقله فوصل خيمته وهو يحب الخلو بنفسه ليعمل فكرته ويرجح أحد الوجهين ولم يكد يستقر به الجلوس حتى جاء أبو حامد وحالما وقع نظره على حمدون استطلع ضميره وكشف عما يجول في خاطره فأراد أن يتحقق ظنه فقال « كيف لقيت امير المؤمنين ؟ »

فاجابه وهو يحاول اخفاء ما يجول في خاطره « لقيته كما اعهـده وكما تعهده انت »

فلما رآه لم يستغرب منه تلقيب المعز بامير المؤمنين توسم صدق فراسته فيه فقال « اعنى هل لقيت منه انساً »

قال « لقد جاملنا وآنسنا واكرم وفادتنا ووددت لو انك كنت معنا »

قال « أنا أعلم اقتدار هذا الرجل وسعة صـدره ولولا ذلك ما تمكن من التغلب على سائر الامراء حتى سمى نفسه أمير المؤمنين »

قال « صدقت . انه واسع الصدر كبير العقل ورأيت منه انعطافاً خصوصياً لانه أصبح يعدني من أهله . ورأيت قائده ايضاً مثله »

فتنحنح أبو حامد وقد ترجح ظنه في تغير عزمه وقال « اظنك ادركت الليلة خطارة الامر الذي نحن عازمون عليه .. »

قال « قد ادركت ذلك من قبل .. ألم تكن أنت مدركه ايضاً ؟ »

قال « كيف لا وقد دان لهذا الرجل الامراء والقواد واصبح صاحب الكلمة النافذة ؟ ان تنفيذ ما عزمنا عليه لا يخلو من الخطر طبعاً »

فاستمسك حمدون بهذا التصريح وتوهم ضعف العزيمة في أبي حامد فقال « هل ترى الخطر يربو على الامل بالنجاح ؟ . »

قال « أراه اضعاف اضعافه ولكن ما العمل وقد رأيتك عازماً على استرجاع مجـدك حتى فضلت الموت على التسليم » فجعل السبب في تدبير المكيدة رغبة حمدون في استرجاع ملـكه

فهان على حمدون الانسحاب بنظام فقال « لكن الرجل العاقل ينبغي ان يقدر العواقب ويعمل بالرأي السديد وما لا يستطيعه اليوم قد يستطيعه غداً »

فتحقق أبو حامد ما توسمه في صديقه من ضعف العزيمة فعمد الى استطلاع ما دار في تلك الجلسة وهل اقبل الخليفة ان يحضر الاحتفال بالزفاف في معسكرهم فقال « هل وافقك على ان تزف لمياء من معسكرنا ويكون هو حاضراً ؟ »

قال « لم أطلب منه طلباً الا وافقني عليه وقد وافق على هذا وأكثر منه . ولذلك قلت لك انه جاملنا وأحسن وفادتنا . وهذا ما غير رأيي فيه»

فعمد أبو حامد الى المداهنة فقال « بارك الله فيك . . ان المصلحة مشتركة بيننا فاذا كنت قد رأيت ما أراه أنا أيضاً من الخطر في هذا العمل الآن واحببت ان تؤجله فاني اوافقك على تأجيله ـ ولكل اجل كتاب »

فانطلت حيلة ابي حامد على حمدون وصدقه فقال « يعجبني حزمك وتعقلك فأنا أرى التأجيل اقرب الى الحكمة ريثما نتمكن من فرصة أبرك من هذه »

وكان ابو حامد لا يزال واقفاً يتشاغل فى تدبير مكان يجلس عليه . فلما سمع قول حمدون ابتسم واظهر الارتياح وجلس الى جانبه ووضع يده على ركبته وقال « ولكن الا ترى صعوبة في تغيير فكر لمياء ؟ »

قال ان لمياء اكثر رغبة منا في العدول عن قتل الخليفة ولا سيما بعدأن تبرع بان ينوب هو وامرأته عن العريس في تقديم المهر ولا بد ان تكون أم الامراء قد اخبرت لمياء بذلك وهو يزيدها تعلقاً بها . . بالحقيقة ان المعز وامرأته قد بالغا في مجاملتنا واكرامنا .. اظنني لم اخبرك بما عزما على تقديمه من المهر .. »

فقطع ابو حامد كلامه وهو يروغ كالثعلب وقال « أظنهما وعدا بمال كثير وببعض الحلى الثمينة »

فضحك حمدون وقال بلحن الفائز المعجب « المال والحلي ؟ .. ان أم الامراء ستقدم للعروس أحسن ما يرجى تقديمه لمثلها من الاثاث والحلي والثياب وستملأ بيتها من الجواري والخدم وو .. »

فقال ابو حامد وهو يظهر الاستغراب « والخدم أيضاً والجواري ؟ »

فابتدره حمدون وهو يقول « وفوق ذلك ان الخليفة نفسه سيهديها قصراً في المنصورية تقيم فيه مع عريسها .. وسيعدها من أقرب الناس اليه »

فقال ابو حامد وهو يهز رأسه ويرفع حاجبيه استغراباً « ان مثل هذا الرجل لا تقدم النفس على أذيته .. صدقت .. ولكن .. »

فسبقه حمدون الى الكلام قائلا « ولكن لمياء عالقة القلب بسالم واذا تم اقترانها ربما تنغص عيشها .. »

فاظهر ابو حامد التألم من فكر خطر له كأنه ابن ساعته وقال « سالم ! سالم ! دعني من سالم انه لا يليق بلمياء وهي لو علمت بما فعله لكرهته . حتى أنا مع انه بمنزلة ولدي فقد كرهته »

فاستغرب حمدون كلامه وقال « وكيف ذلك ؟ »

قال « أتعلم أين سالم الآن ؟ »

قال « كلا .. أليس هو هنا ؟ »

قال « لا أعلم مقره . ولكن يظهر انه فر من هذا المعسكر . . أظنه خاف مغبة الامر الذي اقدمنا عليه ففضل الفرار »

قال حمدون « لا أظنه يفر وهو رجل باسل »

فقال ابو حامد « لا يليق بي ان اكشف عيبه لكنني لا ينبغي لي أن اكتمك امراً بعد ما علمته من صداقتي واخلاصي وأنا أغار على لمياء واجل مناقبها فلا أغشها . . » وتنحنح كأنه يستنكف من التصريح بذلك الامر الفظيع

فقال حمدون « ماذا جرى ؟ »

قال « أتذكر خروج سالم مساء أمس في أثر لمياء ليرافقها الى المنصورية ؟ »

قال « نعم أذكر أنه أراد أن يرافقها فتقدمت اليه أن لا يفعل »

قال « ليته لم يفعل .. لكنه اصر على الذهاب فعاد بالفشل والعار »

قال « وكيف علمت ذلك ؟ »

قال لانه عاد الي في آخر الليل وقص علي ما لقيه وحاول اخفاء الحقيقة لكنني قرأتها من خلال حديثه »

قال « ماذا عمل ؟ »

قال « ذهب في أثر لمياء فوجدها مع رجل عرف بعد ذلك انه الحسين بن جوهر وكان في انتظارها حتي يسير في خدمتها الى مأمنها . فانكر سالم عليه ذلك وأمرها ان تتركه وتسير معه ففعلت . فلما اشرفوا على المنصورية خرج عليهما الحراس وكادوا يقبضون عليه ويسوقونه الى السجن لو لم يبادر الحسين الى انقاذه . فعاد والفشل يقطر من اردانه . وشفع ذلك الفشل بالكذب فاقتضب الحديث ولم يذكر فشله . ولكن أبا حامد لا تنطلي عليه هذه الالاعيب . فوبخته على جبنه فغضب وخرج من عندي ولعله فر خوفاً من غضبي .. ولو فتشت عنه في المعسكرين لم تقف على خبره . . « قال ذلك بلحن الصدق وهو يظهر الاسف على ما جرى

فصدق حمدون كلامه وقال « لله درك انك تطلع على خفايا القلوب فلا أعجب من اطلاعك على سر سالم . ولكنني لم أعهد فيه شيئاً من ذلك قبلا »

قال « هذا هو الواقع ولعلك لو سألت لمياء عن هذا الامر لصادقت عليه وربما صرحت هي بالعدول عنه لانها شهدت فشله بنفسها »

قال « غداً نبعث اليها ونستطلع رأيها »

قال « حسناً تفعل وأنا واثق أنها توافقك على ما ذكرت . وعند ذلك تتحول مهمتنا الى ما هو اقرب لخير لمياء ونترك امر الانتقام حتى تسنح لنا فرصة اخرى . وقد نرى من الحكمة السكوت عن هذا الامر بالكلية اذا رأينا القوم يعرفون قدرك ولا يبخسونك حقك »

الفصل الثامن والعشرون

رأي لمياء

فارتاح بال حمدون الى هـذا الرأي وهو على ثقة من رضى لمياء وقد عزم على اقناعها به .. فبات تلك الليلة وهو يحلم بما سيكون له من المنزلة الرفيعة بعد تلك المصاهرة ونسي انفة آل مدرار وعز سلطانهم ! والحقيقة انه لم يفطن لذلك العز لو لم يحرضه عليه ابو حامد الداهية . وأما حمدون فقد علمت ضعفه وسرعة تقلبه وانه انما كان يساق الى طلب الانتقام بتحريض صاحبه هذا . فلما رآه قد وافقه على السكوت والرضى بالخضوع فرح وبات تلك الليـلة مطمئناً وعزم على ان يبعث في استقدام لميـاء اليه ليبشرها بذلك الرأي الجديد

وأيقظه الغلام للسحور قبل الفجر . ولم يكد يفرغ من سحوره حتى أتاه الحاجب ينبئه بقدوم رسول من صقالبة القصر فاذن بدخوله فاذا هو لمياء متنكرة فرحب بها وقبلها وقد توسم القلق في عينيها فعلم انها مبكرة اليه بشأن ما كان فيه أمس فابتدرها قائلا « أراك مبكرة يا لمياء »

قالت والدمع يترقرق في عينيها « اني لم أذق مناماً في هذا الليل »

قال « ولماذا ؟ »

قالت « أتسمح لي أن أقول ما في خاطري ؟ »

قال « قولي .. ولـكني أحب ان تسمعي ما أقوله أنا قبلا »

قالت « تفضل »

قال « قد كنت في مثل قلقك أمس ولـكنني اهتـديت الى حل جميل ارتاح له خاطري »

قالت « وما هو ؟ »

قال « هل علمت أني تناولت طعـام الافطار أمس في قصر أمير المؤمنين ؟ »

فلما سمعت قوله « امير المؤمنين » استبشرت وقالت « نعم علمت وقد سمعت ما دار بينك وبين الخليفة والقائد »

قال « هل علمت بما عزم عليه الخليفة من اكرامك بالمهر ؟ »

قالت « سمعت .. امثل هذا الرجل يـ ... »

فقطع كلامها قائلا « دعيني أتم حديثي . . . ان ما لقيته من ذلك الاكرام وما آنسته من سعة صدره وطيب عنصره وحب أم الامراء لك قد أثر في كثيراً »

فابرقت اسرتها وضحكت والدموع تتدحرج على خديهـا من الدهشة وقالت « هل أثر فيك ذلك ؟ . هل يليق ان ؟ . »

قال « اسمعي . . اني وجـدت الامر الذي كنا قد عزمنا عليه خيانة لا تليق بنا »

فلم تمالك عن الاسراع الى يده فتناولتها وأخذت تقبلها ودموع الفرح تتساقط من عينيها وقالت « الحمد لله .. قد فرجت كربتي.. صدقت يا ابتاه ان امير المؤمنين لا يستوجب هذه الخيانة ولو عرفت مقدار حب أم الامراء لي لازددت حرصاً على حياتهمـا . . بالله قل هل عدلت عن عزمك ؟ »

قال « رجعت عن مائدة المعز وأنا احدث نفسي بذلك وكنت أحسب أبا حامد لا يوافقني عليه فوجدته أشد رغبة مني فيه . لانه رأى ما رأيته وأنت تعلمين ذكاء هذا الصديق وتعقله »

فتضاعف استغرابها لانها لم تكن تتوقع هـذا الفرج المزدوج وكانت عازمة على تحريض أبيها ان يوافقها ولو خالف أبا حامد . فلما رأت أباحامد موافقاً له على العدول انبسطت نفسها وتولتها الدهشة لهذه المفاجأة فقالت « وقد وافقك أبو حامد على العدول أيضاً .. ؟ »

قال « وليس ذلك فقط لكنه خلصنا من أمر آخر يتعلق بسالم »

فلما سمعت اسم سالم انقبضت نفسها لتذكرها المشكل الذي لم تجد له

حلا أمس . فقالت « وكيف خلصنا من أمر سالم . أين هو الآن ؟ » قالت ذلك وقد صبغ الحياء وجهها وعلاه قلق واضطراب

فقال « نعم انه انقذنا من مشكل عظيم . وقد سألت عن سالم أين هو .. انه ليس هنا .. وقبل ان أقول شيئاً بشأنه اسألك سؤالا ارجو ان تصدقيني فيه »

قالت « وما هو ؟ »

قال « لما لحق بك سالم في تلك الليلة ما الذي جرى له ؟ »

فتذكرت وصية الحسين بالكتمان وهي تضن بسالم ان يهان فقالت « ماذا جرى له ؟ لم يجر له شيء »

قال « اصدقيني . . اني قد اطلعت على فشله وجبنه فلا تنكري شيئاً »

فاستغربت تصريحه وقالت « من قال ذلك ؟ لم يكن معنا أحد سوى الحسين وهذا لم يقص عليك الخبر »

فقال « ما ادراك أنه لم يقصه علينا ؟ . »

قالت « لانه أمرني بالكتمان »

قال « لماذا أراد كتمان الواقع ان لم يكن في ظهوره عيب على سالم ؟ قولي الصدق »

فلم تطعها نفسها على الانكار فقالت « انه أساء التصرف مع الحسين لانه لم يكن يعرفه .. ولكن من قص عليك الخبر ؟ سالم ؟ »

قال « لا . ان سالماً خجل من قول الصدق ولكن أبا حامد قصه علي أمس وقد استطلعه بفراسته ووبخ سالماً عليه حتى اغضبه وخرج من المعسكر لا ندري الى أين »

فصاحت رغم ارادتها « ويلاه الى أين ذهب ؟ »

فقال حمدون « يظهر انك لا تزالين على حسن ظنك به وعمه نفسه قد رذله واحتقره وكدره وقد قال لى انه ليس اهلا للمياه الشريفة الصادقة ..ان خطيباً يرجع من بين يدي خطيبته بمثل هذا الفشل لا يليق بها

فقالت وصوتها مختنق « ابو حامد قال لك ذلك »

قال « نعم . اذا كنت لا تصدقين فاني ادعوه ليقول ذلك امامك »

فغصت بريقها واطرقت وقد تولتها الحيرة وتحرك قلبها فتذكرت منزلة سالم عندها وهي تجله وتنزهه عن كل عيب فكيف تسمع هذا القول وتسكت فصاحت « كلا .. ان سالماً شهم لا يستحق هذه الاهانة . . ان عمه قد ظلمه » وشرقت بدموعها

فقال « لله أنت يا لمياء . . بل لله من الحب ما أقوى سلطانه . . ان أبا حامد هو الذي رغبنا في سالم ثم هو اليوم يقول أنه جبان لا يليق بك . ومع ذلك فان وصولك اليه لا يكون الا بقتل المعز وقائده فهل نعود الى عزمنا الاول ؟ »

فأجفلت وقالت « لا . لا . ان أمير المؤمنين لا يستحق ذلك »

قال « وهل جوهر يستحقه ؟ »

قالت « لا »

قال « وهل الحسين يستحقه ؟ »

فلما سمعت اسم الحسين شعرت باحساس يشبه ما شعرت به ساعة وداعه تلك الليلة ـ إذ ودعته وقد سحرها بمروءته وسعة صدره فسكتت وتوردت وجنتاها وتسارعت دقات قلبها وغلبت على امرها . فاطرقت والدموع تتساقط من عينيها وأبوها يراعي حركاتها ثم قال « لا بد من قتل الخليفة وقائده أو التخلي عن سالم الجبان .. »

فصاحت وقد تحيرت في امرها « لا هذا ولا ذاك . . لا تقل الجبان ان سالماً ... آه ويلاه كيف اسمع هـذا القول فيه ؟ » وعادت الى البكاء

الفصل التاسع والعشرون

الثعلب

وهي في ذلك سمعت وقع خطوات مسرعة خارج الخيمة فالتفتت فاذا

بأبي حامد قد دخل وهو متزمل بعباءته وعلى رأسه عمامة صغيرة قد لاكها حول رأسه على غير نظام كأنه ناهض من الفراش

فحالما دخل لم تستطع لمياء عند رؤيته غير النهوض احتراماً فاسرع اليها واقعدها وهو يقول « لا تذكري سالما بفيك . انه ابن اخي بل هو بمنزلة ابني ولكنني أنكرته منذ أمس وهو غير اهل لك وانت اعلم الناس بالسبب .. ومع ذلك فهو ليس هنا . ومن كان مثل لمياء التي جمعت شجاعة الرجال الى لطف النساء وقد عرفناها صادقة اللهجة مخلصة الطوية يجب ان تتغلب على قلبها وتعمل بعقلها وكفى .. « قال ذلك وقعد بجانب حمدون

فقالت وهي تغص بريقها « مهما يكن من الامر اني لا أطيق ان اسمع مثل هذا القول في سالم . . دعونا منه »

فقال أبوها « وهذا ما ادعوك اليه الآن .. » واظهر الاهتمام وتطاول نحوها كأنه يريد ان يهمس في اذنها وقال « هذا اخي ابى حامد قد رأى مثل رأيي في هذا الامر وقد وجد الاقرار الذي سبقنا اليه لا يليق تنفيذه فعزمت على ان استقدمك لاقص عليك ما جرى وكنت اعتقد انك تتلقينه مسرورة فاذا أنت تجادليننا في سالم فاذا لم يعجبك رأينا الجديد عدنا الى القديم »

فخافت ان يغضب أبوها فيرجع الى سوء رأيه فقالت « قد رضيت لكنني أتقدم اليكم ان لا تذكروا سالماً بسوء .. لنرى ما يأتي به القدر »

فقال ابو حامد « نسكت عن سالم ولكننا فرحون بما اجتمع عليه رأينا وسنحتفل بقرانك في هذه الساحة احتفالا لم يسمع بمثله ونزفك الى الحسين بن جوهر بحضور الخليفة واذا كان سالم اهلا لك فليأت ويأخذك بنفسه . . . وقد عهدنا المحبين يتفانون في هذا السبيل ولا يفعلون ما فعله سالم من الفرار الذي تعلمينه .. دعينا منه . لا احب ان اعود الى ذكره اكراماً لك »

فسكتت وهي ترى الصواب في العدول عن سالم بعد ما رأته من تصرفه فضلا عن البواعث القاهرة التي الجأتها الى القبول بغيره لكن قلبها

لم يطاوعها على الارتياح لذلك الاقتراح فجعلت قبولها مشفوعاً بانتظار ما يأتي به الغد او ما تدبره الاقدار

انفضت تلك الجلسة على هذه الصورة فرجعت لمياء الى المنصورية تنتظر امر والدها في القدوم عليه قبيل الزفاف ومكث حمدون وقد اطمأن خاطره ووطن نفسه على الاكتفاء بالقرب من المعز لدين الله ولو موقتاً وقد شفع قبوله ايضاً بانتظار ما يأتي به الغد

الفصل الثلاثون

ابو حامد

أما ابو حامد فخرج من تلك الجلسة وقد ضاقت نفسه من حبس ارادته واتعبته المراوغة وتكلف الظهور بعكس ما يضمره . فما صدق أنه عاد الى فسطاطه وخلا بنفسه حتى تنفس الصعداء وقد هاجت ضغائنه وغلت مراجل صدره واصبح يزمجر كالشبل الجريح . وأمر حارسه ان لا يدخل عليه أحداً وجعل يخطر في الفسطاط ذهاباً وإياباً وهو مطرق يعمل فكرته ويستحث قريحته في تدبير حيلة ينال بها غايته.وقد عظم عليه عدول حمدون عن قتل المعز . ولم يكن اسهل عليه من ان يقنعه بما له من السلطة على افكاره لكنه خاف رجوعه مرة اخرى على غرة وربما باح بسره فيعود ذلك وبالا عليه . فاظهر ارتياحه الى رجوعه واضمر ان ينفذ غرضه بنفسه فيقتل المعز وقائده وقد يقتل حمدون وابنته وزوجها . فانه لا يبالي من يقتل أو لماذا يقتل في سبيل غرضه

قضى مدة في هذا التفكير وهو يخطر ذهاباً واياباً ثم جعل يناجي نفسه قائلا « أنا ابو حامد حامل سيف النقمة .. اطمأن بال هذا الامير المغرور وسكن خاطره واعتقد اني اطعته في العدول عن قتل ذلك الطاغية كما اعتقد أولا اني اسعى في هذا القتل اكراماً لخاطره لاعيده الى سرير ملكه في

سجلماسة وصدق انه من آل مدرار اصحاب تلك المملكة العظيمة . وهو يعلم انه دعي في نسبهم لانهم انقرضوا منذ اعوام . ولكنه حسبني اقول ما اعتقد فوافقه قولى ورضي بذلك النسب وبنى عليه حقه في امارة سجلماسة ووافقني أيضاً على الفتك بالمعز وقائده وأنا أعلم ضعفه وتردده وطالما خفت رجوعه . فاحمد الله لرجوعه الآن قبل ان ادبر طريقة الفتك واطلعه عليها فاذا انقلب بعد ذلك اخاف ان يبوح بها لصديقه ومولاه المعز فيذهب سعي عبثاً . . أما الآن فاني اكتم تدبيري عن كل انسان وسأجعله قاضياً عليهم اجمعين .. أبا عبد الله ! اني ثائر لك . ثم هادئاً ان دماء اعدائك سأجريها في قناة حتى تدرك قبرك فترتوى انت منها كما ارتوي أنا هنا.. في فج الاخيار مستودع القوة فاذا فرغت من قتل هؤلاء الاعداء عدت الى اتمام مهمتي . أنا أبو حامد ويل لهم من نقمتي »

وكان يناجي نفسه وهو يمشي ثم يقف ثم يمشي كالحيران ويعبث تارة بشاربيه وطوراً بلحيته أو يقضم اظافره بين اسنانه حتى كاد يدمي أنامله من عظم ما هاج في خاطره . ولو نظر الى وجهه في المرآة لرأى سحنته مرعبة إذ احمرت عيناه وانتفش شعره لكثرة عبثه به وقد افسد نظام عمامته ولحيته وشاربيه كأنه خارج من عراك طويل

ثم تمالك واخذ يصلح من شأنه ويتظاهر بالسكون وهدوء البال .وأمر غلامه ان يسرج له الجواد

ركب ابو حامد والغلام ماش في ركابه والشمس في الضحى . وقد تعود الركوب للرياضة فلم يستغشه أحد . ولما صار خارج المعسكر امر الغلام بالرجوع وقد عوده الكتمان فلا حاجة به الى التنبيه عليه ان يكتم امر سيده وجهة مسيره

أما هو فانه ساق جواده وأوغل في الصحراء وقد حميت الشمس وانعكست اشعتها على الرمال فظهرت لامعة تتوهج . وارسل نظره الى الافق ليتطلع الى الجبل الذي يقصده فوجد السراب قد حجبه . ورغم ما تعوده من مشاهدة السراب في البادية في مثل تلك الساعة فقد خدع به . فكان

يتوقع ان يرى في اقصى ما يقع عليه بصره من الافق جبلا مخروطي الشكل مميزاً عما يحف به من الجبال . فأوهمه السراب ان هناك بحيرة تتراءى في مائها صور اشجار تظهر مقلوبة وخيل له انه يرى قوارب سابحة على سطح البحيرة

شغله ذلك المنظر برهة وان لم يصدقه وكلما اقترب من المكان انجلى له حتى وصل الى الجبل واكثره اجرد وفيه كثير من الكهوف والشقوق على شكل يندر بين الجبال

فساق جواده في منعطف صاعد يصعب سلوكه لضيقه حتى دار من وراء الجبل وهو لا يسمع غير وقع حوافر جواده أو صهيله . واذا أطل أشرف على سهل رملي ليس فيه شيء من العمارة

وكان وهو سائق يتلفت الى الوراء حذراً من ان يكون أحد في اثره حتى اقترب من مغارة عظيمة لها باب كبير منقور في ذلك الجبل فتنحنح نحنحة خاصة فسمع مثلها في قاع المغارة فساق فرسه حتى وقف في الداخل . فسمع منادياً يقول والصدى يردد قوله « ادخل يا مسعود »

الفصل الحادى والثلاثون

التدبير

فترجل ودخل وهو يقود الفرس بزمامه وراءه . وكأن الفرس أحس برطوبة المكان فتوالى عليه العطاس ودوى صوت عطاسه دوياً يزيده اجفالا واستغراباً

وبعد مسير بضع دقائق انتهى الى بقعة منيرة فيها ما تقشعر له الابدان من اشكال الحيوانات المتضادة في طبائعها مما لا يخطر ببال كالثعابين والسحالى وأنواع الضب والطير والحمام بين سارح ومنساب ووائب . وبينها حية مهولة قد التفت على جزع شجرة منصوب لها هناك ورأسها

يتلوى ذات اليمين وذات اليسار . واخرى تنساب بين الاحجار الملقاة على الارض . ولو لم يكن قد تعود المجيء الى ذلك المكان ومشاهدة تلك المناظر واعتقاده ان تلك الدبابات لاتؤذيه لأنها مسحورة لاجفل وخاف . أما الفرس مع انه كان يصطحبه كل مرة فلم يألف ذلك المنظر المريع فاضطرب وضرب الارض بحافره وصهل وتراجع وابو حامد ممسك بزمامه ينتظر ان يأتي من يتناوله منه . واذا بعبد عظيم الجثة برز من بعض اطراف تلك البقعة وألقى التحية فرد عليه ابو حامد . فتقدم العبد وقبل يده وتناول زمام الفرس ومشى به الى مكان يربطه فيه

ثم مشى أبو حامد في طريق تجنب فيه العثور بشيء من تلك الحيوانات حتى دخل دهليزاً منقوراً بالصخر ـ ولو زار ذلك المكان أحد علماء الآثار اليوم لتحقق ان تلك المغارة من بقايا الابنية القديمة في العصور الغابرة لانها منقورة في الصخر وربما كانت في الاصل قبوراً أو هياكل وتنوسي خبرها . حتى اصبحت مسكناً لكاهنة ساحرة لا يصطلى لها بنار . وكان ابو حامد قد عرفها منذ اعوام واستعان بها في كثير من شؤونه . وهي من خلفاء كهان البربر قبل الاسلام اتصلت اليها هذه الصناعة من اجدادها وهي تخاف الظهور فاستترت هناك ولا يصلها إلا القاصد

ولم يمش ابو حامد قليلا حتى دخل حجرة منقورة في الصخر أيضاً وفي صدرها دكة من الحجر قد تربعت عليها عجوز شمطاء بلباس غريب الشكل فيه من كل لون قطعة . شعرها ناصع البياض وقد انتفش واشتبك فاصبح منظرها مخيفاً . وهي في الاصل سمراء اللون ولكن الشيخوخة جعلت لونها أقرب الى السواد وتجعد جلدها وغارت عيناها وتدلى حاجباها الغليظان نحو الامام فاصبحت عيناها كالمصباح يتراءى من وراء نافذة مظلمة . تحتها أنف غليظ قصير فيه حلقة من العاج ادخلت في انفها كالخزام منذ صباها على يد ساحرة كان لاهلها ثقة في علمها واعتقدوا ان وجود ذلك الخزام من اكبر اسباب مهارتها . وناهيك بما في اذنيها من الاقراط وفي عنقها من العقود وحول زندها من الاساور وفيها الذهب والفضة والعاج . وقد جلست

على جلد دب والقت على كتفيهـا جلد نمر وفي حجرها ثعبان غليظ قصير تتلاهى بملاعبته

فلما أطل أبو حامد عليهـا رحبت به بصوت جهوري وقالت « اهلا بولدي مسعود.. قد أطلت الغياب علي .. أين كنت ؟ » وأشارت اليه بعصا طويلة كانت بجانبها ان يقعد على دكة بين يديها فقعد وهو يقول « كنت في عملي الذي تعلمينه »

فقالت « قد آن لك الظفر يا مسعود .. » وهو الاسم الذي تعرفه به فارقت اسرته لانه كان يعتقد صدق فراستها واقتدارها على كشف المخبآت حتى جعلها مستودع اسراره من أيام أبي عبـد الله الشيعي . وكانا يأتيانها احياناً ولهـا دخل في جمع كلمة قبائل البربر الذين نصروا أبا عبد الله في تأييد دولة العبيديين . فكان أبو حامد لذلك عظيم الثقة بهـا لا يأتي عملا هاماً إلا شاورها فيه . فتنصحه وهو لايزداد إلا ثقة بها . وقد جاءها في ذلك اليوم لامر لا يخفى على القارىء . ولا هو يخفى على تلك الـكاهنة الشمطاء لانها كانت مشرفة على اخباره ـ ليس مما ينقله هو اليها ولـكن لها جواسيس مبثوثين في البلاد لمثل هذه الغاية . فلما قالت له ذلك استبشر واعتقد صدق قولها . لانها كانت متسلطة على افكاره مثل تسلطه على افكار الآخرين فقال لها « هل علمت ذلك يا خالة أم تسأليني ؟ »

فنظرت اليه شزراً وقالت « ومتى كنت استشيرك يا جاهل ، »

فضحك وجعل يعتذر لهـا عن جسارته . وكانت وقاحتها هـذه من اسباب تمكين هيبتها فيه . فمد يده إلى جيبه واستخرج صرة فيها نقود دفعها اليها وهو يقول « بارك الله فيك .. صدقت قد دنا الفرج ... اقبلي هـذه الدراهم طعاماً لاولادك هؤلاء » وأشار الى الثعبان الذي في حجرها وهو يظهر المزاح

فمدت يدها وتناولت الصرة وهي تهز رأسها هز الاعجاب وتقول « لا تقل دنا الوقت بل قل أتى .. لم يبق إلا خطوة صغيرة »

قال « نعم يا سيدتي انها خطوة ولـكنني أراها شاقة .. »

قالت « أين صرت الآن ! »

قال « سأجمع الرجلين في مكان واحد وانما احتاج الى رأيك في كيفية القتل .. بالخنجر أم بالسم ، »

فضحكت ضحكة دوى لها المكان وكشرت في اثناء القهقهة فبانت نواجذها وأصبح فمها كالمغارة المظلمة . ثم اطبقت فاها فجأة وأطرقت وقد تغيرت سحنتها وأبرقت عيناها ومدت يدها الى علبة صغيرة بجانبها تناولت منها مسحوقاً وضعت بعضه في فيها وجعلت تتلاهى بامتصاصه ومضغه .ثم رفعت بصرها الى أبي حامد وكانت الصرة لا تزال بيدها فرمتها اليه وقالت « لا حاجة الى أولادي بدراهمك »

فادرك أنها استقلت المبلغ فاستخرج صرتين أخريين ودفع الكل لها وهم بتقبيل يدها تزلفاً واسترضاء وهي تتجنى وتترفع . لكنها تناولت النقود وقالت « ان طلبك لا يقدر بالمال وأنا اعينك فيه اكراماً لذلك المقتول ظلماً .. انظر .. سأعطيك مسحوقاً الذرة الصغيرة منه تقتل فيلا كبيراً .. واذا لم تصدق جرب .. » وضحكت وليس ضحكها الا عبارة عن تكشير شفتيها بدون ان يرافق ذلك ملامح الضاحكين . ثم أمرت الثعبان الذي في حجرها ان ينصرف فانساب الى وكره

فنهضت وهي تتوكأ على عكازها الغليظ وأشارت الى أبي حامد ان يمكث في مكانه ريثما تعود . فمكث على مثل الجمر وهو يتبع الساحرة ببصره وقلبه يختلج خوفاً من أن يثب عليه الثعبان وهو يعتقد ان الموت في نابيه رغم اعتقاده انه مسحور . وفاته أن تلك الثعابين قد اقلعت أنيابها السامة . ولولا ذلك لقتلت صاحبتها لانها لا ترعى ذماماً . فاستبطأ الساحرة فقال في سره « ألا يخشى ان تخونني هذه الملعونة اذا اغراها سواي بمال كثير ؟ فيجب ان اقتلها قبل خروجي من هنا » ولكنه يعلم ان لها اعواناً ربما كانوا مختبئين هناك فعدل عن القتل وعزم على اطماعها بالمال الكثير خوفاً من غدرها

وبعد قليـل عادت وفي يدها حق من الابنوس فتحته وارته فيـه مسحوقاً ابيض وقالت « احـذر ان تمسه بيدك لان ما يعلق منه بطرف اصبعك كاف لازهاق الروح » ثم اقفلت الحق ودفعته اليه

فتناوله وقبل يدها وقال « لا تظني اني انسي فضلك فاني معد لك هدية ثمينة سأدفعها اليك بعد الفراغ من هذا العمل »

قالت « لا حاجة بي الى هدية .. خذ هذا الحق وامض الى سبيلك »

فتناوله وخبأه في جيبه وودعها وخرج . فرأى العبـد في انتظاره فركب الجواد وعاد الى فسطاطه وهو يمني نفسه بالفوز

الفصل الثانى والثلاثون

الاستعداد

أما حمدون فقضى ذلك اليوم في فسطاطه وذهب في الغروب لتناول الافطار على مائدة المعز كامس وقد أخلص النيـة في مصادقته . وهكذا كان يفعل كل يوم من أيام رمضان ولمياء في قصر المعز معززة مكرمة وأم الامراء تواليها بالاكرام والايناس

وقبل انقضاء رمضان ببضعة أيام أرتها القصر الذي ستعيش فيه بعـد الزفاف وقد ملأته لها بالرياش والاثاث والتحف والجواري والغلمان . غير ما اهدتها اياه من المجوهرات والثياب الثمينة

ولما دنا عيد الفطر أخذ حمدون يهيء معدات الاحتفال في معسكره وهو لا يعمل إلا بمشورة أبي حامد فاشار عليه هذا ان ينصب السرادقات على مرتفع بين يدي المعسكر . فنصبها على اكمات مشرفة على ساحة كبيرة ليلعب فيها الفرسان على الخيول . وفي مقدمة السرادقات سرادق كبير نصب فيه المقاعد للمعز وقائده ومن يختار ان يكون معه من خاصته . وسرادق للمطابخ تقام فيه الموائد وبينها مائدة خاصة بالخليفة وقائده وابنه وحمدون . واختص خدمتها بغلام صقلي من غلمانه الخصوصيين أصله من صقالبة قصور

قرطبة . وكان ابو حامد قد عاهده سراً على امور تطمح انظاره اليها وحمدون لا يعلم . وزعم انه اختاره لهذه المائدة لمهارته في خدمة الموائد لانه تعود ذلك في قصور المروانيين في قرطبة وقد اتقن معالجة الاطعمة . وكان هذا الصقلي قداستسلم لابي حامد وأصبح يتفانى في تنفيذ اغراضه ولا يبالى بعواقبها

وكان لابي حامد سلطة خصوصية عليه من قبيل ما يعرف اليوم بالتنويم المغنطيسي ولم يكن يعرف يومئذ بهذا الاسم . ولكن أبا حامد كان اذا أحب أن يستهوي هذا الغلام اختلى به وسقاه شراباً مخدراً ينعشه ويضعف ارادته ثم يأمره بما يريد فيصبح أطوع له من بنانه . وهو ينسب ذلك التأثير الى فعل الشراب والحقيقة انه يستهويه بقوته المغنطيسية فاذا أمره بعمل وعين له وقته لا بد من تنفيذه

فلما عزم أبو حامد على ما نحن فيه استهواه قبل يوم الاحتفال ودفع اليه الحق وأمره ان يضع منه شيئاً في الاقداح التي يسكبها للخليفة وقائده وحمدون والحسين بن جوهر

ونظر أبو حامد في ما يعمله إذا نفذت حيلته فارسل خاصته الى مكان بعيد عن المعسكر من جهة الطريق المؤدي إلى مصر أعد فيه ما يحتاج اليه من وسائل النقل حتى اذا نجحت مكيدته فر إلى مصر يلاقي فيها سالماً ويتممان مهمتهما بمساعدة صاحبها بفتح القيروان وادخالها في حوزة الخليفة العباسي . ويكون ذلك سهلا عليه بعد قتل الخليفة العبيدي وقائده . لكنه ظل خائفاً من لمياء لئلا تكون مطلعة على بعض سره من حيث مخابئه ومعداته فاعد لهلاكها وسيلة أخرى

الفصل الثالث والثلاثون

موكب الخليفة والسباق

دبر أبو حامد ذلك كله خلسة ولم يشعر به أحد وظل مشتغلا من جهة أخرى باعداد مهمات الاحتفال . وقبل يوم الفطر ببضعة أيام نقلت لمياء

الى فسطاط أبيها على أن تزف من هناك الى الحسين في المنصورية على العادة الجارية عندهم . وفي صباح يوم الفطر كان معسكر حمدون غاصاً بالسرادقات والاعلام . وبعد الظهر خرج الخليفة بموكبه من قصره في المنصورية وعليه لباس العيد تحف به حاشيته من الامراء والصقالبة . وقد امتطى فرساً من جياد الخيل ومشى بين يديه الامراء والقواد الا قائده جوهر فانه امره أن يسير راكباً بجانبه

فلما أطل موكب الخليفة على ذلك المعسكر خرج حمدون لاستقباله بالاحترام ومشى بين يدي الجواد حتى وقف أمام السرادق المعد لجلوسه . فترجل الخليفة وقائده وأومأ الى الحسين بن جوهر ان يصعد معهما الى دكة في صدر السرادق مفروشة بالبسط والوسائد . وقد أوقدت مباخر الند والعود في جوانب السرادق وغرست الاعلام ببابه

فجلس المعز في الصدر وأمر قائده ان يجلس الى جانبه والحسين بين يديه . وكان الحسين أكثرهم فرحاً وقلبه يطفح سروراً لما اتفق له من الحفاوة في عرسه مما لم يتيسر لسواه . كيف لا وقد خرج الخليفة المعز لدين الله من قصوره الى تلك الساحة اكراماً له ولم يبق في الامراء والقواد الا من حسده على هذه النعمة . وتقدم حمدون للترحاب بالخليفة عند جلوسه واكب على يده كأنه يهم بتقبيلها اعترافاً بما خوله من الالتفات بتلك الزيارة وقد اخلص النية في طاعته . ثم سأل الخليفة عمن يريد أن يجالسه في سرادقه من الشعراء فاكتفى بابن هاني (متنبي الغرب) وكان حمدون قد اعد له ولامثاله مقاعد في جوانب السرادق

جلس المعز ووراء مقعده صقلبيان يحملان المذاب من ريش النعام كالمظلة فوق رأسه. وهو ينظر الى ما يشرف عليه من السرادقات الاخرى . التي أعدت لجلوس خواصه ورجال حاشيته . واختص بعض امرائه بالجلوس معه في سرادقه . وامام ذلك السرادق ساحة فسيحة قد سويت ارضها وفرشت بالرمال للعب الخيل

ووقف حمدون بين يدي المعز وجعل يقدم له امراء سجلماسة واحداً

واحداً ويسميهم باسمائهم وفي جملتهم أبو حامد واختصه عند التعريف بعبارات الاعجاب به وأعرب عن اخلاصه للخليفة . فامر المعز ان يكون من جملة الجلوس في ذلك السرادق . ولم يقصر ابو حامد في تأكيد ولائه وولاء سائر امراء البربر لابناء فاطمة الزهراء . وبالغ في الاطراء وهو كما علمت فصيح اللهجة قوي الحجة رغم ما في سحنته من الغرابة . فاعجب المعز به وتوجه نحوه وأبدى ارتياحه الى مجالسته

فلما استقر الجلوس بالقوم تصدى ابو حامد للترحيب بالخليفة بالنيابة عن صديقه حمدون فقال « ان صديقي أمير سجلماسة يحق له ان يفاخر سائر الامراء بما أوتيه من تنازلكم لوطء بساطه . بل يحق له ان يفاخر الناس كافة وقد وطىء بساطه ابن بنت الرسول (صلعم) ولعل صديقي حمدون لفرط امتنانه لا يقوى على تأدية حق الشكر »

فاعجب المعز بحديث ابي حامد وقطع كلامه على سبيل التواضع وقال « اننا نقدر الرجال اقدارهم ونحن نعلم فضل صاحب سجلماسة . ومن أخلص الصحبة لنا جعلناه واحداً منا وان مصاهرته لقائدنا الباسل جعلت له منزلة خاصة من نفسنا »

فتقدم حمدون عند ذلك وقال نحو ما قاله ابو حامد من عبارات الشكر واكد للخليفة انه مخلص في خدمته واستأنف الحديث قائلا « الا يأمر أمير المؤمنين بشيء يسر بمشاهدته من الالعاب »

فاحب المعز ان يزيده استئناساً به فأجابه باللغة البربرية لانه كان يحسنها وقال « كثيراً ما سمعت بمهارة فرسان سجلماسة بركوب الخيل فهل يتيسر لنا ان نراهم يتسابقون ؟ » وتبسم

ففرح حمدون بذلك الانعطاف واسرع وهو يشير بيديه فوق رأسه اشارة الطاعة . والتفت نحو الوقوف بباب السرادق من الرجال وأومأ باصبعه الى واحد منهم فهرع . ولم يمض قليل حتى غصت تلك الساحة بالخيول عليها الفرسان بالالبسة الفاخرة على زي أهل سجلماسة . واكثرهم باللثام على رؤوسهم يغطي معظم الوجه . وعلى اكتافهم البرانس الواسعة نحو

ما يلبسه أهل تلك البلاد الى اليوم . وعلى خيولهم السروج المختلفة وفيها القرابيز الفضة المذهبة أو المنزلة بالعاج . وبينها خيول عارية لا سرج عليها وإنما يزينها جمالها الطبيعي . على ان العارفين بطبائع الخيل لا يلتفتون الى ما على الافراس من الكساء وإنما ينظرون إلى صدورها واعناقها واكتافها ويتفرسون في عيونها . وكان المعز من أكثر الناس معرفة بالخيل فأخذ يتأمل تلك الافراس ويجيل نظره فيها كما يفعل العارف الخبير

وقف الفرسان صفاً واحداً عند السرادق وخيولهم لا تستقر في مواقفها ريثما أدوا واجب الاحترام . ثم اشار حمدون اليهم فأخذوا في اللعب على ظهورها العاباً مدهشة تشغل الخاطر لغرابتها . وفيها ما يبعث على الاعجاب الكثير . لان بعض الفرسان كان يسوق فرسه حتى لا تكاد حوافره تطأ الارض ويعمد وهو في تلك السرعة فيدور حوله حتى يلتصق ببطنه ثم يعود الى ظهره ورأى غيره يركب فرساً ويسوق آخر الى جانبه وينتقل من ظهر الواحد الى ظهر الآخر والفرسان في اشد السرعة وغير ذلك . فلم يتمالك المعز عن اطراء تلك المهارة ووجه خطابه الى ابي حامد وقال « بالحقيقة ان اهل سجلماسة من امهر قبائل البربر في الفروسية حتى نساءهم فقد بلغني ان فيهن ماهرات يسابقن الرجال »

فتصدى القائد جوهر للجواب وقال « نعم يامولاي اني رأيت ذلك منهن رأي العين في بلادهن » والتفت الى ابنه الحسين وابتسم ابتسامة فهم الجميع مراده منها ـ وهو يعني لمياء على الخصوص . فقال ابو حامد « اظنك تعني لمياء وهز رأسه هز الاعجاب فالتفت المعز وقال « عرفنا لمياء عاقلة حكيمة وسمعنا ببسالتها في ساحة الوغى . . فهل تحسن ركوب الخيل ايضاً ؟ »

الفصل الرابع والثلاثون

لمياء بين المواشط

وكان حمدون واقفاً يسمع ذلك الاطراء بابنته فلم يخطر له ان يعرض

على الخليفة رؤيتها على الجواد . لكن ابا حامد غمزه ان يفعل فقال « هل يريد مولانا ان تخرج لمياء على فرسها ؟ »

فقال المعز وهو يحك عثنونه « لا نريد ان نزعجها اليوم لانها في ما هو أهم من ذلك » وضحك

فتصدى أبو حامد للجواب وقال « انها لم تركب الخيل من زمان بعيد واذا ركبت اليوم فلعلها آخر مرة يتأتى لها ذلك ومتى صارت في بيت القائد ربما لا يعود يتيسر لها »

فأشار المعز بالقبول وقال « طبعاً نحن نحب ان نراها ولكن لا نعلم اذا كان الحسين يوافقنا ... » والتفت الى الحسين وابتسم فعد الحسين التفاته نعمة اخرى فاطرق خجلا

فوقف جوهر بالنيابة عن ابنه وقال « أنها أمة مولانا أمير المؤمنين وسيكون لها الحظ كما يكون لنا في سبيل طاعة امير المؤمنين »

فاسرع حمدون الى فسطاطه ليخاطب لمياء بما جرى وهو يعلم ان خروجها في تلك الساعة من اصعب الامور لانها ساعة التبرج والتزيين . وتصور انه سيجدها بين ايدي المواشط والحواضن يزينها ويصلحن من شأنها — ولكن خاب ظنه

لان لمياء لما تحققت اتمام الاقتران وآن الزفاف هاجت عواطفها الكامنة وعادت اليها ذكرى سالم حبيبها الاول . ورغم ما ظهر من ضعفه وتردده فانها ما زالت تحبه وتتفانى في مرضاته . وانما كان قبولها بالحسين موقتاً تنتظر ما يأتي به الغد في أثناء شهر رمضان . فلما جاء عيد الفطر ولم يجد شيء وانتقلت الى بيت أبيها لتزف الى الحسين اظلمت الدنيا في عينيها وتحققت انها لا تلبث ان تصير زوجة لرجل وان كانت تحبه وتعجب بمناقبه لكنها لا تزال ترى سالماً أولى بقلبها منه . واعتقدت ان قبولها بالحسين يعد في شرع المحبين خيانة . فوقعت في حيرة وظهرت الحيرة فيها على الخصوص في صباح ذلك اليوم لما أتت المواشط لتزيينها واصلاحها . فاستمهلتهن وانزوت في فسطاط أبيها تعمل فكرتها

فلما جاء أبوها ليخاطبها بشأن الركوب اخبروه بما فعلت فذهب اليها فوجدها قاعدة على وسادة وحدها وقد اطرقت وبانت الحيرة في عينيها فقال « ما بالك يا لمياء لماذا أنت هنا ؟ »

فارادت الجواب فسبقتها الدموع فسكتت

فدنا منها وأمسك بيدها فأحس ببرودتها وارتعاشها وقد بالغت في الاطراق فلحظ الدمع في عينيهافاستغرب به . وهو لا يقدر ان يتصور عواطف المحبين لانه لم يذق طعم الحب فقال لها « ما هـذا الجنون . . ما بالك ؟ . لماذا تبكين ؟ »

فافلتت منه وقالت وصوتها مختنق «ابكي على سوء حظي .. يالتعاستي ! »

فقال « وأي تعاسة ؟. هل في الدنيا فتاة اسعد حالامنك ؟ ستزفين بعد ساعات قليلة الى أنبل الشبان . وهذا أمير المؤمنين قد جاء بنفسه ليكون زفافك على يده . ان الوفاً من الاميرات يحسدنك على هـذا الحظ وانت تشكين من سوئه ؟ »

فقالت « اني سيئة الحظ .. دعني الآن . . »

قال « كيف اتركك وأنا قادم اليك بمهمة من المعز لدين الله . . بلغه انك ماهرة في ركوب الخيل فطلب ان يراك على الجواد »

فلما سمعت قوله شعرت بارتياح لان خروجها على الفرس ينجيها من مضايقة المواشط . وكانت اذا ركبت الفرس اعتزت على صهوته ونسيت كل مصائبها . وهي مع ذلك تحترم ارادة الخليفة . لـكنها لم تجد في نفسها ميلا الى الخروج في تلك الساعة وهي غارقة في القلق والاضطراب فقالت كيف يخرج مثلي الى ساحة السباق ؟ ان هذا لم يسمع به »

قال « صحيح لـكن امر الخليفة لا يمكن رده . وقد وافق عليه القائد جوهر وابنه الحسين »

فلما سمعت اسم الحسين عادت الي هواجسها وندمت لانها لم تقطع في هذه المسألة من أول الامر – من يوم خاطبوها بهذا الشأن .. كان ينبغي أن

ترفض أو تقبل أو تهرب أو . . ولا ترضخ لذلك التردد شهراً كاملا حتى اذا أزفت الساعة ضاقت بها الحيلة ..

فلما طال سكوتها ظنها آسفة لخروجها من بيت أبيها ودخولها بيت رجل غريب كما يصيب أغلب البنات في مثل هذه الحال . فامسكها بيدها وانهضها وهو يقول لها « اركبي جوادك وانزعي الاوهام عنك .. انك ذاهبة الى بيت اعظم من بيت ابيك وستزفين الى شاب هو اعظم شبان هذه الديار .. قومي . . هيا بنا . . ان الخليفة في انتظارنا »

الفصل الخامس والثلاثون

لمياء على الجواد

فوقفت ورأت خروجها على الجواد خيراً من بقائها هناك وخطرلها انه قد يرميها فتقتل وتنجو من ذلك التردد . فاطاعته ولبست ثوباً يليق بالركوب ولفت رأسها باللثام تعودت ان تلتف به اذا ركبت . وأتوها بفرس من احسن الافراس فركبت وساقته الى الساحة امام السرادق والجواد يقطر عرقاً . فتقدم اليه بعض الغلمان الواقفين هنا لتلبية الفرسان بما يحتاجون اليه من التقاط حربة سقطت أو ابدال رمح كسر . وفيهم من يمسح عرق الخيل أو يغسل وجوهها تنشيطاً لها . فتقدم أحدهم وبيده وعاء فيه ماء واسفنجة بلها بالماء ومسح وجه الجواد وأخذ بتنشيفه ولمياء على ظهره كالجبل الراسخ

ولم يكد الغلام يفرغ من عمله والخليفة يتوقع ان تبقى لمياء واقفة تنتظر امره . فرآها اشارت اليهم اشارة الوداع كأنها راجعة الى خدرها . واذا بالجواد قد عدا بها عدواً سريعاً عن غير ارادتها كأنك وخزته بحربة في جنبه . ولم تشأ أن توقفه لئلا يظهر ذلك مظهر الخوف منها فاطلقت له العنان على ان توقفه هناك وهي بعيدة عن سرادق الخليفة . فظنها أهل السرادق انها فعلت ذلك عمداً على ان تعود رأساً الى فسطاطها . أما هي فارادت ان

توقف الفرس فلم تره يزداد إلا عدواً على غير هدى كأنه أصيب بجنة . وعبثاً حاولت كبح جماحه . ثم رأته يوغل بها في الشعب والجبال وهو يشخر ويصهل ويهز رأسه . وأرادت ان تحوله نحو المعسكر فلم يطعها . وبعد قليل التفتت الى ورائها فرأت انها صارت على مسافة بعيدة من المعسكر وقد توارى عنها المعسكر والمنصورية جميعاً والجواد سائر فيها شرقاً جنوبياً

مرت بها دقائق رهيبة خطر لها في اثنائها خواطر عديدة . وفي جملتها ان جموح ذلك الجواد قاتلها لكنه قد ينقذها من ترددها ووخز ضميرها وكانت الشمس قد مالت الى المغيب وأخذت الظلال تستطيل ولمياء توغل في الوعر وتبعد عن العمران

فثبتت نفسها على الجواد كأنها قطعة منه وهي لا تخاف الوقوع عنه لكنها تحققت أنه اصيب بشيء كالجنون أوأنه اهيج بوخز أوعقار مهيج . لانه لم يكن يعدو في طريق معروف بل كان تارة يهبط وادياً وطوراً يصعد جبلا والحجارة تتطاير من بين حوافره . ولم يقع بصرها على أحد تستنجده أو تستأنس به . فعزمت على التحول عن الجواد وهو راكض ـ ولا يعجزها ذلك لتعودها مثله ولكنها لم تكن تجد ارضاً رملية أو ترابية تثب اليها

وهي تفكر في ذلك اصطدم الجواد بصخر فانتثرت هي عن ظهره بقوة الاستمرار وقذفت الى مسافة بضعة اذرع . فوقعت في حفرة هناك قليلة العمق فغابت عن رشدها

ولم تنتبه الا وقد اظلمت الدنيا وظهرت النجوم فارادت النهوض فأحست بألم في جنبها فلم تجد فيه كسراً وإنما هي رضوض .ثم أحست بشيء يسيل على عنقها فتلمسته فاذا هو دم بارد . فعرفت أنها أصيبت بجروح فتجلدت وتماسكت. ثم توكأت على ما بين يديها ونهضت وهي تستند الى جدار الحفرة . والتفتت الى ما حولها فرأت انها في بلقع . ولم تقو على الوقوف فسقطت . فاخذت تفكر بما حل بها وصبرت نفسها ريثما تستريح وجعلت تجس اعضاءها لتتحقق نجاتها من كسر أو صدع فوجدت انها سليمة

ليس فيها شيء غير الرضوض . وشغلها اضطرابها عن خوف الحشرات المؤذية وهي كثيرة هناك

وأخذت تناجي نفسها قائلة « ألم يكن من الحكمة ان أصاب بكسر في عنقي بهذه الصدمة فأموت وأنجو من متاعبي ؟ . فيكون الله قد استجاب دعائي وانقذني من عذاب التردد .. يا ربي ما العمل الآن ؟ »

ثم تزحزحت لتجرب قوتها فسمعت خشخشة ثعبان ينساب بين الاحجار وراءها . فقف شعرها وهمت بالنهوض لتخرج من ذلك المكان - ولم تكن تخاف الثعابين اذا قابلتها في النور لكنها خافت الغدر

الفصل السادس والثلاثون

رسول غريب

وهي تهم بالنهوض سمعت وقع حوافر مسرعة فاسرع الثعبان في الانسياب حتى توارى وخفق قلبها فالتفتت فرأت اشباحاً كالفرسان يزيد عددهم على عشرة يسوقون أفراسهم . فحدثتها نفسها ان تستغيث بهم ولم تكدتهم بذلك حتى سمعت بينهم صوتاً يقول « هل رأيتم احداً ؟ . لا شك انها قتلت »

فأجابه الآخر « لا بد من ذلك لاننا رأينا الجواد مقتولا فهل تبقى هي حية ؟ »

وتوسمت في صوت الاول لحن أبي حامد فغالطت نفسها وأحبت ان تتحقق ظنها فانزوت في مكانها حتى اقترب القوم منها فقال أحدهم « لقد تمت حيلتنا ولا يلبث ذلك الدعي ان يموت هو وقائده قبل ان يتناولا العشاء انظروا هذا هجان قادم من طريق مصر .. تربصوا له »

فاصبحت لمياء من شدة تأثرها تنتفض كالعصفور بلله القطر . وخانتها قواها وأدركت ان القوم أبو حامد ورجاله وانه الذي دبر لها هذه المكيدة بشيء وضعوه للجواد في انفه عند غسل وجهه . وحدثتها نفسها ان تصيح فيهم فعلمت انها اذا فعلت قتلوها لامحالة وهي لا تريد ان تموت على أيديهم .

فتجلدت وأخذت تنظر الى الجهـة التي تظن الهجان قادماً منها . فرأت هجاناً مسرعاً سرعة البرق فاعترضه الفرسان وأوقفوه وسأله أحدهم قائلا « الى أين يا رجل ؟ »

قال الى « المنصورية »

قال « ومن تريد ؟ »

قال « اريد امير المؤمنين المعز لدين الله »

قال « وما الذي تحمله اليه ؟ »

قال « أحمل اليه رسالة من مصر »

قال « أين هي ؟ هاتها . . اننا من رجاله »

قال « لا اسلمها إلا اليه .. دعوني اسير في طريقي » قال ذلك وادار زمام هجينه فاعترضوه ومنعوه وألحوا عليه ان يدفع اليهم الرسالة وهو لا يرضى . فقال له أبو حامد « انك كاذب لست قادماً من مصر لان القادم منها لا يأتي منفرداً في هذه الصحراء .. اصدقنا والا قتلناك »

قال « كنت قادماً في قافلة نزلت عنـد الغروب على ماء هناك واسرعت وحـدي لتبليغ الرسالة لانها مستعجلة لا بد من ايصالها قبـل انقضاء هذا اليوم »

فقال أبو حامد « لا شك انك كاذب بل أنت لص أو جاسوس ونحن من رجال الخليفة فاذا كنت صادقاً ادفع لنا الرسالة والخليفة الآن في قصره لا تدركه إلا وقد نام »

قال « ان الرسالة خصوصية له وقد امرت ان لا أسلمها الى أحد سواه ولو كان ابنه . وقد اوصيت ان ادفعهـا اليه حال وصولي واذا كان نائماً أيقظته واذا كان متكئاً لا أمهله ان يجلس قبل ان ادفعها اليه . هـذا ما امرت به فاذا كنتم من رجال الخليفة كما تزعمون دعوني اذهب في سبيلي »

فقال « ابو حامد « اعطنا الرسالة والا قتلناك »

فقال « اقتلوني ولا اسلمها الا لصاحبها »

ولم يتم كلامه حتى سمعت لمياء استلال الحسام ورأت أحدهم ضرب ذلك الهجان بالسيف على رأسه فسقط عن الجمل قتيلا . وصاح أبو حامد وهو يقهقه من الضحك « أوصل اليه الرسالة . أو تمهل انكما ستلتقيان في السعير بعد قليل »

والتفت إلى القاتل وقال له « فتشه واستخرج الرسالة منه وادركنا فاننا سائقون الى موضع القافلة » قال ذلك وساق جواده وتبعه رجاله الا القاتل فانه ترجل عن جواده ووضع سيفه المسلول على الارض بجانبه حتى يمسحه من الدم بعد الفراغ من تفتيش القتيل

فتحققت لمياء ان تلك الرسالة هامة ولولا ذلك لم يفضل حاملها القتل على تسليمها واعجبتها امانته وثباته . وكانت كثيرة الاعجاب بالاخلاق العالية . فاسفت لموته وأحست بميل الى الانتقام له . وكانت قد تجددت قواها أو لعل حماستها نشطتها . فتململت ونهضت وخرجت من الحفرة خلسة وهي تتسرق والرجل مشتغل بالتفتيش حتى دنت من السيف المطروح بجانبه فتناولته باسرع من البرق واطلقته على عنقه فسقط فوق الهجان وثنت عليه بضربة أخرى حتى تحققت موته ثم ازاحته وأتمت التفتيش . فوجدت الرسالة وهي عبارة عن اسطوانة من القصب الفارسي فيها الكتاب وكان قد خبأها بين اثوابه . وهمت بالجواد فامتطت صهوته وكانت قد عرفت جهة المنصورية منذ رأت الهجان قادماً وحولت شكيمة الجواد نحو معسكر أبيها وقد عادت اليها قواها تحمساً في مصلحة المعز واسرعت في ايصال تلك الرسالة لاعتقادها انها لو لم تكن عظيمة الاهمية لم يؤمر حاملها بايقاظ الخليفة من نومه لتسليمها اليه وكانت قد تنسمت من كلام أبي حامد انهم اعدوا مكيدة لقتل المعز . فعلمت انها اذا أسرعت انقذت ذلك الخليفة الذي تحبه . وتحترمه فاحست بنشاط وفرح فهمزت جوادها نحو معسكر أبيها وهي لا تراه لكنها علمت مما حولها انهامتجهة نحوه وقد نسيت

حالها ولم تعد تفكر بالدم الذي يسيل على عنقها وكان قد جمد وانسد الجرح ولم يضرها لانه سطحي

أما أهل ذلك المعسكر فكانوا لما رأوا لمياء أشارت اليهم اشارة الوداع وركض بها الفرس توهموا أنها عزمت على شوط تركض به فرسها ثم تعود الى فسطاطها الذي كانت فيه كما تقدم

وكان ابو حامد هو الذي دبر تلك المكيدة لمياء فدس أحد غلمانه بين الموكلين بمساعدة الفرسان وأوصاه ان يدس في أنف جواد لمياء مادة حريفة تهيجه وتحمله على الركض بغير هدى فهو عند ذلك لا يهدأ حتى يتحطم هو وراكبه

فلما تحقق عمل العقار ورأى لمياء غابت عن أعينهم وسمعهم يتساءلون عن مصيرها أكد لهم أنها ودعتهم ولا تلبث ان تعود الى فسطاطها وأخذ يشاغلهم بالحديث وطلب الى حمدون ان يأتيهم ببعض الالعاب الغريبة ليتسلى الخليفة برؤيتها مما لا مثيل له في القيروان واحتال في الخروج من السرادق وكان قد امر رجاله ان يهيئوا احمالهم ويخرجوا بها من ذلك المعسكر الى مكان يعرفونه بجانب الطريق المؤدي الى مصر كما تقدم

فلما بعد عن المعسكر ركب هو ورجاله واخذوا يبحثون عن لمياء ليتحققوا قتلها وشاهدوا جواداً في الطريق قد وقع قتيلا بعد ان اصطدم بذلك الصخر وتراجع ودمه يسيل من صدره حتى وقع . فلما رأوه ولم يعثروا بلمياء تأكدوا قتلها في مكان رماها به

الفصل السابع والثلاثون

المائدة

أما حمدون فلما دنا الغروب دعا الخليفة الى العشاء الذي اعده له في السرادق الخاص بمائدته . وذهب الامراء الى موائدهم في السرادقات

الاخرى ومشى الخليفة الى المائدة وقد اضيئت السرادقات بالشموع وأحرق البخور في اطرافها ومدت الموائد في اواسطها وعليها أنواع الاطعمة . وذهب حمدون الى الطاهي القرطبي الذي تقدم ذكره وبالغ في وصايته حتى يحسن الوقوف في خدمة الخليفة

وقبل التقدم الى المائدة ازفت الصلاة فصلى الخليفة وصلى القوم وراءه ثم جلس كل منهم في مكانه . ومائدة الخليفة لم يجلس عليها الا هو وقائده وابن قائده ووقف حمدون يخدمهم بنفسه بمساعدة الطاهي المشار اليه وبعض غلمان آخرين يحملون الاطباق من المطابخ . ووقف سائر الغلمان بأباريق الفضة والقوارير فيها الجوارشنات أو الاشربة الهاضمة وقد شغل حمدون باضيافه عن التفكير بلمياء لاعتقاده انها عادت الى فسطاطها

فبعد ان تقدمت الوان الاطعمة وهي كثيرة ومتقنة أحس الخليفة بالعناية التي بذلها صاحب سجلماسة في اكرامهم وظهر له الفرق بين الاطعمة التي تعود تناولها في قصره وما تناوله تلك الليلة . لان العبيديين كانوا الى ذلك الحين لا يزالون ميالين الى السذاجة في الطعام واللباس لاسباب تقدم بيانها . أما حمدون فقد تعود وهو سجلماسة الترف والتأنق بالاطعمة تقليداً للمروانيين في قرطبة . وكان يبتاع امثال آنيتهم للمائدة من الاباريق والاطباق الفضة والذهب ويوصي الطهاة بمعالجة اللحوم والالوان كما كان الخليفة الناصر يفعل في قصر الزهراء

فلما صار حمدون في الاسر لم يعد يستطيع ذلك التأنق لكنه في تلك الليلة أوصى الطهاة ان يبذلوا الجهد في اصلاح الاطعمة ليدهش الخليفة ويؤكد له حفاوته واكرامه ـ ذلك ما اوعز به أبو حامد وأوصى الطاهي الخصوصي ان يجعل في جملة الاشربة الهاضمة الشراب الذي امره ان يضع السم فيه

فلم يتمالك المعز لدين الله عن ابداء اعجابه بتلك الحفاوة وذكر على الخصوص لذة الاطعمة . فقال له حمدون « اننا تجاسرنا في اخراج امير المؤمنين عن عادته في الاقتصار على الاطعمة البسيطة التي اقتضاها تقشفه الى ماتعوده

غيره من الملوك المنغمسين في ملذات الدنيا . وانما فعلنا ذلك على سبيل التجربة فقط »

فقال المعز « قد علمنا ذلك ولا بأس به .. ولكن كيف تأتى لك هذا وأنت هنا ؟ »

فقال « عهدت بذلك الى طاه كان من جملة طهاة صاحب قرطبة وهو كثير التفنن » وأشار الى الطاهي الواقف في جملة الواقفين وقال « هذا الطاهي يا سيدي اتقن من عرفت من الطهاة للاطعمة »

فالتفت المعز اليه فرآه في انظف ما يكون من الثياب وقد حمل بيده ابريقاً من الذهب وقدحاً فابتسم المعز ابتسام من عرف الحق واغضى عنه وقال « بمثل هذه الاطعمة أوهنت عزائم اولئك .. لكن لا خوف علينا لانا لن نعود الى مثلها بعد الآن .. ما الذي تحمله بهذا الابريق .. ؟ لم يبق لنا قدرة على طعام »

فتقدم الطاهي وقال « هذا يا سيدي شراب هاضم لا تلبث ان تتناول منه قدحاً حتى تذهب التخمة وتشعر بالرغبة في الطعام ثانية »

قال ذلك وصب منه في قدح من الزجاج منقوش وناوله الى حمدون فاخذ حمدون القدح وجعل يتفرس في ما عليه من النقوش ـ وهو من جملة آنية ابتاعها من تاجر حملها من قرطبة . ثم نظر الى الخليفة وقال « هذا الشراب الهاضم لم أذقه قبل الآن فانه من استنباط هذا الطاهي ولذلك ينبغي ان أذوقه قبل تقديمه لامير المؤمنين » أو هي عادتهم في الشروع بالطعام قبل ضيوفهم ويعدون ذلك مبالغة في الحفاوة . ثم ادنى القدح من فيه وشربه وأخذ يتلمظ ويبدي الاعجاب . وأمر الساقي فصب في قدح آخر ناوله الى الخليفة وآخر ناوله الى القائد جوهر وآخر للحسين

الفصل الثامن والثلاثون

قادم مفاجيء

وهم الخليفة ان يتناول الشراب مجاراة لحمدون لان معدته قد امتلأت بالاطعمة والاشربة فازعجه دبيب جواد مسرع وقف بباب السرادق وعليه راكب ملثم والجواد يلهث لهثاً شديداً وقد تصبب العرق منه من الجهد . وترجل فارسه وهم بالدخول بلا استئذان فمنعه الحجاب فلم يبال واخترق الصفوف ركضاً وبيده اسطوانة من الغاب الهندي حتى دنا من المعز . فخاف القوم ان يكون من جسارته خطر على الخليفة فنهض القائد جوهر والقدح بيده وأمره ان يرجع . فلم يبال بل ظل مسرعاً وبانت بقع الدم على لثامه فلما دنا من الخليفة دفع اليه الاسطوانة وأشار باصبعه أن يقرأها حالا . فتناولها منه وهو يتفرس فيه . وكان الحضورمنذ دخل الرسول قد استأنسوا بثوبه وخصوصاً حمدون فانه عرف ابنته من ثوبها فصاح « لمياء ! »

فلم تجبه فلما سمعه الخليفة يناديها انتبه انها قد تكون هي فقال « هل أنت لمياء ؟ » قالت « لا تعمل عملا يا سيدي قبل ان تقرأ هذه الرسالة »

فلما سمع صوت ابنته عرفها فاراد ان يدنو منها لمخاطبتها فخانته قدماه وأحس بدوار شديد فسقط على الارض . فاشتغل الغلمان باسعافه ونقلوه الى فسطاط قريب . والخليفة ينظر الى الكتاب وهو يقول للمياء « من أين هذا » ولم يكترثوا لدوار حمدون لاعتقادهم انه نتج من كثرة الاكل

فقالت لمياء « هو من مكان بعيد وقد امر حامله ان يعطيه للخليفة حال وصوله . . واذا كان نائماً يوقظ واذا كان متكئاً لا يمهل حتى يجلس قبل قراءته وهذا ما جرأني على ازعاجكم وأنتم على المائدة . . »

فدفع الخليفة الاسطوانة الى القائد جوهر ففضها وأخرج منها لفافة عرف من شكلها انها من مصر لكنه لم يعهد بينه وبين اميرها صداقة أو علاقة توجب مخابرة ودفع جوهر الرسالة الى المعز لعلمه انه يحب ان يقرأ

المراسلات بنفسه . وكان القدح لا يزال في يده فادناه من فيه ليشربه قبل قراءة الرسالة فاسرعت لمياء وابعدت القدح عن فيه وقالت « قد أمر حامل الرسالة ان يمنع امير المؤمنين عن كل عمل قبل قراءتها »

فاستغرب المعز ذلك وأخذ بالقراءة لنفسه والحضور ينظرون في وجهه وخصوصاً جوهر . فرأوا الخليفة قد تغيرت سحنته وبدا الغضب في وجهه وخامره القلق وأما الحسين فكان في اثناء ذلك لا يرفع بصره عن لمياء وقد أدهشه ما رآه من حالها والدم قد لطخ نقابها وبعض ثوبها . ولم يتجاسر أن يخاطبها في حضرة الخليفة ولا سيما بعد ان رأى تغير وجهه . . وأطال المعز نظره في الكتاب وأعاد تلاوته وهو كالمستغرب لما يقرأه . وتطاول الحضور باعناقهم لمعرفة ما حواه الكتاب . لكنهم لم يجسروا على التماس ذلك

وبعد هنيهة أشار الخليفة الى جوهر وابنه ان يضعا الاقداح ودفع الكتاب الى جوهر ونظر الى لمياء وقال لها « أين حامل هذه الرسالة ؟ ادعيه الى هنا »

قالت « ان حاملها قتل يا سيدي وكدت اقتل معه ولكن الله أعانني لايصاله اليكم وأنا على آخر رمق »

فأشار الى من في السرادق ان يخرجوا الا جوهر ولمياء وأمر الحجاب ان يمنعوا الناس من الدخول حتى الامير حمدون نفسه ففعلوا . وكان جوهر مستغرقاً في تلاوة الكتاب لنفسه وقد اصابه من الدهشة اضعاف ما أصاب المعز . فلما خلا السرادق من الغرباء التفت الخليفة الى لمياء وقال « اكشفي عن وجهك وقصي علينا خبرك . اني أرى عجباً وأقرأ اعجب منه »

فلم يسعها الا الطاعة فرفعت اللثام عن وجهها وقد لصق بعضه بعنقها من الدم وتغيرت ملامحها من عظم ما ألم بها في تلك الليلة وازدادت عيناها حدة وبسالة وابراقاً

فقال الخليفة « ما خبرك من أين أتيت »

فقصت عليه ما جرى لهـا من أوله الى آخره وهو يسمع ويستغرب وينظر في اثناء الحديث الى قائده كأنه يستطلع رأيه في ما يسمعانه من الغرائب

الفصل التاسع والثلاثون

نص الرسالة

فلما أتت على آخر الحديث أصبحت في شوق للاطلاع على فحوى تلك الرسالة لكنها لم تجسر على طلب ذلك . أما الخليفة فانه كان يسمع كلامها ويتأمل ما يبدو في عينيها من صدق اللهجة والبسالة . فلما وصلت الى ملاقاة ذلك الهجان وكيف انها قتلت قاتله وحملت الرسالة لايصالها سريعاً وهي مصابة بالجروح والرضوض لم يتمالك ان قال لهـا « لله أنت من فتاة باسلة وصديقة صادقة ـ أتحبين ان تسمعي نص هذا الكتاب فاني أعدك ابنة لي بل أنا لا أتوقع من ابنتي أو ابني ان يكون غيوراً علي مثل هذه الغيرة . . اقعدي » وأشار الى مقعد بجانبه فجلست عليه وامر جوهراً ان يقرأ الرسالة فاخذ يقرأها وهذا نصها :

« الى أمير المؤمنين المعز لدين الله من عبده يعقوب بن كلس

« أما بعد فاني ما برحت اذكر نعم المولى وفضله علي وعلى آبائي وأنا أترقب الفرص للقيام بما فرض علي في سبيل نصرته لاني وان كنت ذمياً لم أتشرف بالاسلام فاني قادر على أن أرى وجه الحق بالنظر الى تنازع المسلمين على الخلافة . وهي حق صريح لآل علي أبناء عم النبي وأبناء بنته . وانما اختلسها سواهم طمعاً بالدنيا لكن الحق عاد الى نصابه بفضل أجدادك الكرام وسيتأيد على يد الامام المعز لدين الله . ولذلك رأيتني لا أدخر وسعاً في نصرة الحق وأراقب الفرص في تأدية خدمة تعود على الامام بالنصر وقد علمت بدسيسة اعـدها المبغضون لايقاع الاذى بالامام وقائده أعزها الله ـ علمت ذلك بطريقة غريبة في ليلة من ليالي القدر . فلم أنم قبل

ان كتبت هـذا وبعث به على جناح السرعة مع رسول غيور أوصيته بجد السير حتى يصل قبل فوات الفرصة . فارجو ان يكون قد فاز بذلك وسلم كتاني هذا الى المولى اعزه الله ونصره على اعدائه . وجلية الخبر يا سيدي اني علمت من قرائن مختلفة ان بين امرائك العائشين تحت جناحك أناساً يسعون في الكيد لك ولقائدك ويخابرون صاحب مصر لفتح القيروان والحاقها بخلافة العباسيين . وكنت اذا سمعت ذلك استبعدته إذ لا يعقل ان يسعى أحد في ابدال دولة بالية خربة من دولة جديدة زاهية . وحدثتني نفسي ان اكتب اليكم بذلك وترددت حيناً حتى وقفت بالصدفة على أمر اطار صوابي واقلقني . وهو ما بعثني على كتابة هـذا بوجه السرعة وقلبي يخفق خوفاً من تأخره عن الوقت اللازم ـ علمت ياسيدي من مصدر وثيق وقد سمعت بأذني ان صاحب سجلماسة المقيم في جوارك ورجلا من خاصته اسمه أبو حامد اتفقا على الكيد بك وبقائدك الباسل على ان ينفذ الحيلة في عيد الفطر المبارك وبعثا الى مصر شاباً من رجالهما اسمه سالم يزعم انه ابن أبي حامد أو ابن أخيه . فهذا الشاب سمعته بأذني يقص خبر المكيدة وهو في حال سكر على امرأة تعشقها . ولكي تتأكد صدق قولي فأنا أذكر من اسماء الاشخاص الذين استعان بهم في هذه المكيدة فتاة اظنها ابنة صاحب سجلماسة اسمها لمياء اظهر لها سالم أنه يحبها ليستخدمها في اتمام هذه المكيدة لانهـا من المقربين في قصر مولاي امـير المؤمنين . ولا يطيعني قلمي على التصريح بما دبر اولئك الملاعين ـ وقى الله مولانا الخليفة من كيد الكائدين واذا بلغ كتاني هذا الى سيدي الخليفة قبل عيد الفطر فهو ناج باذن الله. والرسول رجل من المولعين بالحق انصار العلويين أيد الله ملكهم . وأنا يا سيدي خادم مطيع لكم ابذل نفسي في سبيل الحق ولاغرض لي غير ذلك والسلام » اه

ولم يبلغ جوهر الى آخر الكتاب حتى استولت الدهشة على لمياء وأصابها شبه الدوار من الحيرة. لاستغرابها ما تسمعه عن سالم . وانكشفت لها مكيدته وتحققت انه كان يخادعها. فاحست من تلك اللحظة بكرهه وتحول

حبها الشديد الى كره شديد وأصبحت لا تصبر عن الانتقام لنفسها منه . . . وأطرقت كأنها أصيبت بجمود وشعرت كأن الدم جمد في عروقها واصطكت ركبتاها وتولتها الرعدة . وقد خجلت مما تلي عليها من دخولها في تلك المكيدة . وكيف ان يهودياً يبعث بخبرها من مصر غيرة على الخليفة وهي في قصر المعز وقد اطلعت على المكيدة منذ شهر ولم تخبره بها . لكنها التمست لنفسها عذراً انها داومت حتى انتهت المسألة على هذه الصورة

مرت هذه الخواطر على ذهنها في لحظة سمعت في أثنائها الخليفة يقول « اين صديقنا صاحب سجلماسة »

فلما سمعت لمياء نداءه تحققت انه أراد أن يسأله عن المكيدة وخافت وقوعه في الاذى لكنها سكتت لترى ما يكون . فأجاب أحد الغلمان « ان الامير حمدون نائم منذ نهض عن المائدة »

فقال وقد بان الغضب في وجهه « أيقظوه » ثم التفت الى القائد جوهر وقال « يا ابو حامد ! أليس هو ذلك الرجل الذي قدمه لنا حمدون ؟ أحب أن أرى الامير حمدون لاسأله عن تلك المكيدة وان كنت لا اصدق دخوله فيها ولكنه سيفصح عن التفاصيل ونرى ما يكون . . . أين هو ؟ أيقظوه »

الفصل الاربعون

حمدون

واذا بغلمان حمدون يتراكضون وقد أخذتهم البغتة وتقدم أحدهم الى المعز وقال وهو يغص بريقه « لم يستيقظ ياسيدي » وأخذ في البكاء . فلما سمعت لمياء بكاءه أسرعت الى حيث رقد أبوها فوجدته مستلقياً على مقعد هناك وقد تغير لونه فازرقت بشرته وغارت عيناه وبانت أدلة الموت في وجهه فصاحت « وا والداه ! ماذا جرى لك ؟ » وجعلت تجس يديه ووجهه فاذا هو ميت لا حراك به . فأخذت تناديه وسمع الخليفة بكاءها فأسرع ومعه

القائد جوهر فلما رأيا حمدون تحققا موته وعجبا لما أصابه فأمر المعز أن يؤتى بالطبيب حالا فأتى . وحالما وقع نظره عليه صاح « مات الامير مسموماً . . ماذا شرب ؟ »

فقال المعز أكلنا معاً من طعام واحد الا شراباً صبه الغلام لنا جميعاً فشربه هو ولم نشربه نحن ولا تزال أقداحه مملوءة على المائدة . . ومشى الخليفة الى غرفة المائدة ودل الطبيب على الاقداح فتناول الطبيب قدحاً منها وتأمل السائل الذي فيه قليلا وشمه ثم استخرج من جيبه مسحوقاً وضع شيئاً منه في ذلك الشراب وجعل يتفرس بما يحدث فيه والجميع وقوف ينظرون . فلم تمض برهة حتى تحول ما في القدح الى راسب اصفر وتغير لون الماء فصاح « ان هذا الشراب سام . . من صنعه ؟ »

فأمر المعز بالقبض على الطاهي الذي تولي تلك الوليمة فلم يقفوا على خبره وأطرق المعز فى أثناء ذلك وأعمل فكرته في ما رآه من الغرائب في ذلك المساء فاتضح له سلامة نية حمدون لانه لو اشترك بالمكيدة وعلم ان الشراب مسموم لما تناوله

وأسف المعز لموت حمدون وأمر أن يجهز ويناح عليه ويدفن . والتفت الى لمياء فاذا هي قد وقفت لا تحير خطاباً كأنها أصيبت بجمود فقال لها « تعالى يا بنية رحم الله والدك انه مات مظلوماً والله يتولاه برحمته فانت الآن ابنتنا . لا نقول ذلك تعزية لك لكنك أتيت فى مصلحتنا ما لا يأتيه ألابن الغيور » ومد يده الى كتفها وربت عليه بحنو وعطف وقال « هيا بنا الى قصرنا في المنصورية واحسبوا ان هذا الفرح لم يكن . . وستجدين هناك أم الامراء وتأنسين بها . . »

فلم تجبه لكنها أخذت في البكاء وهي صامتة تناجي نفسها بامور لاتخطر لاحد من الحاضرين . لكنها أحست بغضب شديد على سالم وجاشت عواطفها ورأت في نفسها ميلا للانتقام منه — ومن قواعد الحب وطبائع المحبين ان المتفاني في حب شخص يحتمل منه ما شاء من التجني والدلال والاعراض ولا يزداد الا شغفاً وتفانياً . لكنه لا يحتمل الخيانة .. فاذا

تأكد أنه خانه في عواطفه أو خادعه أو داجاه لغرض في نفسه انقلب حبه بغضاً وصار تفانيه نقمة ـ فاحست لمياء بميل شديد الى الانتقام من سالم وقد تحققت خيانته لانه كان يظهر حبه حيلة للفتك باعظم المحسنين اليها واليه

وأمر المعز ان تقوض الفساطيط والسرادقات ويؤجل العرس الى وقت آخر فالتفتت لمياء عند ذلك وقد هاجت اشجانها وقالت « نؤجله يا سيدي حتى ننتقم لنفسنا من الكائدين . فاذا وافقني أمير المؤمنين على ذلك ضاعف فضله علي »

فقال « سننظر في ذلك » وأمر رجاله بالرجوع الى المنصورية فاشتغلوا بتقويض الخيام . وركب المعز وقائده ولمياء والحسين وسائر الحاشية الى المنصورية والغلمان يحملون المشاعل بين أيديهم

وفي صباح اليوم التالي احتفلوا بدفن حمدون وبكته لمياء بكاء مراً لسبب لا يعرفه سواها ـ وهو اعتقادها أنه قتل بسذاجته وسلامة نيته ودهاء ذلك اللعين ابي حامد

وكانت لمياء حال وصولها الى القصر في ذلك المساء دعتها أم الامراء الى غرفتها وأخذت في تعزيتها بعبارات الحنو والحب كما تخاطب الوالدة ابنتها فأحست لمياء براحة وزادت تعلقاً بها . وأيقنت انها كانت على هدى باخلاصها لتلك الملكة وانما شوشوا عليها أفكارها بمكائدهم

الفصل الحادي والاربعون

لمياء وأم الامراء

ولم تطل الملكة الحديث تلك الليلة والميت لم يدفن بعد . ففي الصباح التالى لما علمت بدفنه بعثت الى لمياء وأمرتها أن لا تفارقها وبالغت في اكرامها وتعزيتها وذكرت الحسين في أثناء حديثها . فتذكرت لمياء انها لم تشاهده في ذلك اليوم ولا رأته بعد عودته معهم في المساء . فاشتغل

خاطرها بشأنه وشعرت بميل الى رؤيته وودت أن تلتقي به في خلوة لتبث له أموراً تحب أن تساره بها بعدما أصابها من قتل والدها وتغير قلبها على سالم . فلما سمعت أم الامراء تذكره أحبت أن تغتنم الفرصة وتسأل عنه فغلب الحياء عليها فسكتت . ولحظت ام الامراء خجلها فقالت « ان الحسين سيء الحظ يا لمياء . انظري كيف اتفق له في يوم عرسه »

فقالت وهي تغص بريقها « بل أنا التعسة يا سيدتي لأني فقدت سندي الوحيد وهو والدي فأصبحت يتيمة الابوين » ومنعها البكاء من إتمام الكلام

فهمت بها أم الامراء وضمتها الى صدرها وقالت « لست يتيمة يا لمياء و . . . . »

فقطعت لمياء كلامها قائلة « صدقت يا سيدتي ان من كان تحت ظلك وظل سيدي أمير المؤمنين لا يكون يتيماً . . وكفاني حظاً وشرفاً ان يدعوني الخليفة حفظه الله ابنته . . . انها نعمة لم أكن لاحلم بها . . . ولكن . . »

فقالت ام الامراء « لا لوم عليك اذا بكيت أباك انه كان باراً وكان يحبك . . »

فتذكرت لمياء ما كان يضمره ابوها من السوء للخليفة وقائده فاحست بوخز الضمير فأرادت ان تصرف ذهنها عن ذلك الحديث لانه يؤلمها فقالت « رحمه الله . . وانا الآن لا اعرف أباً غير امير المؤمنين ولا أماً سواك » وسكتت وهي تتشاغل باصلاح شعرها وفي خاطرها شيء يمنعها الحياء من ذكره

وكأن أم الامراء أدركت مرادها فقالت « اني لم أر الحسين جاء معكم في مساء أمس ولا رأيته اليوم أين هو يا ترى ؟ »

قالت « لا أعلم رأيته ركب معنا من المعسكر ثم لم أره »

فقالت أم الامراء « أتظنين الخليفة أرسله في مهمة مستعجلة ؟ »

قالت « أنت أعلم مني بذلك »

قالت « لا ريب عندي ان أمير المؤمنين يحب ان يراك فهل نذهب اليه وهو يخبرنا عن الحسين .. »

فسرها هـذا الاقتراح لـكنها لم تظهر الرغبة في الاجابة حياء . ولم تنتظر أم الامراء جوابها فنهضت وأمسكتها بيدها ومشت بها وهي تقول « ان امير المؤمنين وحده في قاعته وقد اخبرني في هذا الصباح انه لا يريد أن يرى أحداً من الامراء »

فقالت لمياء « لعله طلب ذلك لرغبته في الخلوة فهل يجوز ان نزعجه بحضورنا ؟ »

فابتسمت وقالت « لا يزعجه حضوري أو حضورك ولا هو أراد الخلوة للعمل على ما أظن . ولـكنه أراد الراحة من عناء مالاقاه أمس . وهو بلا شك كثير التفكير فيك هلمي بنا اليه .. وانزعي حجاب الـكلفة معه بعد ان دعاك ابنته ونعم الابنة »

وبعد هنيهة وصلتا الى غرفة الخليفة . فبادر الحاجب الى القاء التحية باحترام فقالت أم الامراء « ألعل أمير المؤمنين وحده ؟ »

قال « كلا ياسيدتي انه في خلوة مع القائد جوهر »

فارادت ان ترجع واذا بالمعز يناديها من الداخل « اذا كانت لميـاء معك ادخلي »

فاجفلت لمياء عند سماع اسمها على هـذا الاسلوب وتصاعد الدم الى وجنتيها فقالت لها أم الامراء « ألم أقل لك أنه يسر برؤيتك ـ حتى أكثر من رؤيتي . وقـد قال بصراحة ان لا ادخل الا اذا كنت معي . . » وضحكت وهي تظهر المداعبة . ووسع لهما الحاجب فدخلتا

وكان المعز جالساً على مقعد والقائد جوهر على وسادة بين يديه وعلى وجهيهما أمارات الاهتمام . فلما دخلت أم الامراء أظهرت الاحتشام لوجود القائد فابتدرها المعز قائلا « ان قائدنا كواحد منا فلا ينبغي الاحتشام من وجوده وأنت يا لمياء ابنتنا وهذا القائد ابوك أيضاً » وأشار اليهما بالجلوس وكان القائد قد وقف عند دخول أم الامراء فاشار اليه الخليفة ان يجلس

وقال له « نحن في امر هام نحب ان نشرك القادمتين به .. أنت تعلم تعقل أم الامراء . وهذه فتاتنا لمياء قد عرفت ذكاءها وغيرتها على مصلحتنا فلا بأس من دخولها في الحديث . . »

فجلست لمياء وهي مطرقة حياء لهذا الاطراء فقال لها الخليفة « لا ينبغي التهيب يابنية بين يدينا وقد اصبحت ذات شأن في امورنا لما تأكدناه من تعقلك وصدق محبتك لنا وقد شق علينا ما أصاب والدك ولكن ذلك امر من الله لا سبيل الى دفعه ... طيبي نفساً سنأخذ بثأره »

فلما سمعت ذكر الثأر تغير وجهها وبان الاهتمام في عينيها ونظرت الى الخليفة وابتسمت ابتسام الامتنان وقالت « اشكرلك يا مولاي انعطافك نحوي ولكني أرى الواجب الاول ان ننتقم لامير المؤمنين لان ذلك الخائن أراد ايصال الاذى اليه . وقد حماه الله ؟ »

فابتسم وقطع حديثها قائلا « وكان الفضل لك بذلك يالمياء .. فهل يكثر علينا ان نثأر لوالدك رحمه الله ؟ »

فاطرقت وسكتت ثم رفعت بصرها اليه وقالت « لكنني ارغب الى امير المؤمنين ان يدخلني في هذا الانتقام فاني موتورة » قالت ذلك وقد قطبت حاجبيها وبان الغضب في عينيها

فقال « لم نكن لنكلفك شيئاً من هذا يا لمياء . كفاك ما أصابك » والتفت الى القائد جوهر وقال « اني لم أشاهد الحسين في هذا الصباح أين هو ؟ »

قال « قد ذهب في مهمة مستعجلة هي من قبيل ما نحن فيه »

قال « الى أين ؟ »

قال « انفذته الى الجهة التي قالت لمياء انها شاهدت ذلك الخائن فيها . وذكرت هناك قافلة أو معسكراً فامرت الحسين ان يذهب بكوكبة من الفرسان لعله يدرك القوم قبل رحيلهم فيأتينا بذلك الغادر ويكفينا مؤونة البحث عنه »

فقال المعز « بارك الله في همتك وتيقظك » والتفت الى أم الامراء

وابتسم وهو يقول « كيف نلام على تقديم هذا القائد وهو لا يغفل عن مصلحتنا »

الفصل الثانى والاربعون

الحسين

أما لمياء فأطرقت وبان الارتباك في وجهها فلحظ الخليفة فيها ذلك فقال « ما بالك ساكتة يا لمياء ؟ هل شق عليك ذهاب الحسين . . ولماذا ؟ »

قالت « كيف يشق علي ذهابه في خدمة هذه الدولة وصيانة أمير المؤمنين ان ارواحنا فداه »

قال « اني أرى في وجهك قلقاً »

قالت « قد همني ذهابه لعلمي بغدر اولئك الخائنين ومكرهم »

فقطع القائد جوهر كلامها قائلا « لا خوف على الحسين من غدرهم . . ولا يلبث ان يأتي ظافراً باذن الله . وعند ذلك يحق له ان يكون عريساً لك »

فخجلت وتوردت وجنتاها وأحبت ان تصرح بما في خاطرها من هذا القبيل فقالت « هل يأذن مولاي أمير المؤمنين بكلمة اقولها جواباً على ما سمعته »

قال « قولي »

قالت « أما وقد سمعت من القائد الاكبر ما قاله فاتقدم الى مولاي ان .. » واسكتها الحياء والتفتت الى أم الامراء كأنها تستنجدها ان تنوب عنها في التعبير عن فكرها ولم تكن أم الامراء تعلم مرادها فنظرت اليها تستفهمها فأسرت اليها انها تحب تأجيل الاقتران »

فقال المعز « سمعت ذلك منها في أمس . . طبعاً أننا نؤجله مراعاة للحداد »

فقالت لمياء « كلا يا سيدي انما أعني انه لا ينبغي ان يتم شيء قبل

الانتقام من الخونة .. » وتشاغلت برفع كمها عن أناملها ويظهر من وجهها انها لم تتم حديثها

فقال جوهر « ان هؤلاء الخونة لا يمضي كثير قبل ان يكونوا في قبضتنا كما قلت لكم فهل تعنين غيرهم ؟ »

قالت « نعم .. انهم كثيرون وبعضهم لا يتيسر الوصول اليهم الا بعد اشهر لانهم بعيدون .. ان هذه الخيانة يجب ان يقوم صاحب مصر بتحمل عواقبها » واشرق وجهها بما بدا فيه من الحماسة

فادرك الخليفة أنها تعرض بفتح مصر انتقاماً من صاحبها فالتفت الى القائد جوهر وابتسم لانه كان يحادثه في شيء من ذلك قبل مجيء لمياء

فنظر القائد الى الخليفة وابتسم ابتسامة الظافر لانه كان يرى العزم على فتحها والخليفة يتخوف ويتردد فسره ان تقترح لمياء مثل اقتراحه

وأدركت لمياء ذلك فقالت « لا ينبغي لنا ان نتردد في تحميل صاحب مصر عواقب هذه الخيانة فانه شريك فيها . ولاخوف منه فانه الآن عبد ذميم (كافور) واحوال مصر في غاية الاختلال »

فرأى المعز ان يقطع الحديث في هذا الموضوع ريثما يفكر في الامر وهو لا يحب ان يقول قولا ان لم يكن مصمماً عليه فقال « ان أمر مصر لا يزال بعيداً وربما فكرنا فيه في فرصة اخرى . . فنحن نحب ان نعجل بالعقد عليك للحسين »

قالت « لا اظن رأي الحسين الا موافقاً لرأيي لانه ليس أقل غيرة على مصلحة امير المؤمنين مني .. ارجو من مولاي ان يجعل أمر مصر مقدماً على كل شيء وأنا اضمن الظفر باذن الله »

فاعجب بتلك الحمية وقال « ليس ضمان ذلك بالامر السهل يا بنية . . . انه يحتاج الى المال والرجال .. »

فنظرت الى الخليفة وقد تغيرت سحنتها وبانت البسالة في جبينها وقالت ان الرجال موجودون ياسيدي ومن كان في قواده مثل القائد جوهر

لا يخشى بأساً فقد فتح المغرب على اهون سبيل . وهل يظن أمير المؤمنين فتح مصر أعظم مشقة ؟ »

فاستحسن المعز اطراءها قائده وقال « هـذا مسلم ولـكن ما قولك بالمال انه لا بد منه لهذا العمل »

قالت وفي صوتها لحن التأكيد « والمال موجود أيضاً »

فبغت الجميع من تأكيدها وتوجهوا نحوها بابصارهم وقال الخليفة « من أين لنا المال الـكافي ونحن لم نفرغ من الحروب الا بالامس »

قالت « قلت لمولاي ان المال موجود وسأبين له ذلك متى شاء . فاذا فعلت هل يبقى لديه مانع ؟ »

قال « يبقى ان نستطلع حال المصريين ونتعرف داخليتهم وشؤونهم . لاننا لم نعلم عنهم الا ما نتلقفه من افواه الناس »

قالت « أما وقد اشركني أمير المؤمنين بهذا الحديث فاستأذنه في ان أقول اني أضمن له ايضاً كشف ما يريد ان يعرفه من الاحوال »

فرأى الخليفة من لمياء فوق ما كان يتوقعه ولم يصدقه بحذافيره وانما حمله محمل الاندفاع كما يفعل الراغب في امر فانه يراه سهلا لرغبتـه في الحصول عليـه . وهم ان يستزيدها بياناً واذا بالحاجب دخل وقال « ان مولاي الحسين بالباب »

فأمر بادخاله. أما لمياء فلما سمعت اسمه خفق قلبها ولم تعد تخاف خفقانه للحسين بعد ان نفضت يديها من محبة سالم . لـكنها تماسكت والتفتت فرأت حسيناً دخل وعلى وجهه غبار السفر فعلمت انه عائد من تلك المهمة

أما هو فحيا فأمره الخليفة بالجلوس فجلس ووقع بصره على لمياء فتجاذب قلباهما وتخاطب بصراهما . ولـكنه شغل بالتوجه نحو الخليفة فقال له المعز « ما وراءك ؟ قد اخبرني قائدنا أنك تعقبت اولئك الخائنين . فعسى ان تكون قد ظفرت بهم وحملتهم الينا »

قال « قد حملت اليكم أناساً وجدتهم قرب المـكان الذي كان الخائنون فيه ولـكنهم ليسوا منهم »

فقال جوهر « وكيف ذلك يا بني ؟ »

قال « قضيت ليل أمس وأنا أبحث في الاماكن التي ينزل فيها الناس أو القوافل في طريق مصر حتى بعدت كثيراً عن القيروان فلم أجد أحداً . . . »

فقطع أبوه كلامه قائلا « أخشى ان تكون قد اخطأت الطريق »

قال « بل هي الطريق ذاتها والدليل على ذلك اني رأيت جثة ذلك الرسول وبجانبها جثة قاتله كما قصت خبرها لمياء . وامعنت في تلك الجهات وبثثت رجالي في كل جهة فاخبرني بعضهم في هذا الصباح انه رأى آثار معسكر . فسرت اليه فرأيت بقايا قوم كانوا هناك ورحلوا من عهد قريب ولعله المعسكر الذي كان فيه اولئك الخونة ومع ذلك لم اقنع بما رأيت فواصلت السير الى عين ماء تنزل عندها القوافل فرأيت قافلة قادمة من مصر أتيت باصحابها معي لعلنا نستفيد منهم خبراً اذ توسمت من زخرف فساطيطهم وخيولهم وسائر احوالهم ما لم اعهده في سواهم من اصحاب القوافل »

فقال الخليفة « أين هم »

قال « أتيت برئيسهم معي وهو بالباب اذا شاء مولاي امر بادخاله »

الفصل الثالث والاربعون

بنت الاخشيد

فصفق المعز فدخل الحاجب فقال « ادخل الرجل الواقف خارجاً » وأشار الى ام الامراء ولمياء بالتنحي الى مجلس تقعدان فيه بحيث تريان وتسمعان ولا يراهما أحد

ثم عاد الحاجب ومعه صاحب القافلة وهو كهل عليه لباس المصريين من العامة والجبة وقد أخذ الاضطراب منه مأخذاً عظيما لهول ذلك الموقف .

فقال له الخليفة « لا تخف يارجل وإنما نريد منك ان تصدقنا الخبر . قل من أنت ؟ »

قال « أنا يا مولاي من أهل مصر »

قال « ما هي صناعتك »

قال « تاجر رقيق »

قال « ما الذي جاء بك الى هذا البلد »

قال « جئت لابتاع رقيقاً أحمله الى مصر . وهي عادتي في كل عام أو بضعة أعوام آتي القيروان لهذه الغاية فابتاع المولدات الحسان وانصرف

قال « ولكن رسولنا يقول ان حالكم تدل على غنى وترف لا يعهده بتجار الرقيق الذين يفدون على القيروان »

فبانت البغتة في وجه الرجل عند هذا الاعتراض ولكنه قال « نحن يا مولاي تجار رقيق كما قلت لكم فاني لا اكذب »

قال « هذا لا يكفي قل لنا السبب الذي أوجب مجيئكم في الفساطيط الفاخرة ومعكم الخيول المطهمة كأنما أنتم من رجال الدولة أو الامراء »

قال « السبب في ذلك يا مولاي اننا نبتاع الجواري بأمر خاص ونحن ننفق على حساب مرسلنا »

فقال الخليفة « لمن تبتاعون الجواري . ومن هو مرسلكم أصدقني والا فلا تنجو من القتل »

فخاف الرجل واصطكت ركبتاه وارتعدت فرائصه وقال « اننا نبتاع الجواري لمولاتنا ابنة الاخشيد صاحب مصر »

فضحك الخليفة والتفت الى جوهر وهو يقول « ألا ترى التلون في كلامه ؟ . يقول انه يبتاع الجواري الحسان لابنة الاخشيد ولو قال انه يبتاعها للاخشيد نفسه لصدقناه » والتفت الى الرجل وقال « قل الصدق . . لماذا لم تقل انك تبتاع الجواري للاخشيد أو غيره من الامراء هل خفت ان يكون عليك من ذلك بأس»

قال « كلا يا مولاي بل أنا أقول الصدق . قد مر علي عدة اعوام وأنا

آتي القيروان بامرها لابتاع لها الجواري الحسان بالاثمان الباهظة »

قال « ماذا تفعل بهن ؟ »

فتوقف الرجل عن الجواب وبان الارتباك في وجهه لكنه خاف السكوت فقال « لتستمتع بهن »

فبغت الخليفة والقائد والحسين وأخذوا ينظرون بعضهم الى بعض فقال القائد « تشتري الجواري لابنة الاخشيد لتستمتع بهن هي ؟ »

قال « نعم يا سيدي . . . وهذا مشهور يعرفه أهل مصر لانها كثيراً ما تنزل سوق الرقيق في الفسطاط بنفسها على حمار فتساوم صاحب الرقيق على الجارية اذا اعجبتها وتشتريها لنفسها . واذا كانت لا تجد هناك ما يعجبها من الجواري الحسان تبعث بي في قافلة خاصة لهذه الغاية وتنفق في سبيل ذلك الاموال الطائلة »

فلما سمع المعز كلامه وصدق لهجته صدقه وهو مستغرب وأشار اليه ان ينصرف . فلما خرج التفت المعز الى قائده وقال « قد كنت منذ قليل أتردد في فتح مصر وأخاف جندها . وأما الآن فهان علي امرها لان بلداً بلغ من أهله الترف الى ان صارت المرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها لايخشى بأسهم . لان ذلك من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم[1] انما يلزمنا المال » والتفت الى لمياء

فتقدمت أم الامراء وأجابت عنها قائلة « ان ابنتنا لمياء قد قصت علي خبر المال الذي أشارت اليه وهو مضمون وإنما يحتاج الى نظر خاص »

فقال المعز « هل ترين بأساً من التصريح به بين أيدينا وليس فينا غريب .. قولي يا لمياء قولي . . »

(١) المقريزي ٣٥٢ ج ١

الفصل الرابع والاربعون

فج الاخيار

فتقدمت ووقفت وقفة رجل جسور وقالت « ان المال يا سيدي مخبأ في مكان بعيد . وكان قد خزنه عدوك هناك ليحاربك به . ولكن الله قدر ان يكون لك وتحارب به اعداءك وأنت ظافر باذن الله »

فاستغرب الجميع قولها وتطاولوا باعناقهم لسماع حديثها فقالت « سأقول لكم ما اعرفه. ولكن قبل كل شيء أرجو من أمير المؤمنين ان يوافقني على طلبي الاول وان كان لا يحسن بي التصريح به »

فعلم انها تشير الى تأجيل الاقتران فقال « أنا أوافقك ولكن الشأن في هذا الامر هو للحسين » والتفت اليه فوقف الحسين متأدباً . فقال له المعز « ان لمياء الشجاعة الباسلة تطلب تأجيل العقد الى ما بعد فتح مصر والتنكيل بالخائنين فماذا تقول ؟ »

قال « هذا ما كنت أتمناه ولم أجسر على طلبه أما وقد طلبته هي فأنا أوافق عليه وأشترط ان أكون في مقدمة المحاربين في هذا السبيل »

فقالت لمياء «طبعاً كلانا يجب ان يكون في مقدمة المحاربين . ولا أعني بالمحاربة استلال الحسام أو الهجوم على صفوف الأعداء فقط فان هناك عمالا تقدم على امتشاق الحسام سنأتي على ذكرها »

ثم وجهت خطابها الى الخليفة وقد ابرقت عيناها وبانت الحماسة في طلعتها وقالت « هل أقول ياسيدي ؟ »

قال « قولي بارك الله فيك . والله ان كلامك ليبث الحماسة في قلوب الرجال .. وقد هونت علي اقتحام الاهوال في سبيل الفتح .. قولي »

قالت « سمعت مولاي يقول اننا لا بد لنا قبل الاقدام على فتح مصر من شيئين هامين الاول المال والثاني استطلاع احوال القوم وقواتهم وداخليتهم . أما المال فاقص عليكم ما عرفته عنه ولذلك حديث سمعته عرضاً

من ذلك الخائن القاتل ولم أكن أفهم مغزاه . فلما ظهرت خيانته ادركت مكايده ـ علمت منه ان في جبل ايكجان من بلاد كتامة مكان يقال له فج الاخيار كان فيها بلد يسمى دار الحجرة بناه أبو عبد الله الشيعي وخزن الاموال فيه »

فلما سمع الخليفة اسم البلد تغير وجهه لانه تذكر بلاء أبي عبد الله في نصرتهم وكيف قتلوه . ولحظت لمياء ذلك فتجاهلت وأتمت حديثها قائلة « ولما قام ابو عبد الله بدعوة جدك المهدي رحمه الله وجمع كلمة القبائل في نصرته وتمكن من التغلب على اعدائكم أتى فنزلها وقسم البلد على كتامة ونادى بالامام المهدي خليفة وحمل اليه الاموال التي كانت مخزونة في جبل ايكجان . ولكن يظهر انه كان ينوي الخروج من الطاعة فضرب نقوداً جديدة لم يذكر فيها اسم الامام المهدي وإنما اكتفى بأن ضرب على أحد وجهي الدينار (بلغت حجة الله) وعلى الآخر (تفرق اعداء الله) وضرب على السلاح (عدة في سبيل الله) ووسم الخيل سمة (الملك لله) ثم ذهب الى سجلماسة في طلب المهدي وما زال حتى أتم الفتح وسلم الامر اليه . ويظهر انه ندم على عمله فبعث الاموال الى ايكجان سراً واختزنها هناك حتى يعود فيقلب ظهر المجن ويطلب الامر لنفسه. فعلم الامام بذلك وما زال عليه حتى قتله كما تعلمون لكنه لم يعرف خبر تلك الاموال فبقيت مطمورة هناك . ولعله اسر امرها الى ابي حامد اللعين فقام يسعى سراً في اخراج الملك من أيديكم على ان يفسد قلوب القبائل عليكم ويستعين بذلك المال عند الحاجة . وآخر مكائده قد فشلت أمس وانما أصابت المأسوف عليه والدي فهرب ذلك اللعين والاموال لا تزال في فج الاخيار . فاذا بعث المولى من يأتي بها اعانته في نصرة الحق . هذا ما أعرف من أمر الاموال »

ولم تتم كلامها حتى كلل العرق جبينها وبان الاهتمام في محياها والخليفة ينظر اليها ويتفهم كلامها . وقد اعجب بما كشفته من امرهذا السر العظيم فقال « بورك فيك يا لمياء اننا سنبعث في طلب ذلك المال . ولكنني أفكر

في مكيدة هذا الرجل كيف انطلت علينا وعلى والدك كل هذه الاعوام . . ان فضلك في كشف هذا السر يربي على فضلك في انقاذنا من القتل لانك اطلعتنا على مساع متواصلة لو نجونا من تلك المكيدة ولم نطلع عليها لظلت الدولة في خطر من مكيدة اخرى . أما الآن فسنتعقب الخائنين حتى نفنيهم بعد ان نأخذ اموالهم »

فاطرقت لمياء حياء عند سماع ذلك الثناء

فتصدى الحسين للكلام فقال « هل يأذن لي مولاي ان اذهب في طلب هذا المال ؟ »

قال « لك ذلك — ولكن هل علمت بما يعتور هذا العمل من المشاق ؟ ان جبل ايكجان في اواسط بلاد كتامة في البادية والذهاب اليه بعيد شاق »

قال « فليكن حيثما كان . . كل ذلك هين في خدمة أمير المؤمنين »

فضحك الخليفة ضحك الاستحسان

فقالت لمياء « هذا من حيث المال أما من حيث استطلاع دخائل القوم بمصر فأنا أقوم به »

فبغت الخليفة لهذا الاقتراح وقال « كيف تفعلين. أليس ذلك شاقاً عليك »

قالت « انه هين .. واستأذن مولاي ان لا يسألني كيف أصنع وإنما أتعهد له ان آتيه بالخبر اليقين وأرغب اليه ان يستزيدني بياناً »

فاستغرب القوم رغبتها في كتمان سعيها ولكنها لم تدع لهم باباً للاستفهام فسكتوا فقال الخليفة « لم يمر بي يوم اطلعت فيه على امور هامة مثل هذا اليوم — والفضل لك يا لمياء . بارك الله فيك وقواك في نصرة الحق . . »

الفصل الخامس والاربعون

الحسين ولمياء

وتزحزح الخليفة فنهض القائد وانصرف ومعه الحسين وانصرفت أم الامراء ولمياء من جهة أخرى . وعلمت أم الامراء ان لمياء تحب الاجتماع

بالحسين بعد ما وقع من الغرائب . وان الحياء يمنعها من طلب ذلك فلما وصلت غرفتها معها بعثت أحد الصقالبة يدعو الحسين اليها وأمرت لمياء بالجلوس . وأخذت تحادثها فى مادار من الحديث في تلك الجلسة وهي تريد استبقاءها ريثما يأتي الحسين

وبعد قليل جاء الصقلبي وقال « ان القائد حسيناً أتى »

فلما سمعت لمياء ذكره فأول ما تبادر الى ذهنها ان تنهض وتنصرف . فاقعدتها أم الامراء وقالت « الى أين ؟ »

فقعدت وهي ترتعد من تلك المفاجأة وأحست أم الامراء بذلك لما أمسكت يدها لتقعدها فانها كانت باردة كالثلج فقالت « ما بالك ترتعشين من سماع إسم الحسين ؟ ألا تزالين تفكرين في سواه ؟ ماذا جرى بمناظره القديم أين هو ؟ »

ولم تسمع لمياء ذلك حتي اقشعر بدنها وامتقع لونها وأخذها الغضب لتذكرها خيانة سالم . فاكتفت بالتنهد ولم تجب . فقالت أم الامراء « لم تقولى لى عن اسمه بعد . ألعله كان في جملة أولئك الخائنين ؟ أرجو ان يكون كذلك فنكون قد خلصنا منه »

فلم ترد لمياء على الاطراق وقد ترقرقت الدموع في عينيها وتذكرت ان الحسين يعرف سالماً من تلك الليلة . أما أم الامراء فقالت « لقد ابطأنا في الاذن للحسين في الدخول » والتفتت الى الصقلبي وقالت « يدخل »

وبعد لحظة دخل الحسين وهو لا يزال بثياب الركوب كما كان ساعة وصوله . دخل وهو لم يكن يتوقع ان يرى لمياء هناك وانما ظن أم الامراء تحتاج اليه في خدمة وكثيراً ما كانت تدعوه وتكلفه ببعض المهام . فلما دخل ووقع بصره على لمياء اجفل كما أجفلت هي ووقف فالقى التحية على أم الامراء ثم حيا لمياء عن بعد باحناء الرأس . فقالت أم الامراء « لا يلذ لى ان اراكما بعيدين وأنا قد بذلت الجهد فى جمعكما فانك ابن قائدنا وهذه لمياء ابنتي . ومع ذلك فقد جمت نفسي والدتك وقمت بتأدية المهر عنك »

قالت ذلك بلطف ومداعبة . فتلعثم لسان الحسين عن الجواب ولكن الامتنان بان في ملامحه

وتقدم نحو لمياء وهو يقول « ان لمياء ذات فضل كبير علي لانها انقذت والدي من القتل فلا أدري بما أكافئها »

فقالت لمياء « اني لم افعل شيئاً يستحق الذكر . واذا كنت قد فعلت شيئاً فهو في سبيل خدمة مولاي أمير المؤمنين الذي نفديه بارواحنا . ولا أراك أقل تفانياً في سبيل مصلحته مني . . »

فأشارت أم الامراء الى الحسين ان يقعد على وسادة أمام الوسادة التي كانت لمياء جالسة عليها واظهرت انها ذاهبة في أمر ذي شأن خطر لها فجأة . وهي انما فعلت ذلك رغبة في انفراد الحبيبين لانها وجدت نفسها ثقيلة بينهما . وكانت من أرق الناس أحساساً وأكثرهم تعقلا لا تفوتها ملاحظة . فهل شعر الحبيبان انها خرجت عنوة مراعاة لاحساسهما ؟ هب انهما أدركا ذلك لكن الحب يشغل المرء عن سواه أو أن صاحبه يرى ما يمر به من الاحوال مغشاة كأنه ينظر اليها من وراء حجاب — هو الحب . وقد يأتي في سبيل حبه اعمالا يحسبها خافية على الناس وهم يرونها باجلى مما يراها هو ولكنهم لا يقولون فيحسبهم غافلين

جلس الحسين وهو ينظر الى لمياء وهي مطرقة حياء وقد مر في خاطرها تاريخ حياتها منذ عرفت سالماً وكيف علقت به وتعشقته حتى أبت ان تجيب دعوة سواه . وتذكرت الليلة التي لقيت فيها حسيناً لاول مرة وما أبداه من الشهامة في معاملتها وكيف انتهت ليلتهم بفشل سالم وخطر لها حالا ما قاله الحسين عند وداعها من كتمان أمر سالم وانه عرفه وعفا عنه . وكيف انها رضيت بالحسين أولا طوعاً لامر سالم ثم أصبح هذا أعدى اعدائها . فأحست بانعطاف الى الحسين وأساس انعطافها الاعجاب بشهامته ومروءته

مر ذلك كله في خاطرها سريعاً والحسين جالس بين يديها ويهم ان يخاطبها ولا يعرف بماذا يبدأ . ثم خطر له ان يعزيها على والدها ويشجعها

فقال « لقد ساءني يا لمياء ما أصاب أباك الامير رحمه الله ولكننا سنثأر له من ذلك الخائن واعلمي اني غير راجع عنه حتى اذيقه حتفه »

فرفعت بصرها اليه وقد ذبلت عيناها وقالت « عرفت شهامة الحسين من قبل على غير تعمد . عرفته عفواً ولا أنسى تلك الاريحة التي قيدني بها لا أنسى قولك تلك الليلة وقد أدركنا ذلك الرجل الملثم وأوشك ان يقع فريسة – فأنقذته وطلبت كتمان أمره . . . »

فقطع كلامها قائلاً « لا أزال أريد كتمان أمره دعينا منه . انما أحب أن أعلم هل للحسين مكان عندك » قال ذلك وعيناه تبرقان , فرآها ساكنة ولحظ دمعتين انحدرتا على خديها خلسة فاحس بنار اتقدت في بدنه وهب جسمه كأنك صببت عليه ماء غالياً . فندم على سؤاله مخافة ان يكون في غير اوانه وهي في حال الحزن على أبيها فابتدرها قائلا « اظنني تعجلت في الحديث وانت في شاغل من امر والدك رحمه الله فاصفحي عن جسارتي . . . »

فمسحت عينيها بمنديل أخرجته من جيبها وقالت«ان حزني على والدي شديد لكن خطابك تعزية كبيرة لقلبي الكسير » وتنهدت والتفتت نحو الباب كأنها تحاذر ان يدخل أحد عليهما

فقال الحسين « هل في الدنيا أرق عاطفة وأطيب قلباً من هذه الملكة اني لا اظنها تركتنا وحدنا الا عنوة فلا ينبغي ان نضيع هذه الفرصة . هل أعددت للحسين مكاناً في قلبك ؟ . . »

الفصل السادس والاربعون

التعاهد

فتنهدت ورفعت بصرها اليه وهي تهم بالكلام فلم تستطعه فاطرقت وتشاغلت بمنديلها تطويه بين أناملها وقد تصاعد الدم الى وجنتيها . فلحظ تلبكها فاراد مداعبتها فقال « لم يكن عهدي بلمياء الفارسة الشجاعة أنها

ترتبك في حديث مثل هذا. ولكنني اقرأ الجواب في عينيك . لم أكن أجهل نظرك الي من قبل ونظرك الي اليوم . كنت أشعر أنك تساقين الى حبي كرهاً لعل قلبك كان مشغولا بسواي . . لا أدري . أما الآن فاني أقرأ شيئاً آخر في عينيك . انما اطلب اليك ان تقولي كلمة ونحن منفردان هنا باذن أم الامراء وهي لم تخل لنا المكان الا باختيارها . قولي هل تحبينني ؟ وانما أسألك ذلك لاننا سنفترق وربما طال فراقنا . فاذا سمعت منك الكلمة التي اريدها كانت لي ذخراً في أثناء الفراق أتعلل بها ريثما نلتقي »

فتنهدت ثانية وتجلدت وقالت « انك تقول عني وتعبر عن افكاري . أما لمياء الفارسة الشجاعة كما تقول انما تكون كذلك في حومة الوغي وأما في هذا الموقف فاني أسيرة مسكينة . سألتني سؤالا لا أجيبك عنه الا بعد أن تجيبني على سؤالي »

فاستبشر وقال « سمعاً وطاعة اني رهين اشارتك يا حبيبتى » قال ذلك وقد أخذ منه الهيام مأخذاً عظيما

قالت « اني أسألك هل تعاهدني على التفاني في مصلحة المعز لدين الله حتى ننتقم له أو نموت . »

فاعجب بتفانيها في حب المعز وكيف انها فضلت التعاهد على نصرته قبل كل شيء فقال « نعم اعاهدك ان اكون طوع ارادتك في كل شيء وهذا من الجملة . اني أحبك يا لمياء واعجب بخلالك ومروءتك . . كنت أحسبني مؤدياً ما يجب علي في خدمة أمير المؤمنين فلما رأيت ما أنت فيه من الغيرة عليه رأيتني مقصراً عاجزاً .. ها قد اجبتك على سؤالك فاجيبيني على سؤالى »

قالت « وما هو »

قال « تحبينني ؟ هل تعاهدينني على الحب حتى نلتقي ؟ »

قالت « نعم اني أحبك وهذا يكفي . وأما الثبات في الحب حتى نلتقي فانه متعلق بما نحن آخذون به من نصرة أمير المؤمنين. ونصرته هي واسطة

عقدنا . وقد تعاهدنا على ذلك ويسرني انك أخـذت على نفسك الذهاب الى جبل ايكجان لحمل الاموال المدفونة هناك . . ولـكن . . . » وسكتت وقد ظهر التفكير في عينيها

فقال « ما بالك . . ما الذي خطر لك حتى سكت . . اظنك خفت علي ما يعتور هذه المهمة من المشاق .. » قال ذلك ونظر في عينيها ففهم منها انها تجيب نعم . فقال « لا تخافي علي يا لمياء اني لا أهاب الموت ولا سيما بعد ان زودتني بتلك الـكلمة الثمينة . . انها ستكون تعزيتي في أشد ضيقي ـ وهي تشجعني في المخاوف .. لا تخافي علي من شيء . . »

فتنهدت وقالت « آه من الحب ما أحلاه وأمره ! ان الاحباء يبذلون كل مرتخص أو غال في سبيل الاجتماع أما نحن فنتعاهد على الفراق . ولـكن خدمة أمير المؤمنين واجبة .. اني أشعر بفضله علي واني يجب ان أنصره و .. » وسكتت وقد خطر لها أنهـا تطلب شيئاً آخر غير نصرة امير المؤمنين ـ تطلب الانتقام من ذلك الحبيب الخائن فلم يدرك الحسين مرادها وانصرف خاطره الى مهمتها فقال لهـا « قد علمت مهمتي الى فج الاخيار لحمل ما فيه من المال لـكنني لم أفهم مهمتك .. »

فتحركت واعتدلت في مجلسهـا وقالت « قد قلت لامير المؤمنين اني سأسعى في استطلاع دخائل المصريين واحوالهم وأني سأفعل ذلك بطريقة لا أقولها الآن .. لا تغضب يا حبيبي اذا لم أقل لك »

فلما سمعها تناديه « حبيبي » اختلج قلبه في صـدره ونسي ما كان يبحث عنـه ولم يشأ ان يستزيدها بل تهيب من الالحاح عليهـا . وكان منذ خاطبها وهو يشعر بسلطان لها عليه فلم يجسر على تكرار السؤال فقال « افعلي ما بدا لك وكفاني انك ناديتني بلفظ الحب وهذا تذكار سأحفظه ـ ربما لا يتاح لنا الاجتماع في مثل هذه الفرصة مرة أخرى قبل سفري . ولذلك فاني أحب أن لا تنقضي هذه الساعة . . ما ألطف أم الامراء وما اكثر فضلها »

قالت « ان هذه الساعة مباركة سنذكرها ما حيينا . وعسى ان يكون

اجتماعنا الثاني في مصر تحت ظل امير المؤمنين »

فاعجب بتعبيرها وكبر نفسها وشدة رغبتها في فتح مصر واستهانتها بفتحها وقال « ارجو ان نوفق الى ذلك ياحبيبتي . . إنها أمنية نتمناها جميعاً وخصوصاً أنا لان ذلك الاجتماع سيكون أكيداً لنا لا نخاف بعده فراقاً باذن الله اذ تكون لمياء حينئذ لي وأنا لها »

فقالت وهي تبتسم « ألا تشعر بارتياح عند تفكيرك بذلك النصر الا يلذ لك ان تتصور راية المعز تخفق على ضفاف النيل وقد امتد سلطانه الى هناك . . أما أنا فأ كاد أسكر بمجرد تفكيري بدخول جيش امير المؤمنين الى الفسطاط واسمع أهله يؤذنون بحي على خير العمل ويصلون على علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وسائر الأئمة الطاهرين . ولا بد ان ينصر الله أبناء فاطمة الزهراء فانها بنت الرسول وهم اصحاب الحق في الخلافة ولا بد ان يملكوا الدنيا كلها . . » قالت ذلك وقد اشرق جبينها وأبرقت عيناها كأنها منيت بنعمة لم تكن تتوقعها

فازداد اعجاباً بمروءتها وغيرتها وود لو تكون أم الامراء حاضرة لتسمع ما قالته لمياء ولكنه عزم ان ينقله اليها في فرصة أخرى فقال « انى احسبني أخاطب ملاكا هبط من السماء وأعد قولك وحياً لا بد من اتمامه باذن الله »

الفصل السابع والاربعون

أم الامراء

وهما في ذلك سمعا خفق نعال في الخارج عرفا أنها نعال أم الامراء . وسمعاها تخاطب أحد الغلمان بشأن من شؤون القصر .وهي انما تريدبذلك ان تنبه الحبيبين الى قدومها قبل دخولها عليهما حتى لا تدخل فجأة .وفي ذلك من دقة الاحساس وسلامة الذوق ما فيه

فاستعدا لاستقبالها ثم دخلت وهي تهش لهما وبادرت الى الاعتذار بان امير المؤمنين شغلها فلم تقدر على البقاء معهما . فقال الحسين « كم كنت احب ان تكونى هنا لتسمعي ما قالته لمياء .. أنت تعلمين تعلقي بمولاي امير المؤمنين وانا صنيعته وعبده وابن عبده لكنني رأيت من تعلق لمياء اضعاف ما اعرف في احد من الناس »

فضحكت ام الامراء وقالت « تعني تعلقها بك ؟ »

قال « كلا انما اعني تعلقها بامير المؤمنين والاستهلاك في خدمته حتى اشترطت علي ان اول شيء نتعاهد عليه انما هو التفاني في نصرته »

« فقالت « الم اقل انك لا تجد مثلها في القيروان ولا في المغرب كله ؟ »

فاجاب على الفور « ولا في مصر أو بغداد »

فظلت لمياء ساكتة من الحياء فنهض الحسين وودع ام الامراء ثم تقدم الى لمياء وقال « استودعك الله إلى ان نلتقي » ومد يده لمصافحتها

فمدت يدها ونظرت اليه وصافحته وهي تقول « في مصر ان شاء الله »

فوقع قولها وقعاً جميلا في اذني ام الامراء وفهمت منه ما يكفي . فاكبت عليها وضمتها وقبلتها وقالت « بارك الله فيك يا ابنتي يا حبيبتي لله انت من فتاة نادرة المثال »

ثم تحول الحسين وهو يقول « لا اظننى استطيع مثل هذا الاجتماع قبل سفرى الى فج الاخيار ومتى عدت اين أراك »

قالت « في الفسطاط في قصر مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل ان شاء الله »

فكان لقولها تأثير في قلب ام الامراء لما ينطوى عليه من التفاؤل الحسن مع التفاني الصحيح والتفتت اليها ثم نظرت الى الحسين وابتسمت وقالت « المراد ان تجتمعا وتسعدا معاً وذلك غاية ما يرجوه امير المؤمنين »

ثم أومأت الى الحسين مودعة فودعها وهم بالخروج وهو ينظر الى لمياء نظرة المحب الولهان ولم تكن هي أقل تأثراً منه لكنها قد هاجت فيها

عواطف الغيرة والنقمة فقالت له « الى أين يا حسين؟ »

فرجع اليها وقال « الى فج الاخيار »

قالت « وهل انت على بينة من مكانه وسائر أحواله ؟ »

فبغت من هذا السؤال وأطرق خجلا لانه كان عازماً أن يسألها عنه فشغل بذلك الحديث ثم رفع رأسه وقال « أعرف قليلا وسأبحث وأسأل . فهل تخبريني عنه شيئاً وهل تعرفينه ؟ »

قالت « لا أعرفه لاني لم أصل الى ذلك المكان لكنني أسمع انه في بلد بعيد في أواسط الصحراء من بلاد كتامة . ولا يهمني بعده وانما يهمني ما هناك من وسائل الدفاع عنه لاني كثيراً ما سمعت بما اتخذه أصحابه من الطرق لاخفاء الاموال وصيانتها »

فقطع كلامها قائلا « لا تبالي يا لمياء بشيء من ذلك . . فان ما رأيته من حماستك وغيرتك ومروءتك يصغر كل كبير ويهون كل صعب . . كوني مطمئنة » . ومد يده لمصافحتها وهو يقول « أعود فأودعك ثانية وأطلب اليك أن تفكري في أحياناً . وهذا يكفيني لنجاح مسعاي » ثم ودعها وخرج وهي تقول « سر بحراسة المولى فانه آخذ بيدك في نصرة الحق وكبت الظالمين »

الفصل الثامن والاربعون

الكتاب

وبعد خروجه أرادت لمياء أن تودع أم الامراء فأمسكتها وأقعدتها فقعدت وهي تنظر اليها كأنها تستفهمها عما تريده . فقالت أم الامراء « هذا الحسين قد عرفنا وجهته وخطته أما أنت فا . . »

فقطعت لمياء حديثها رغم ارادتها وقالت « أستأذنك يا سيدتي أن لا تسأليني عن ذلك »

قالت « ولماذا هذا التستر ؟ »

قالت « أرى فيه فألا حسناً . وماذا يهمك اذا عرفت خطتي أو وجهتي ؟ وانما يهمك أن آتي مولاى أمير المؤمنين بأخبار تلك الدولة »

قالت « ولـكن أمرك يهمني لئلا تلقي بنفسك في تهلـكة نظراً لما في مهمتك هذه من الاخطار مما يربى على مهمة الحسين »

قالت « لا تخافي يا سيدتي لان نصير أمير المؤمنين سلالة بنت الرسول لا بد من أن ينجيه الله وينصره على أعدائه . غير اني أتقدم اليك بأمر هو واجب بحد ذاته »

قالت « قولى ماذا تريدين »

قالت « ان يعقوب بن كاس اليهودى المقيم بمصر أرسل تلك الرسالة المستعجلة الى سيدي المعز لدين الله فهو صاحب فضل كبير . أليس كذلك ؟ »

فحنت أم الامراء رأسها اذعاناً للحق وقالت « نعم انه صاحب الفضل الا كبر ولولاه لنفذت حيلة ذلك الشرير »

فقالت « ألا ترين أن يكتب أمير المؤمنين كتاباً يشكره فيـه ليستمر على خدمته في مصلحة هذه الدولة ! »

قالت « صدقت وأظنه فاعلا ذلك »

قالت « مع من يرسل الـكتاب ؟ »

فانتبهت أم الامراء لغرض لمياء من هـذا السؤال فقالت « لا أدرى وأظنه يرسله مع أحد غلمانه في قافلة او بطريق آخر . . . وهل يهمك هذا الامر ؟ »

فقالت وهي تحك وراء أذنها « لا . . لـكن . . » وأطرقت

فقالت أم الامراء «قولى يا لمياء ماذا يخطر لك . . لا تخفي عنى شيئاً »

قالت « اريد ان أسارك في أمر يهمني حفظه مكتوماً . . هل افعل ؟»

قالت « افعلي ولا تخافي بعد ان ارتفع حجاب الهيبة من بيننا وأنت بمنزلة ابنتي تماماً كما قلت لك مراراً . بل لا أرى ابنة أو ابناً يعامل والديه بما تعاملينا به يا لمياء » قالت ذلك وبان الاهتمام في جبينها

فابتسمت لمياء وأبرقت عيناها عند سماع ذلك الاطراء وقالت « ان

سري يا سيدتي يتعلق بالطريق المؤدي الى خدمة امير المؤمنين »

قالت « قولي يا عزيزتي »

قالت « أحب ان اكون انا رسول امير المؤمنين الى يعقوب هذا . ولا أريد ان يطلع سيدى الخليفة على ذلك . . دبري طريقة »

فاستغربت ام الامراء هذا الطلب على هذا الشكل وقالت « وما هو غرضك من هذا التكتم ولماذا ؟ »

قالت « لعلمي ان السر اذا جاوز الاثنين شاع ولولا حاجتى الى مساعدتك في نيل الكتاب لكتمت هذا عنك . ولذلك أتقدم اليك بالحاح ان تكتمي خبري . وقد قلت لامير المؤمنين اني سأسعى في استطلاع حال مصر بطريقة لا احب ان يعرفها احد . وكنت اود ان افعل ذلك بدون ان اكاشفك بأمر الكتاب . فلا تسأليني يا سيدتى عن الاسلوب الذي سأتخذه في البحث . انما أتقدم اليك ان تستحثي سيدي امير المؤمنين على كتابة الكتاب واجعلي انك سترسلينه مع أحد الغلمان أو أوصي الرسول اذا أخذ الكتاب ان يأتي به اليك أو كما تشائين . والمراد ان تسلمي الي الكتاب وتطلقي سبيلي بدون ان يعلم أحد بجهة سفري »

فضحكت أم الامراء وقالت « اني لا احتاج في ما أطلبه من المعز لدين الله الى حيلة أو وسيلة وسأفعل ذلك اكراماً لخاطرك . . ولكنني سأشتاق الى رؤيتك فقد تعودت جوارك و . . » ودمعت عيناها

فأثر ذلك المنظر في لمياء وأحست بشيء يجتذبها نحو تلك المرأة فلم تمالك عن الترامي على كتفها وقد سبقتها دموع الامتنان . فضمتها أم الامراء الى صدرها وقبلتها وقالت لها « ولكن عسى ان تعودي سالمة ظافرة ويعود الحسين أيضاً فائزاً فتزفان في هذا القصر وننسى ما قاسيته من الشقاء .. »

فتجلدت لمياء واعتدلت وقد بانت الحماسة في عينيها وقالت « انما يكون ذلك في الفسطاط باذن الله »

فاعجبت أم الامراء بغيرتها وضحكت وضمتها ثانية وودعتها على ان تدبر أمر الكتاب

وانصرفت لمياء الى غرفتها وأخذت تفكر في ما هي مقدمة عليه من الامر العظيم ـ سفر وخطر وبعد وشوق ـ لكنها تجلدت واستحثت عاطفة الشجاعة وقالت في نفسها « لا بد لي من الصبر حتى انتقم لوالدي وأثأر لنفسي من ذلك الخائن الذي خدعني وأراد ان يجعلني ضحية مطامعه »

وسكتت وأطرقت وهي واقفة أمام المرآة تنزع ثيابها . وتصورت ما كان لسالم من المنزلة عندها نخفق قلبها وسبق الى ذهنها حسن الظن به فقالت « قد يكون ابن كلس منافقاً أو مخطئاً . . هل يمكن ان يكون سالم خائناً الى هذا الحد ويخدعني عدة سنين ؟. لا . لا . إذن كيف افسر عمله ؟ ولو كان صادقاً في حبه لم يوافق على الفتك بابي .. ولكن سأتحقق ذلك بمصر قريباً »

وكانت قد فرغت من نزع ثيابها فاستلقت على الفراش للراحة والتأمل وأجلت الحكم في كل شيء الى ما بعد وصولها الى مصر

وبعد بضعة أيام أتتها ام الامراء بكتاب المعز لدين الله الى يعقوب بن كلس . فتناولته وودعتها سراً وكان وداعاً مؤثراً . وكانت لمياء قد أعدت كل ما يلزم للسفر من الخدم والادلاء لان الطريق من القيروان الى مصر بعيدة الشقة لا تقطعه إلا القوافل وقد اعدت شبه بريد مؤلف من اربعة افراس مع ما يلزم من الخدم والحرس وجعلت ان ذلك البريد يحمل غلام امير المؤمنين الى مصر . ولما أتاها الكتاب تنكرت بثوب غلام صقلي وركبت ولا يشك من رآها في انها غلام الخليفة يحمل رسالة في مهمة . وسار الركب قاصداً مصر

الفصل التاسع والاربعون

الفسطاط

كانت الفسطاط عاصمة الديار المصرية ومقر الامارة منذ بناها عمرو بن العاص . فلما تولى احمد بن طولون جعل مقره في القطائع كما تقدم في

رواية احمد بن طولون . ثم ذهبت الدولة الطولونية وأفضت الامارة الى محمد الاخشيد فجعل مقره الفسطاط فعادت الى رونقها وزادت عمارتها وتزاحمت الاقدام فيها حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال . وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠٠ شارع مسلوك و ١١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن إيراده يدل في كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

أحن الى الفسطاط شوقاً وانني لادعو لها ان لا يحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها وفي كل قطر من جوانبها قطر
تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وبلغ من تزاحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع . وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ من الناس . وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠٠٠٠ دينار وهي دار الحرم لخمارويه

واشتهر من تلك الابنية دار ضرب المثل بعظمتها وغنى اهلها تسمى « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبون فيها اربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقة المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتعلا . وذكر رجل دخلها في أواخر القرن الثالث للهجرة في زمن خمارويه بن احمد بن طولون قال « طلبت بها صانعاً يخدمني فلم أجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتي وقيل لي ان كل صانع معه اثنان يخدمهما وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فاخبرت ان بها سبعين (كذا) صانعاً قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج »

وفي ذلك دليل على غنى أهل الفسطاط وترفهم ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يقتني أحدهم الف فرشة او عشرة آلاف فرشة . وذكروا ان رجلا من اهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل

فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها وقد تكون أثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم . قال القضاعي ان قطر الندى ابنة خمارويه كان في جملة جهازها الف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار - فاذا كان ذلك شأن الفسطاط في زمن آل طولون ودار الامارة في القطائع . فكيف بعد ان عادت دار الامارة اليها في عهد الدولة الاخشيدية ؟

وأشرفت لمياء على مدينة الفسطاط من جهة الشمال الغربي في صباح يوم صفا جوه فوقع بصرها على المدينة عن بعد فلفت اعجابها جامع عمرو في وسطها وحوله الابنية الكبيرة بينها المآذن العديدة . ووراءها النيل قد رست فيه السفن في ميناء الفسطاط من جهة الغرب . وبانت سواريها مصطفة كالرماح اذا تقلدها صف من الفرسان وقف بنظام . وبين الفسطاط والمقطم البساتين والغياض وفيها الاشجار الغضة وأنواع الرياحين والازهار . اجملها بين المقطم والخليج بستان الاخشيد او البستان الكافوري (في محل الازهر والسكة الجديدة من أبنية القاهرة اليوم) والى جنوبي الخليج ناحية المقس ومناخ المهراني وأرض الطبالة (وهي الاماكن التي عمرت فيها بعد ذلك الفجالة والظاهر والتوفيقية والازبكية وغيرها ، فأخذت لمياء تسأل دليل الركب عما يقع بصرها عليه من البساتين وهو يقص عليها . ثم استوقف بصرها بستان واسع فيه بقعة كالميدان قد نصبت فيها الخيام فقالت للدليل « ما هو هذا البستان ؟ »

قال « هو بستان الاخشيدي يا سيدي »

قالت « أراه جميلا . فلنعرج اليه للراحة ثم نواصل السير »

قال « لا يمكننا ذلك الآن ولو جئنا في غير هذا اليوم ربما استطعنا دخوله »

قالت « ولماذا »

قال « ألم تر يا سيدي الخيام المنصوبة في وسطه وعليها الاعلام ؟ »

قالت « بلى وما هي ؟ »

قال « هذه سرادقات نصبوها للامير كافور الاخشيدي صاحب مصر الآن لانه منحرف الصحة وأشارعليه طبيبه ان يقيم في الخلاء لعله ينتفع »

قالت « هل كافور هو أمير مصر الآن ؟ »

قال « نعم يا مولاي هو أميرها منذ عامين .. ونعم الامير »

فسكتت وتحولت الى مرتفع بجانب المقطم يطل على ما تحته الى النيل فاعجبها ما رأته من العمارة التي لا تعهـدها في القيروان ولا في غيرها من البـلدان التي مرت بها . ولفت انتباهها على الخصوص لمعان سطح النيـل وراء الفسطاط . ووراء النيـل بساتين الروضة والجيزة ووراءها الاهرام تناطح السحاب . وقد اكتنف النيـل على ضفتيه بساتين النخيل الباسقة تختلط رؤوسها برؤوس السواري البارزة عن السفن السابحة في مياه الفسطاط تحمل اليها الغلات والسلع وضروب الانسجة من كل صقع وبلد . فزادت رغبتهافي ان تصير هذه البلاد الى المعز لدين الله. وتصورت الخليفة قد دخلها فاتحاً ورفع اعلامه فوقها فاختلج قلبها فرحاً

الفصل الخمسون

الشيعة بمصر

ثم مالبثت ان عادت الى التفكير في المهمة التي قطعت تلك الصحراء من أجلها فـكان أول همها انـ تبحث عن منزل يعقـوب بن كلس ولـكنها أمرت صاحب الركب ان يسوق الافراس الى فندق أو خان فينزلون فيه . فاخذهم الى فندق قديم يعرف بفنـدق ابن حرمة بأول سوق العدسيين . وكانوا وهم يمرون في الاسواق لا يلفتون الانظار لـكثرة من يدخـل الفسطاط يومئذ من القوافل القادمة من الشام والعراق والمغرب والسودان وغيرها تحمل البضائع والغـلال والريش والصمغ والجواري والغلمان على

البغال أو الافراس أو الجمال – غير ما ينقل بحراً عن طريق النيل

وما زالوا حتى أتوا الفندق فامرت لمياء صاحب الركب ان يهتم بالافراس وهو لا يشك في أنها غلام . وبعد الاستراحة قليلا توجه همها الى السؤال عن بيت يعقوب بن كلس فطلبت صاحب الخان الى غرفتها فجاء فرحبت به وكانت قد بالغت في اكرامه ودفعت اليه اضعاف ما طلبه من الاثمان أو الاجور فاصبح طوع ارادتها فلما دعته اليها وقف بين يديها وأدهشه جمال ذلك الغلام الصقلبي وما في عينيه من الذكاء

وكان الخاناتي (صاحب الفندق) شيخاً لطيف المحضر قد عركه الدهر وشهد تقلب الدول على مصر من اواخر دولة آل طولون . وكان في جملة من شاهدوا الفتك بالطولونيين وخرائب القطائع . وعاصر الاخشيد لما جاء حاكماً ونزل الفسطاط . وكثيراً ما مر به النزلاء من سائر الطوائف والعناصر من الاتراك والارمن والشوام والمغاربة والفرس والشراكسة والسودانيين وغيرهم

وأصحاب الفنادق والخانات والقهوات ونحوها من الاماكن العمومية اقرب الى اللطف ودماثة الخلق من سائر طبقات العامة . لانهم يتعودون الصبر على الضيم وسعة الصدر باضطرارهم الى مسايرة الناس على اختلاف اهوائهم وطبائعهم . فيأتيهم السكران والمعربد والثقيل والبارد والمتكبر والمحتال وهم مضطرون بحكم الارتزاق ان يرضوهم كما يرضون سواهم . فاذا لم يكن فيهم استعداد للقيام بذلك هجروا تلك المهنة وعدلوا عنها الى سواها . واذا ظلوا فيها فلا تزال الحوادث تعركهم والتجارب تحنكهم حتى تصير اخلاقهم كالعجين ليناً ودماثة

فكان صاحبنا الخاناتي من هذا القبيل فلما رأى لمياء وهو يعتقد انها غلام صقلبي (وأكثر ما كان يأتي الصقالبة يومئذ من جهات المغرب) عرف انها قادمة من بلاد المغرب فضلا عما دله على ذلك من ملابس رفقائها وكلامهم . فقالت له « يظهر انك قديم في هذا البلد يا عماه »

قال « أنا يا سيدي قديم جداً »

قالت « وقد مر بك الوف من الزائرين من سائر الملل أليس كذلك ؟ »

قال وهو يمشط لحيته بأنامله « نعم يا سيدي اني اعرف من احوال الناس أكثر من شعر هذه اللحية » وضحك

فارتاحت لمجونه مع شيخوخته وهمت بالسؤال عما يفيدها فقالت « أتعرف رجلا اسمه يعقوب بن كلس »

فهز رأسه هز الاعجاب وقال « كيف لا أعرفه وهو من كبار رجال الدولة وقد رأيته أمس ماراً على بغلته . ويندر بين اليهود من يؤذن له بركوب البغال »

فقالت « وكيف أذن له بذلك »

قال« لان كافوراً اميرنا فتن بذكائه ومهارته فجعله من خاصته وعظمت منزلته عنده حتى اصبح لا يمضي أمراً إلا بتوقيعه »

فاستغربت ذلك وقالت « أين يقيم الآن ؟ »

قال « يقيم فى منزل فخم بجانب زقاق اليهود على مقربة من هذا المكان »

قالت « هل ترسل معي من يرشدني الى منزله ؟ »

فنهض الشيخ وقال « أنا اسير في خدمتك الى منزله »

فقالت « لا حاجة الى تعب سرك يكفي أن تدلني عليه من هنا »

فمشى وهو يظن انه يكرمها بهذه الخدمة وقال « لا . لا . بل امشي فى خدمتك يا سيدي . . ولهذا المنزل طريقان أحدهما قصير لكنه ضيق مظلم والآخر طويل منير جميل . . والاحسن ان نسير فى الطريق الطويل» قال ذلك ومشى وهو يتوكأ على عكازه

فأطاعته لمياء ومشت في أثره وهي بلباسها الخاص بغلمان الصقالبة ـ وانما اختارت ذلك اللباس لان اصحابه أقرب بوجوههم وأصواتهم الى النساء فلا يستغشها من يتوهم في صوتها غنة النساء . فمشيا بزقاق ينتهي الى رحبة واسعة رأت لمياء فيها الجماهير يتزاحمون ويتراكضون فسألته عن

المكان فقال « هذا جامع عمرو بن العاص يا سيدي »

قالت « قد سمعت به كثيراً وكنت أود ان اصلي فيه لكنني سأفعل ذلك في فرصة اخرى »

فقال « تفضل يا سيدي لأريك الجامع ثم نسير في طريقنا » ومشى أمامها مسرعاً وهو ممسك بطرف ثوبها كأنه يجرها الى هناك

ولم يكد يصل بها الى الباب حتى سمعت صوتاً ادهشها ورأت شيخاً واقفاً بالباب ينادي « معاوية خالى » فيرد عليه شيخ آخر في الجانب الآخر بمثل قوله ـ وهم يفعلون ذلك نكاية في الشيعة لانها تحتقر معاوية . فأحست لمياء عند سماع ذلك بغضب لانها تجل الشيعة اكراماً للمعز وأم الامراء. وحدثتها نفسها أن تصيح بالشيخين وتسكتهما فتذكرت انها غريبة وليس هذا وقت خصام . وهي تعلم تعصب حكومة مصر وأهل مصر يومئذ على الشيعة . لكنها كانت تسمع ذلك عن بعد فلما رأته رأي العين استغربته فتحولت عن باب الجامع والخاناتي يتبعها ويقول « ما بالك يا سيدي لم تدخل الجامع لتراه على الاقل ؟ »

فقالت « سأرجع للصلاة في فرصة أخرى . ولكن ما بال هذين الشيخين يناديان هذا النداء »

قال « يناديان بذلك إغاظة للشيعة »

قالت « ألعلك شيعى ؟ »

فصاح « استغفر الله . . لماذا تقول لى ذلك يا مولاي كأنك تريد أن توقعني في مصيبة ؟ »

قالت « ولماذا ؟ ألعل الشيعي كافر ؟ »

فأشار بسبابته على شفته السفلى كأنه يطلب سكوتها او يستمهلها في الجواب الى فرصة أخرى

فسكتت حتى اذا دخلا في زقاق منفرد قال الشيخ « احذر يا سيدي ان تجاهر بأمر الشيعة . . يظهر انك منهم . . »

فقالت « نعم أنا منهم وهل من بأس علي ؟ »

قال « كلا . . ربما هابوا لباسك وقيافتك . وأما الفقير اذا كان شيعياً ضربوه وأهانوه . وقد يضربون الكبراء ويسجنونهم ويهينونهم بلا شفقة »

فلما سمعت ذلك الكلام لم تمالك أن صاحت « ويل لهم . . . ألا يخافون الله »

فتقدم الشيخ وقال بصوت ضعيف « أنصح لك يا سيدي أن تغض النظر عما تراه ولا تعرض نفسك للاهانة »

فقالت « أليس في هذا البلد أحد من أهل الشيعة ذو مقام ؟ »

قال « بلى يا سيدي هنا رجل شريف من سلالة الحسين اسمه مسلم بن عبيد الله الشيعي فان الناس يهابونه ولا يتعرض له احد بسوء [1] لكن ما لنا ولهذا فقد دنونا الآن من زقاق اليهود وهذا منزل يعقوب بن كاس »

الفصل الحادى والخمسون

يعقوب بن كلس

تقدم الشيخ الى الباب ودقه بحلقة من الحديد في وسطه . فرد عليه البواب وفتح خوخة الباب وأخرج رأسه منها وهو يقول « من هذا »

فقال الخاناتي « ضيف يسأل عن المعلم يعقوب »

فأجال البواب نظره في الطريق فرأى لمياء واقفة بثوب الرجال فأعجبه هندامها فقال « تفضل يا سيدي . ان المعلم في المنزل » قال ذلك وفتح الخوخة على مداها وتنحى حتى دخلت لمياء بعد ان اشارت الى الخاناتي اشارة الوداع وابتسمت . فمضى الخاناتي معجباً بلطف ذلك النزيل الكريم

أما لمياء فأشار اليها البواب ان تقعد على مقعد في مندرة عند الباب وذهب لينادي يعقوب . وبعد قليل سمعت صوت يعقوب يقول لبوابه « اين الضيف »

(١) ابن خلكان ١١٠ ج ١

فاجابه « في المندرة »

ثم اقبل يعقوب على المندرة فوقفت له لمياء فحياها بلطف وقال « مرحباً بالضيف الكريم . تفضل اجلس » وجلس على كرسي بين يديهـا وهو ينظر الى نظافة ثوبها وهي تنظر الى سحنته وتتبين ملامحه فرأته على ابواب الكهولة وقد لبس الجبة والعمامة الصغيرة وأرخى سالفيه أمام أذنيـه . ويظهر من شكل أنفه وحاجبيه انه يهودي ولكن الشرر يكاد يتطاير من عينيه لفرط ذكائه وحدة ذهنه

فاول شيء تبادر الى ذهنها ان تطلب الخلوة به لكنه سبقها الى الكلام فقال « من اين الضيف ؟ »

قالت من بلدة بعيدة « هل تأذن بخلوة ؟ »

قال « نحن في خلوة »

قالت « بل اريد خلوة ابعد عن ابصار الناس ومسامعهم »

فعرف من لحن صوتها انها من بلاد المغرب وحدثته نفسه لاول وهلة ان يكون لمجيء هذا الصقلبي علاقة بكتابه الى المعز . وكان ينتظر ورود الجواب عليـه كل يوم . فلما طلبت الخلوة نهض ومشى أمامها في حديقة كبيرة الى مصطبة صعد عليها الى بيت دخلا غرفة منفردة منه وأوصى يعقوب ان لا يقرب احد من بابه

وفي تلك الغرفة بساط من السجاد ومساند ومقاعد . فاشار يعقوب الى ضيفه ان يقعد على الوسادة . وجلس هو بين يديه وعيناه شائعتان ليرى ما وراء هذه الخلوة فقالت لمياء « أني رسول اليك من الامام المعز لدين الله »

فلما سمع يعقوب اسم الخليفة تأدب في مقعده مبالغة في الاحترام وقال « مرحباً بك يا سيدي . . كيف امير المؤمنين كيف صحته »

قالت « ان مولاي امير المؤمنين بعثني اليك لاحمل شكره لك ورضاءه من رسالتك التي أنفذتها اليه »

قال ارجو ان تكون قد اتت بفائدة . . وأنا في قلق لان رسولي لم يعد بعد »

فقالت « وان يعود لانه قتل »

فاجفل وقال « وكيف وصلت الرسالة الى الخليفة ؟ »

قالت « وصلت بالاتفاق الغريب . . انا اوصلتها الى امير المؤمنين وهو على وشك الوقوع في الفخ (وتنهدت لانها تذكرت مقتل والدها » ولكن وصول الرسالة نجاه وحاشيته من الموت »

فأبرقت اسرة يعقوب من نجاح مهمته لما يتوقعه من الارتقاء على أيدي الفاطميين وقال « وكيف حدث ذلك . الا تقص علي الخبر .. قل بالله قل »

قالت « أحب قبل كل شيء ان اكاشفك بسر آخر يخصني »

قال « تفضل يا سيدي »

قالت « أنت تخاطب فتاة لا رجلا »

قال « أصحيح ذلك ؟ قد توسمت في هذا الصوت لطف النساء لكنني رأيت في هاتين العينين قوة الرجال .. أما وقد أطلعتني على هذا السر فهل تتممين جميلك وتفصحين لي عن حديث رسولي وكيف وصلت الرسالة اليك ؟ »

قالت « لذلك حديث طويل سأقصه عليك باختصار وفيه اشياء كثيرة لا تهمك ولكنني سأقولها لك وثوقاً بذمتك واعتماداً على غيرتك وشرفك لاستعين بك في بعض الامور التي تهمني شخصياً »

قال « قولي يا سيدتي وثقي اني خزانة أسرار واني أبذل كل ما في وسعي للاخذ بيدك في كل ما تريدينه »

فأخذت تقص عليه خبرها مع سالم مختصراً الى أن غلب أبوها على بلده وصار في حوزة المعز وكيف خطبها لابن جوهر وما ظهر من كيد أبي حامد حتى فشل على يده بوصول الرسالة . وكيف قتل رسوله وقتلت هي قاتله . وانها قادمة لاستطلاع الاحوال وللانتقام لنفسها الى آخر الحديث . وهو

مصغ كل الاصغاء فلما فرغت من حديثها قال لها « أنت إذن لمياء المسكينة »

قالت « نعم أنا لمياء ولكنني لست مسكينة لاني سأنتقم لنفسي من ذلك الخائن الغادر » قالت ذلك وحرقت اسنانها وبان الغضب في عينيها وأدرك يعقوب انها فتاة ليست كسائر الفتيات فقال لها كوني على ثقة اني أبذل وسعي في سبيل رضاك . ان أمة في نسائها فتاة مثلك أحر بها ان يتسع سلطانها وستقيمين هنا وتعرفين كل شيء في مدة قصير »

قالت « بلغني ان في هذا البلد رجلاً من الشيعة اسمه مسلم بن عبيد الله هل تعرفه ؟ »

قال « انه من أعز اصدقائي وهو الذي حبب الي الاخذ بناصر الشيعة مع اني اسرائيلي لكني صرت اعتقد ان الحق بجانب الامام علي »

فهزت رأسها وقالت « الحق يعلو ولا يعلى عليه وسوف يظهر اصحاب الحق ابناء بنت الرسول » قالت ذلك ومدت يدها الى جيبها وأخرجت لفافة من الحرير استخرجت منها رقاً ملفوفاً وقدمته اليه وقالت « هذا كتاب من أمير المؤمنين اليك » ثم استخرجت حجراً من الالماس كبير الحجم كان قد وقع للمعز في بعض غزواته وهو يساوي بضعة آلاف دينار وقالت « وهذا هدية من مولاي الخليفة اليك »

فتناوله وقبله وفض الكتاب وقرأه فاذا فيه :

« من المعز لدين الله امير المؤمنين الى يعقوب بن كلس

« أن اخلاصك الصحيح قد تأكد لنا من رسالتك التي وصلتنا في ابان الحاجة اليها فوجب علينا شكرك وقد بعثنا اليك هذا الشكر شفاهاً مع رسولنا حامل هذا الكتاب . وسنذكر لك هذه الاريحية والغيرة الحقيقية في وقت يكون لك منه نفع صحيح . واذا زدتنا من عنايتك وصدق اخلاصك تضاعفت يدك لدينا والله يتولاك بنعمته »

*

الفصل الثانى والخمسون

مسلم بن عبيد الله الشيعي

فلما أتم القراءة قبل الكتاب ووضعه على رأسه ثم اعاده الى اللفافة وخبأه في جيبه فنهضت لمياء فأحس يعقوب أنها تريد الذهاب للتعرف بمسلم بن عبيد الله الشيعي فنهض ومشى بين يديها فقالت « ألعل منزل الشريف بعيد من هنا »

قال هو جارنا لا نحتاج في زيارته الا الى خطوات قليلة بعد خروجنا من هذا الزقاق » فاغتنمت وجودها معه في الطريق وقالت « لم أحادثك بشأن سالم بعد »

فقال « لا حاجة الى زيادة الايضاح يا سيدتي كوني مطمئنة »

ولم يسيرا طويلا حتى وصلا الى بيت مسلم المذكور فتقدم يعقوب فطرق الباب وخاطب البواب . فلما عرفه فتح له ورحب به . ودخلت لمياء معه ومشى في الحديقة أمامها حتى بلغ خبر قدومه الى مسلم فناداه من الداخل « ادخل يا معلم »

فاسرع يعقوب اسراع المحتفي بمخاطبه وقال « لست وحدي يا سيدي ان معي ضيفاً تسر بمشاهدته »

فقال « تفضل ومن معك »

وكانت لمياء قد صارت على مقربة من باب الغرفة التي فيها مسلم فحالما وقع بصره عليها تزحزح من مكانه كأنه يهم بالنهوض فاسرع يعقوب اليه واقعده وهو يقول « لا تقم يا سيدي »

فقال « أهلا وسهلا بالقادم .. من معك ؟ »

قال « رسول ابن عمك صاحب القيروان »

فقال « من أمير المؤمنين المعز لدين الله ؟ » قال ذلك ووقف وهو يقول « فلماذا منعتني عن الوقوف ؟ ان كنت لا أقف لرسول صاحب

الحق فلمن اقف » وترقرت الدموع في عينيه فرحاً

فاكبت لمياء على يده فقبلتها وهي تقول « العفو يا سيدي هذا اكرام لا أستحقه »

فقال « بل يجب علي الوقوف اكراماً لابن عمنا صاحب القيروان . طالما تمنيت ان أحظى بهذه اللقيا . . كيف فارقت امير المؤمنين ؟ » وقعد وهو يشير اليها بالجلوس فجلست متأدبة وقالت « فارقته في خير وسلامة . . ان قلبي يطفح سروراً بهذه المقابلة في هذا البلد البعيد »

وأشار مسلم الى يعقوب فقعد وهو يقول « وازيدك علماً يا سيدي ان هذا الرسول فتاة تتفانى في نصرة امير المؤمنين . وقد كانت السبب في حفظ حياته من كيد الكائدين »

فقال « وكيف ذلك يا يعقوب ؟ »

قال « ألا تذكر يا سيدي ما قصصته عليك عن المكيدة التي كادها بعض الخونة للفتك بابن عمك حفظه الله ؟ »

قال « بلى وعلمت انك بعثت رسولا ينذره بذلك »

قال « نعم ولكن الرسول قتل قبل وصوله الى القيروان فأتيح لهذه الباسلة ان تتناول الرسالة وتوصلها الى صاحبها . ولو تأخرت لحظة لنفذت حيلة اولئك الكائدين » وقص عليه الخبر باختصار

فلما علم بما تكنه جوارح لمياء من الغيرة على الشيعة وعن غرضها من القدوم الى مصر قال « بارك الله فيك يا بنية . . كيف فارقت امير المؤمنين ؟ »

فطمأنته عنه وأخبرته بما اوتيه من النصر وما ترجوه من تغلبه وفوزه . فابرقت اسرته وقال « الحمد لله الذي نصر قومه ونتوسل اليه تعالى ان يتم فضله علينا وينقذنا من القوم الظالمين . . . ألم يعزم الامام على القدوم الينا ؟ »

قالت « انه فاعل باذن الله . وانما جئت لاستطلع الاحوال وأرى حال الشيعة في هذه البلاد »

فتنهد تنهداً عميقاً وقال « ان شيعتنا في ضنك شديد . ان هؤلاء الظالمين يسومونهم مر العذاب من الاهانة والضرب والحبس بسبب وبلا سبب . . . »

قالت « قد تفطر قلبي لما شاهدته من ذلك في هذا الصباح وأنا قادمة الى منزل المعلم يعقوب . . رأيت شيخين جالسين بباب المسجد يصيحان» معاوية خالي « يقولان ذلك بكل وقاحة »

فقال « لم تر شيئاً بعد يا بنية .. ان شيعتنا مغلوبون على أمرهم يذوقون العذاب ألواناً من الحبس والقتل »

فقالت « الحبس والقتل ولماذا ؟ »

قال « بغير سبب . . . انهم يسومون شيعتنا ذلك لانهـا تجل ابناء الرسول .. لو قصصت عليك بعض الخبر لبكيت على حالنا »

قالت « أحب أن أعرف شيئاً أنقله الى مولاى أمير المؤمنين لعله يعجل خطواته في انقاذهم »

قال « اذكر لك مثالا صغيراً من مظالمهم . كان في الفسطاط منذ سنوات رجل من الشيعة اسمه ابن أبي الليث الملطي بلغ خـبره الى صاحب مصر فبعث في طلبه فحملوه اليـه فامر بضربه فضربوه مئتي سوط ووضعوا في عنقه غلا ثقيلا وحبسوه وجعلوا يبصقون في وجهه وهو في السجن حتى مات رحمه الله » قال ذلك وغص بريقه فلم تمالك لمياء عن البكاء

فاستأنف مسلم الحديث بعـد ان بلع ريقه وقال « يكتفوا بموته . . فبعد ان دفنوه نهضت جماعة ممن لا اخلاق لهم وهموا بنبشه في قبره [1] هل سمعت بافظع من ذلك . . هذا مثال صغير مما قاساه الشيعة في هـذا البلد . . وناهيك بما نسمعه بآذاننا من الاهانات والنكايات . فانهم يتعرضون للمـارة فيطلبون من أحـدهم ان يقول « معاوية خالي » أو « معاوية خال علي » فاذا لم يقل أهانوه أو قتلوه »

(١) المقريزى ٣٤٠ ج ٢

الفصل الثالث والخمسون

الحيرة

كانت لمياء تسمع ذلك القول وبدنها يقشعر وعيناها تذرفان الدموع ومسلم يغص بريقه من فرط التأثر ويعقوب يظهر التألم مما يسمعه . ثم تصدت للكلام وقد ابرقت عيناها من التفكير وقالت « لا تحزن يا سيدي قد دنا الوقت لانقاذ هذه الشيعة المظلومة .. ان الله مع الصابرين »

فتنهد الشريف مسلم وقال « لقد طال صبرنا يا بقية ولا نظننا نصل الى ثماره ـ كأنه قد كتب علينا الاضطهاد وكتب على الخلافة ان تبقى في غير اهلها لحكمة لا نفهمها »

فقالت لمياء « أليست الخلافة الآن في بيت الرسول بالقيروان . انها ستبقى فيهم مدى الزمان . . قد كتب لهم النصر ولا يمضي كثير حتى ترى اعلامهم تخفق على سائر البلدان باذن الله »

وكانت لمياء تتكلم ومحياها يشرق سروراً كأنها تقول ما تقوله عن ثقة . فاعجب الشريف بما بدا من حماسها وقال « ان وجود مثلك بين انصارنا يبشرني بفوز عظيم »

قالت « أنا مسكينة حقيرة . انما الانصار هم القواد والامراء وفيهم جوهر الصقلي الذي دوخ المغرب بسيف العبيديين . . . ان ذلك الفتح سيكون على يده وأيدي الامراء من كتامة وصنهاجة وغيرهم من البربر الذين باعوا انفسهم في سبيل الحق » ثم اعترضت مجاري افكارها صورة أبي حامد وسالم وما كان من كيدهما حتى قتل ابوها فانقبضت نفسها وسكتت وهي مطرقة تفكر في سالم وانها تحب ان تطلع على حقيقة حاله وتود ان تسمع خيانته بأذنها وعلمت انه لا يستحسن ذكره بين يدي الشريف فرأت ان تستأذن في الانصراف حتى تخلو بيعقوب وتطلب منه ذلك .

فتزحزحت واظهرت أنها تحب الذهاب فاستوقفها الشريف قائلا « الى اين يا ابنتي ؟ انك ستقيمين عندنا بين اهلنا على الرحب والسعة »

فقطعت كلامه قائلة « كان يجدر بي ذلك وهو حظ كبير لى ولكنني لاسباب قهرية لا اقدر على الاقامة هنا . وأتوسل اليك بجدك سبط الرسول ان تكتم امري عن كل انسان حتى عن اهلك فهل تعدني بذلك ؟ »

قال « نعم كوني مطمئنة . والآن الى اين تذهبين ؟ »

قالت « اني سائرة مع المعلم يعقوب وسأذهب الى الخان او غيره كما يتفق ولا غنى عنك في كل حال فاذا بدت لنا حاجة اسرعنا اليك . فادع لنا الآن »

فقال « بحراسة المولى . . ومهما يخطر لك من امر فانك تجدينني ملبياً مطيعاً . ولا حاجة بى ان اوصيك بالتكتم لاني رأيت من حزمك وتعقلك ما يضمن ذلك »

ثم قبلت لمياء يده وخرجت وخرج ايضاً يعقوب . ولما صارا خارجاً قال يعقوب « الى اين يا لمياء الآن ؟ »

قالت « قد استأنست بك يا سيدي ولعل السبب في ذلك انك مطلع على بعض امري من قبل أن نتقابل » وتنهدت وسكتت

الفصل الرابع والخمسون

يعقوب وكافور

فلحظ يعقوب أنها تعني خبرها مع سالم وكان يعقوب قد اخلص النية للمياء لانها وقعت من نفسه موقعاً عظيماً وأعجب بما رآه من صدق غيرتها ومروءتها وهو شريكها في غرضها السياسي . أي انه يرى ابدال الدولة الاخشيدية بالفاطمية ليس حباً بالشيعة او انتصاراً للحق لكنه كان ذا مقام عند كافور وكان يتوقع انقلاب الاحوال ولا سيا بعد مرض كافور وقد اسر اليه الطبيب ان كافوراً سيموت قريباً . وهو يعلم تغير قلوب

الاخشيدية واضطراب أحوالهم . فرأى ان يصادق الفاطميين فيمسك الحبل من الطرفين . ونظراً لثروته ووجاهته كان يخاف مطامع الاخشيديين وهو يرى قرب زوال دولتهم من ضعفهم . فلم ير بأساً ان يكون وسيلة لنقل هذا الوادي الى دولة جديدة فتية فاذا جرى ذلك على يده أتته المنافع من وجوه كثيرة

وعدوه اللدود في ذلك الحين ابن الفرات الوزير . وكان يعقوب يخافه على الخصوص اذا مات كافور لانه كان يحسده على منزلته عند كافور وينافسه على النفوذ . اما كافور وهو امير مصر فكان يقرب يعقوب ويكرمه وقد جعله موضع ثقته . فلما اشارت لمياء الى امر سالم ورغبتها في استطلاع حقيقته رأى ان يسهل عليها ذلك وأن يطلعها على الاحوال من حيث السياسة وأحزابها فقال « أظنك تعنين امر ذلك الخائن »

وعلمت انه يعني سالماً فاجفلت ولم تطق ان تسمع تلقيبه بهذا اللقب مع انها حكمت عليه بالخيانة من تلقاء نفسها . لكن ما رسخ في قلبها من حبه لا يزال له صدى في خاطرها ربما تتحقق الامر فقالت « اسمح لي يا سيدي ان اعترض على ما ذكرته عن سالم فانه يشق علي ان اسمعه وان كان صحيحاً . وزد على ذلك اني لم اتحققه بعد »

فقال « اما انا فقد تحققته كما ذكرت في كتابي الى المعز لدين الله »

قالت « أليس من سبيل الى تحقيق ذلك بنفسي ؟ »

وكانا قد خرجا من الزقاق واقتربا من منزله وسمعا المؤذن في جامع عمرو يؤذن صلاة الظهر . فقال يعقوب « هذا وقت الغداء فلندخل الى منزلنا نتغدى ثم ننظر في هذا الامر »

دخل منزله وهي في اثره فامر غلامه ان يهيء المائدة في المندرة ولم يحضر معهما احد من اهل يعقوب ـ ذلك ما ارادته لمياء . وبعد الغداء جلسا وكل منهما يفكر في امره ويعقوب يدبر وسيلة لاجابة طلبها . وهما في ذلك طرق الباب وأتى الخادم يقول « الطبيب شالوم بالباب »

فلما سمع اسمه ابرقت اسرته كأنه كان في ضيق وأفرج عنه وقال

للخادم « ادخله الى ردهة الاستقبال ريثما آتي »

وبعد خروج الخادم قال يعقوب للميـاء « تعبت وأنا افكر في اجابة طلبك بحيث أريك خيانة ذلك الرجل فأتى هذا الطبيب ففتح باب الفرج »

قالت « من هو ؟ »

قال « هو طبيب الامير كافور يتردد عليه كثيراً ولا سيما في هـذه الايام بسبب انحراف صحته . ولـكافور ثقة في علمه وطبه وكانا صديقين قبل ان صار هذا العبد اميراً »

قالت « أي عبد تعني »

قال « اعنى كافوراً ألا تعلمين انه عبد ! فلا بد اذاً من ان اقص عليك خبره ليتيسر لك تفهم احواله . اعلمي يا بنية ان كافوراً هذا كان في شبابه عبداً لبعض اهل مصر ثم اشتراه محمد بن طغج الاخشيد مؤسس هـذه الدولة هنا منذ بضع وأربعين سنة فخدم عنده وترقى في خدمته حتى صار أتابك ولديه أي مربياً لهما . وصار يعرف بالاستاذ كافور . وتمكنت قدم الاخشيد بمصر وصار اميراً مستقلا تحت رعاية الدولة العباسية كما هي حالنا الآن وتقدم كافور معه . وتوفي محمد الاخشيد سنة ٣٣٤ ﻫ فخلفه ابنـه الاكبر انوجور ومعناه بالعربي (محمود) فزاد نفوذ كافور في الدولة لانه كان مربياً لانوجور فصار وزيراً له فقام بتدبير دولته احسن قيام . ولما توفي انوجور سنة ٣٤٩ تولى بعده أخوه علي بن الاخشيد فاستمر كافور على وزارته او نيابته حتى توفي منذ سنتين (٣٥٥) فلم ير بين الاخشيديين من يليق بالحـكم »

ثم خفض صوته وقال « ولعله طمع بالاستقلال فاحتال في اظهـار خلعة قال انها جاءته من العراق ـ وهي شارة الولاية عندهم يرسلها الخليفة العباسى لـكل وال جديد فيلبسها باحتفال شائق . وزعم انه لقب بأبي المسك فاستبد بامور الدولة واستوزر رجلا شديداً اسمه ابو الفضل جعفر ابن الفرات هو وزيره الآن ولولا ابن الفرات هـذا لـكان كافور من احسن الامراء

فاعجبها ما سمعته عن اصل هذه الدولة ومن هو كافور لكنها ما زالت تحب ان تستزيد من خبره فقالت « قلت ان كافورا كان عبداً وهل تعني انه كان اسود اللون أو هو مملوك ابيض ! »

فقال « هو اسود اللون شديد السواد بصاصاً . لكن سواده لم يمنع من خضوع القوم له وان لم يخضعوا جميعاً . . قد طال بنا الكلام والطبيب شالوم في انتظارنا . لكن لا بأس من اتمام الحديث باختصار اذ ربما لا نقدر على ذلك في حضوره . . » قال ذلك ونهض فنهضت لمياء معه فأتم حديثه وهما واقفان فقال « اعلمي يا لمياء ان امراء هذه المملكة وجندها الآن قسمان قسم مع كافور ينصرونه ويأخذون بيده ويقال لهم الكافورية. وقسم مع آل الاخشيد ويعدون كافوراً مختلساً ويقال لهم الاخشيدية وهم كثيرون . والنقطة الهامة اليوم ان كافوراً مريض ولا ندري هل مرضه خطر أم لا . فاذا انتهى هذا المرض بالموت فان احوال مصر تضطرب وتتضعضع اذ ليس من يتولى الامارة من اصحاب الحق بعده الا غلام لا يتجاوز عمره ١١ سنة ــ وسنعرف حال كافور او صحته من الطبيب شالوم هيا بنا اليه »

قال ذلك ومشى فمشت لمياء معه وهي تتأمل في ما سمعته عن اضطراب احوال هذه الدولة وقد استبشرت بنجاح مهمتها

الفصل الخامس والخمسون

الطبيب شالوم

وأطلا على الطبيب شالوم في ردهة الاستقبال فتقدم يعقوب مسرعاً نحوه ولمياء وراءه تمشي الهوينا لتبقى بعيدة ريثما يدعوها . لكنها جعلت تتفرس بالطبيب عن بعد فاذا هو كهل والذكاء يتدفق من عينيه وعليه زي الاطباء في ذلك العصر وألبسته ثمينة لتقربه من امير البلاد وحظوته

عنده . وحول خصره منطقة مذهبة فيها دواة من عاج وقد التحف رداء كالعباءة من حرير عنابي اللون . وعلى رأسه كساء كالقبعة او الطاقية عليها طراز مزركش وقد ارسل لحيته وسالفيه بلا هندام كما كان يفعل كبراء اليهود

وكان شالوم جالساً على وسادة في صدر القاعة وفي يده كتاب يطالع فيه باهتمام . فلما سمع خطوات يعقوب نهض وحياه وابتسم له والاهتمام باد في عينيه فدعاه يعقوب للجلوس وهو يقول « ما لى أرى حبيبنا شالوم في شاغل ؟ ما هذا الكتاب ؟ »

وقبل أن يجيبه لمح لمياء بلباس الغلمان في الحديقة واقفة تتلاهى بقطف زهر وهو يعرف غلمان يعقوب فاستغربها . وأدرك يعقوب استغرابه فابتدره قائلا « هذا غلام صقلبي جاءني برسالة في هذا الصباح »

قال « من اين ؟ يظهر لى من زيه انه من بلاد المغرب . فهل أتاك برسالة من صاحبك المعز ؟ »

فعض يعقوب على شفته السفلى اشارة التكتم وقال « صاحبي ! وهل تعتقد ذلك فيّ ؟ وأنا في خدمة الامير كافور . . ما لنا ولهذا . . قل لى . رأيتك تقرأ في هذا الكتاب باهتمام .. اقعد . . قل ما هو سبب اهتمامك ؟ كيف صحة مولانا ؟ »

فقعد وقعد يعقوب بين يديه فقال الطبيب « ان صحة الامير في خطر وقد أعيتني الحيل في تطبيبه . وهذا كتاب جاءنى أمس ألفه طبيب من اشهر اطباء العراق . . »

فقطع يعقوب كلامه قائلا « اظنك تعني الرازي فهل هـذا كتابه الحاوي »

قال « هو جزء منه يتعلق بالعلة التي يشكو الامير منها »

قال « هل وجدت شيئاً جديداً »

فأومأ برأسه نحو الاعلى ان « لا »

فقال يعقوب « فانت اذاً يئس من شفاء الامير ! »

قال « تقريباً »

فأطرق يعقوب وبان الانقباض في جبينه وعرف الطبيب سبب انقباضه فقال له « انت الآن تنظر في ما سيؤول اليه أمرك اذا مات هذا الرجل . . كم قلت لك ان تساير الوزير ابن الفرات وتداجيه فانه شديد الوطأة حسود وله مطمع لا يخفى عليك »

فتنهد وقال « انه لا يداجى . . ولا فائدة من مداجاته لان الحسد يعمي ويصم » وأطرق وهو يعمل فكرته ثم قال « لا أبالي به . . ان الامر لا يطول في يده بل أنا لا أرى مصر يطول امرها في قبضة هذه الدولة و . . » وتوقف عن الكلام بغتة

فلم يفت الطبيب ما جال في خاطره فقال « لماذا تداجيني يا يعقوب ! ونحن قد شبنا معاً ومصلحتنا في هذا الامر مشتركة . . لما دعوت المعز صاحبك غضبت . . لا ينبغي لنا أن نتداجى وهؤلاء القوم وان قدمونا وأكرمونا فانهم يكرهوننا ولولا حاجة هذا الامير الاسود الى طبي لما هش لى ولا كلمني . وأنت مع طول عشرتك له منذ توليت عمارة داره وأنت شاب حتى صرت ملازماً لبابه ثم أجلسك فى ديوانه الخاص وصرت تخدمه وتتولى اعمال الحسابات وتدخل بين يديه فى كل شيء فانه لا يحبك وانما هو في حاجة الى عقلك وتدبيرك . هل غرك انك كيفما دخلت او خرجت وقف لك الحجاب والاشراف ! انه انما فعل ذلك لانك خدمت مصلحته باخلاص وغيرة ولم تطلب منه مالا . وأنا اعلم الناس بالمال الذي رددته عليه ولم تأخذ منه الا القوت . فانت الآن موضع ثقته لا يمضي دينار ولا درهم الا بتوقيعك[1] ومع ذلك هل تظنه يحبك ؟ انه لا يقدر ان يحبك ولا ان يحبني .لا اقول ذلك لانك لا تعلمه بل أنا على يقين انك اعلم بهمني ولكني قلته لاسهل عليك التصريح لى بما تحاول كتمانه عني وأنا أتوسمه فيك »

وكان يعقوب يسمع كلامه ويعتقد صحة كل كلمة منه ويعلم ان ميله الى الفاطميين لم يخف على صديقه الطبيب . وهو لم يفعل ذلك ليغدر بمولاه كافور ولكنه توسم قرب سقوط هذه الدولة ويعلم ان ابن الفرات يكرهه

(١) ابن خلكان ٣٣٤ ج ٢

حسداً منه لتقدمه وانه حالما يموت كافور يصبح هو في خطر على ماله وحياته لذلك احب ان يصل حبله بحبل الفاطميين مع البقاء على ولاء كافور لكنه كان يشق عليه ان يصرح بذلك بين يدي احد . فلما سمع تصريح الطبيب شالوم هان عليه الدخول في الموضوع فقال « أراك يا صاحبي سيء الظن في هذا الرجل كثيراً »

قال « كلا أنا لا أسيء الظن به خاصة لكنني لا أرى شيئاً يجمعني به غير المصلحة وأرى اسباب التفريق كثيرة . . فنحن الآن لا ينبغى لنا ان نخون هذا الامير او نقصر فى خدمته لكنني أخاف على حياتنا بعده . . أليس كذلك يا معلم . . قل . . لا تخف انى أسر اليك اشياء كثيرة ومع ذلك لا يهمنى صرحت ام لم تصرح . فانت صديق المعز لدين الله الفاطمي وهذا الغلام رسوله اليك في شأن يتعلق بالدولة . اصدقنى لعلي استطيع خدمتك »

فلم ير يعقوب بدأ من الكلام وهو يثق بصديقه فقال « انظر يا صاحبي شالوم . لا تظن توقفي عن التصريح لك من ضعف ثقتي بك فانت تعلم ما بيننا من الاسرار القديمة والحديثة . ولكني مضطرب الرأي في الامر . ان هذا الغلام رسول من المعز . نعم . ولكن كن على يقين اني لم أصاحب المعز لاخون كافوراً . فاني خادمه مقيم على ولائه ما دام حياً . وأما اذا مات فاني أخاف خلفاءه كبيرهم وصغيرهم . بل اخافهم على مصر واهلها . . انهم لا يصلحون للحكومة لما تعلمه من انقسامهم واضطراب احوالهم . فلا بد من خروج هذه البلاد من ايديهم . . واذا لم يكن بد من خروجها فمن تراه أولى بها . ان القوم في بغداد مشغولون بانفسهم ـ ان بغداد مسقط رأسي وأحبها كثيراً لكنني أراها بعيدة عن مصلحة مصر . وهؤلاء الفاطميون دولة جديدة رشيدة كثيراً ما سمعت عن تعقل خلفائها وعدلهم . فاذا تولوها كان ذلك من اسباب سعادتها . . »

ثم تدارك ما قاله بلهفة قائلا « أما اذا اتفق الاخشيديون

وولوا من يصلح للولاية ولم يؤذونا باموالنا وأرواحنا فمن ضعف الرأي ان نستبدلهم بسواهم . . الا توافقني على ذلك ؟ »

فأبرقت اسرة الطبيب شالوم من سماع ذلك الكلام لانه لسان حاله تماماً فابتسم وقال بارك الله فيك يا معلم لقد نطقت بلساني وعبرت عن جناني . نحن متفقان و . »

فقطع كلامه قائلا « لم أشاهد الامير كافوراً منذ أمس لاني شغلت عن الذهاب اليه بسبب سأقصه عليك .. كيف هو اليوم .. كيف حاله ؟ »

قال وهو يرفع حاجبيه « انه ليس على ما يرام . . كانت الحمى عليه شديدة في هذا الصباح وكنت أتوقع هبوطها فلم تهبط رغم ما اتخذته من الوسائل المرطبة . ولما أعيتني الحيلة رجعت الى كتاب الرازي وأخذت اطالع فيه . وخطر لي ما نتوقعه من تبدل الاحوال فرأيت ان آتي اليك فحملت الكتاب معي ولم أكاف غلامي حمله في جملة ما يحمله من الادوات والعقاقير »

الفصل السادس والخمسون

غلام الطبيب

فلما ذكر الطبيب غلامه انتبه يعقوب لامر يتعلق بلمياء فالتفت نحوها فرآها تتمشى في الحديقة كأنها تتشاغل بمشاهدة الرياحين والمياه المدبرة في الاقنية وبينها الحصى مرصوصة صفوفاً وهناك طوائف من الطيور الاهلية بالوانها الزاهية بين سارح وحبيس ولا نظن لمياء كانت ترى ما بين يديها كما يراه المتفرج لاشتغال خاطرها بسالم والطريقة المؤدية الى مشاهدته

ثم التفت يعقوب الى الطبيب وقال له « لقد اذكرتني أمراً أتوسل اليك في قضائه . أترى هذا الغلام ؟ . »

قال « نعم أراه أليس هذا الرسول الذي تتكلم عنه ؟ »

قال « بلى . واحب ان أكلفك أمراً يتعلق به هل تقضيه ؟ »

قال « حباً وكرامة . ما هو ؟ »

فقال يعقوب « أتعرف ذلك البربري الذي يتردد على مجلس الامير؟ »

قال « أظنك تعني الرجل الغريب الاطوار ذي العينين البراقتين الغائرتين والانف الاعقف والشاربين المسترسلين . . »

قال « نعم أعنيه وأعني شاباً يرافقه في أكثر الاحايين . . »

قال « هو ابنه أو ابن أخيه سالم على ما أظن . . نعم اعرفهما وانهما يترددان على الامير كثيراً كما تعلم وأنا استغرب أمرهما ولا أعلم لهما محلا سوى .. »

فقطع يعقوب كلامه قائلاً « أنا أعلم أنهما يحرضان اميرنا على فتح القيروان . . »

فدهش الطبيب وقال « أين نحن والقيروان ! ألا يكفينا ما يشغلنا من أنفسنا ! ما الذي تريده مني ! »

قال « ان هذا الغلام يريد ان يحضر مجلس كافور ويسمع ما يدور فيه خصوصاً عند وجود سالم وعمه . . ولكي لا أخفي عنك شيئاً . اخبرك ان هذا الرسول ليس غلاماً وانما هو فتاة بلباس الغلمان ـ احفظ ذلك سراً ـ ولها شأن خاص مع سالم هذا . وقد بلغها عنه أقوال قالها لكافور لم تصدقها فاحبت ان تسمعها باذنيها . فالذي أراه ان تأخذها معك بدل غلامك الذي يحمل لك الادوات والعقاقير وتجتهد بان تدخلها معك دار الامير لتكون بمشهد ومسمع »

فاستغرب شالوم كونها فتاة وقال « لا بد لهذه الفتاة من حديث هام وقد تاقت نفسي لرؤيتها ادعها وقدمها لي وأوصها ان تضع ثقتها بي . ثم اخبرها ماذا ينبغي ان تعمل ليتم لها ما تريده »

فحول يعقوب بصره نحوها فانتبهت لمياء فأشار اليها بالقدوم اليه فاسرعت وقد توردت وجنتاها فظهرت الانوثة فيها . ولكن القوة كانت بادية في وجهها وسائر حركاتها . فاعجب الطبيب بهيبتها وجمالها وبريق عينيها . فلما دخلت قال يعقوب « هذا الطبيب شالوم طبيب مولانا الامير

كافور وهو صديق حميم أثق به كثيراً وقد اطلعته على قصدك واتفقنا على طريقة تحضرين بها مجلس كافور وتشاهدين كل ما تريدينه هناك . . . »
وضحك

فأدركت من مخاطبته اياها بصيغة التأنيث أن الطبيب مطلع على حقيقة امرها فبانت البغتة في عينيها وأطرقت . فابتدرها يعقوب قائلا لا تخجلي يا بنية من اطلاع الطبيب على حقيقتك فانه على رأيي من كل وجه. والمطلوب الآن ان تكوني هنا بعد قليل وسيأتيك بالثياب اللازمة تتنكرين بها فلا يظن من يراك الا انك غلام الطبيب شالوم وتمكثين هنا حتى يأتي هو فتذهبين معه في اصيل هذا اليوم وأكون أنا قد سبقتكما الى هناك . ولا بد لى من الذهاب حالا لاني اطلت الغياب عن المجلس . وإنما شغلني عنه القيام بامرك . فامكثي هنا ريثما تأتي الثياب وتلبسينها وسأوصي قيمة المنزل بك خيراً وكل ما تطلبينه يقضى »

فلم يسعها الا السكوت وقد شغل خاطرها بهذه المهمة بما فيها من التجسس وهو يخالف ما فطرت عليه من استقلال الفكر وحرية القول . ولكنها تحملت ذلك في سبيل كشف حقيقة ذلك الرجل الذي خانها في عواطفها

ثم نهض الطبيب وودعهما وانصرف على ان يبعث بالثوب والادوات والعقاقير . وودعها يعقوب بعد ان لبس الثوب الذى يلتقي به الامير ومضى اليه

وبعد قليل أتت تلك الاشياء فلبست لمياء ثوب غلام الطبيب كما كانت العادة يومئذ وعلقت جراباً من الديباج بعنقها وفيه ادوات الجراحة وبعض العقاقير الضرورية . فاصبح من يراها لا يشك انها غلام الطبيب شالوم . فمكثت بانتظاره وكانت الشمس قد مالت نحو الاصيل وكافور في سرادقه بالبستان الكافوري كما تقدم

*

الفصل السابع والخمسون

سرادق كافور

ثم جاء الطبيب على بغلته وأومأ الى لمياء ان تتبعه على بغلة ساقها اليها . فركبت وعلقت الجراب في عنقها . ولم يمض كثير حتى أشرفا على البستان الاخشيدي وفيه السرادقات والاعلام وقد وقف الحجاب ببابه والجند حول السرادقات بين ماش وواقف . ولم يدن الطبيب من باب البستان حتى تصدى له كبير الحجاب بلهفة وقال « ان الامير في انتظارك على أحر من الجمر »

فقال « كيف هو الآن ؟ »

فهز الحاجب كتفيه وقال « يقولون انه احسن »

فارتاب الطبيب بهذه الاشارة لكنه ترجل وأشار الى غلامه (لمياء) ان تترجل وتتبعه ففعلت ومشت وهي تراقب كل شيء . فرأت الوجوه متغيرة والقوم هناك يجتمعون ويتفرقون زرافات كأنهم يتساءلون عما سيكون اذا مات كافور . فمرت بين السرادقات في طريق مستقيم يؤدي الى سرادق كبير مبطن بالحرير الاحمر وقد أرخيت عليه الاستار المزركشة ونصب العلم في قمته . ووقف ببابه حاجبان بلباس خاص وفي يد كل منهما رمح قناته مكسوة بالديباج

فلما دنا الطبيب من باب السرادق وسع له الحاجبان بدون استئذان لانهما يعلمان شدة حاجة الامير اليه فدخل وأشار الى غلامه (لمياء) أن تدخل معه فلما دخلت كان أول شيء استلفت انتباهها سعة ذلك السرادق (الصيوان) واحمرار باطنه وقد فرشت ارضه بالبسط الجميلة وأقيمت في جوانبه منائر من الفضة قد غرست فيها الشموع ومواقف عليها المباخر يتصاعد البخور من بعضها . وقد علقت على أعمدته الاسلحة من السيوف والاتراس والحراب والاقواس . وفي وسط السرادق دكة فوقها قبة قائمة

على اربعة اعمدة كالمظلة وقد استرسلت الستائر من جوانبها الثلاثة وترك صدرها مكشوفاً ليظهر سرير الامير للداخل من باب السرادق . والسرير مصنوع من الابنوس المنزل بالعاج مكسو بالفرش الوثير وأصله من أسرة بني طولون

وكان كافور متوسداً على ذلك السرير ولكن لمياء لم تره لانه كان غارقاً في الفراش المصنوع من ريش النعام . ورأت الى جانبي القبة جماعة واقفين باحترام واهتمام علمت انهم خاصته وأحباءه غير الغلمان والاعوان . فأجالت نظرها فيهم لعلها تجد سالماً بينهم فلم تجده وأدركت اهتمام القوم من وقوفهم على الاقدام مع وجود المقاعد والارائك والوسائد لجلوسهم

أما الطبيب فظل ماشياً نحو السرير وقبل ان يدنو منه برز له من جانب القبة رجل عرفت لمياء انه يعقوب بن كلس وقد لبس ثوباً يليق بذلك الموقف . وتقدم يعقوب لملاقاة الطبيب بلهفة كأنه لم يره من قبل وقال له « لقد أبطأت علينا أيها الطبيب »

فقال « فارقت مولانا الامير وأنا ارجو تقدمه نحو الصحة فهل طرأ عليه طارىء ؟ »

فاجاب يعقوب « لا بأس عليه انه اليوم أحسن من ذي قبل . . » قال ذلك بصوت عال ليسمعه كافور على عادتهم في طمأنة المريض وتخفيف جزعه . لكنه اشار اليه همساً ان الحال تدعو الى القلق

فتقدم شالوم حتى دنا من السرير وأشار الى غلامه أن يتبعه ليكون قريباً منه في حين الحاجة الى عقار . فدنت لمياء من ذلك السرير المغشى بالاغطية المزركشة بالالوان الزاهية تكسوه كله الا بقعة صغيرة عند الرأس سوداء مظلمة هي وجه كافور قد أزيح عنه الغطاء لانه كان شديد السواد بصاصاً جلده يلمع لكن شدة الضعف أذهبت لمعانه حتى تكاد ترى الاصفرار يخالط ذلك السواد . وكان قد أقفل عينيه كأنه نائم وقد برز فكاه من الضعف فافترقت شفتاه وبرزت أسنانه البيضاء من بينهما

فلما أحس كافور باقتراب الطبيب منه فتح عينيه وأجال بصره حتى وقع

نظره على الطبيب فبان الاهتمام في تينك العينين الحراوين . وكأنه أراد ان يبتسم فلم يزدد منظره الا تكشيراً فاسرع الطبيب الى يده فاستخرجها من تحت الغطاء باحترام وجس نبضها وهو يظهر الانبساط من حال النبض . والتفت الى كافور وقال « ان مولاي أحسن حالا من أمس بحمد الله » والتفت الى أحد الغلمان الوقوف في خدمة كافور وقال « أين قارورة الماء ؟ » يعني زجاجة البول

فأتوه بزجاجة فيها السائل فتأمله وتفحصه ثم عاد نحو السرير وهو يبتسم ويظهر الانبساط وقال « كيف ترى نفسك يا سيدي ؟ »

فقال « اني اشعر بضعف ودوار »

قال « هذا امر بسيط . . الىّ يا غلام » وأشار الى لمياء

فتقدمت وفتحت الجراب فاستخرج الطبيب منه قارورة صغيرة فتحها وأدناها من انف كافور . فاستنشقها فاحس براحة وانتعاش وبان ذلك في عينيه وجبينه فتحرك في فراشه كأنه يريد الجلوس فاعانه الطبيب على ذلك وساعدهما يعقوب وأسنداه بوسادة من الوراء . فجلس وتناول مذبة كانت بجانبه ليتلاهى بها ويطرد الذباب عنه — وهو كثير في تلك الساعة . ولم يشأ ان يتولى ذلك عنه أحد . فتقدم يعقوب وهو يبدي الاهتمام وقال « ان الذباب كثير في هذه الساعة وسيدي الامير منحرف المزاج ألا تأذن لي أن آخذ المذبة (النشاشة) عنك او تأمر ان يقوم هذا الغلام باستخدامها » وأشار الى لمياء . والتفت نحو الطبيب كأنه يستشيره بهذا الاقتراح

فتقدم الطبيب وقال « ان الامير في حاجة الى الراحة » ومد يده وتناول المذبة من يده ودفعها الى لمياء وأشار اليها ان تقف وراء السرير تطرد الذباب عن وجه كافور بدون ان تزعجه . فاطاعت وقد وافقها ذلك اذ تكون قريبة منهم . وأدار كافور عينيه في جوانب السرادق كأنهما سراجان موقدان. ثم نظر الى شالوم وقال « بارك الله فيك أيها الطبيب اني اشعر بانبساط الآن »

فقال الطبيب « وستشعر باحسن من ذلك بعد قليل . . ومد يده الى

الجراب فاستخرج منه قارورة فيها سائل صب منه قليلا في قدح ودفع القدح الى كافور فشربه فازداد انتعاشاً والتفت الى يعقوب وقال « اننا لا ننسى فضل طبيبنا هذا بارك الله فيه انه صديق محب »

فقال يعقوب « كلنا عبيد مولانا نفديه بارواحنا فالحمد لله على سلامته ولا أرانا الله مكروهاً به »

قال « لله أنت يا يعقوب . . أنك موضع ثقتنا وسوف نكافئك على مودتك وصدق خدمتك .. »

فقال « انما نطلب ان يتعافى الامير وهذا خير مكافأة »

فقال الطبيب « ان حال مولانا بحمد الله حسنة جداً ولا يلبث ان يخرج على جواده في البساتين أو يركب حراقته يصعد فيها على النيل »

فهز كافور رأسه وقال « ان شاء الله .. ان شاء الله » وفي غنة صوته أنه غير مصدق

ثم بدا الاهتمام في وجهه وأشار الى الوقوف بالخروج ولم يبق الا الطبيب ويعقوب ولمياء واقفة عند رأسه

الفصل الثامن والخمسون

أبو حامد وسالم

فلما خلا بهم المكان التفت كافور الى يعقوب وقال « ان الطبيب حفظه الله طمأنني وخفف عني وقد صدقته لكنني ضعيف وأخاف ... » واختنق صوته

فابتدره الطبيب قائلا « لا ينبغي لمولانا ان يشك في قولي ولا ان يفكر في أمر يسوءه ـ ولا أعول في ما أقوله على فعل العقاقير ولكني استبشرت ايضاً من دلالة النجوم فقد تفقدت الطالع في مساء أمس فوافق ما أتوقعه . أنت يا مولاي في صحة والتوفيق خادم لك »

قال « ذلك الذي أريده ولكن كيف اطمئن لحالي وأنا أرى ما أراه من

الضعف » ثم وجه كلامه الى يعقوب وقال « بل كيف يرتاح خاطري وأنا أرى أحوال هذه الدولة . . أنت تعلم يا يعقوب ما في قلبي وأحب أن اشرك طبيبنا في الامر لوثوقي به وقد سلمت اليه روحي أفلا أبوح له بسري ؟ أنا لا أثق بأحـد من هؤلاء الذين ترونهم حولي . انهم لا يلبثون اذا لفظت نفسي الاخير ان ينقلبوا علي ـ لا يهمني ذلك ولـكني أخاف على هـذه الدولة . إذا مت أنا فان الامارة تفضي الى غلام في الحادية عشرة من عمره وهو صاحب الحق فيها . أو يتنازعها أعمامه والقواد فتفسد الامور و ... » وتنحنح وكأنه ندم على ما قاله فعاد وقال « ولـكن لا . اني سأعيش ريثما أدبر شؤونها .. أليس كذلك أيها الطبيب ؟ »

فأسرع إلى الجواب بلهفة قال « بلى ياسيدي هذا هو اعتقادي »

فتزحزح كافور في فراشه فنهض الطبيب وقال « يحب مولاي ان ينام ؟ »

قال « لا. لا أرى في ميلا الى الرقاد لـكني أحببت أن أغير وضعي .. هل رأيت وزيرنا أبا الفضل (ابن الفرات) اليوم يا يعقوب ؟ »

قال « كلا يا سيدي لم أره . . هل تأمر بشيء أبلغه إياه ؟ أم تحب أن ندعوه اليك الى هنا . أم ماذا ؟ »

قال « لا . لـكنني استبطأته . . ولعله لم يشأ أن يأتيني لئلا يشغل ذهني بامور الدولة ففضل لي الراحة . لا بأس من ذلك »

وهم يعقوب ان يجيبه فرأى الحاجب دخل ووقف في المـكان الذي يقف فيه اذا كان آتياً بخبر فقال له كافور « ما وراءك ؟ »

قال « ان أبا حامد بالباب يا سيدي »

فلما سمعت لمياء اسمه اجفلت وتسارعت دقات قلبها حتى كاد ذلك يظهر عليها ولحظ يعقوب اضطرابها فأومأ اليها ان تتجلد . ولم يكن أسرع منهـا الى التجلد لما فطرت عليه من قوة النفس ورباطة الجأش . فانزوت وراء عمود القبة والمذبة بيدها بحيث لا يظهر وجهها ولا ينتبه لها أحـد . وكان كافور يستأنس بالطبيب لما في كلامه من الذكاء وما يبسطه بين يديه من

الآمال فقال له « هل ندخل هذا الرجل علينا الآن . هل ترى بأساً من ذلك ؟ انه طلي الحديث حاد الذهن ولا يختار من الاحاديث الا ما يسرنا . وكلما زدناه اهتماماً بسماع حديثه زادنا مغالاة في غرائبه لا بأس به . . انه لطيف المعشر »

فقال الطبيب « إنك يا مولاي في حاجة الى من يؤانسك بالاحاديث اللذيذة المفرحة فاذا كنت تجد في حديثه شيئاً من ذلك ادعه . . »

ونظر كافور الى يعقوب كأنه يستشيره فقال « اذا شاء مولاي ان يدخله فليشترط عليه ان يقص علينا نحو ما قصه مرة من الاخبار المفرحة »

قال « لكنه قصها علينا سراً . . »

فتصدى الطبيب للكلام قائلا « أما أنا فاذا كان وجودي مانعاً من سماع الاخبار المفرحة فانى منصرف » وتحفز للانصراف

فأشار اليه كافور بكلتا يديه ان يبقى وقال « اذا استغنيت عن رجال الدولة جميعاً لا استغنى عنك . ولا أرى بعد ما رأيته من صدق مودتك وعظيم فضلك أن أخفي عنك سراً كهذا . فليدخل الرجل ويقص ما يقصه وأنت حاضر ولنفرح معاً اذا كان فيه ما يفرح » وأشار الى الغلام ان يدخله

فقال الغلام « ادخله وحده أو مع رفيقه ؟ »

قال « ليدخل الاثنان »

فادركت لمياء ان رفيقه انما هو سالم بعينه فاخذت تتجلد . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وأخذ الفراشون بانارة الشموع فاصبحت لمياء في موقفها تخفيها ظلال الستائر بحيث لا ينتبه لها أحد وهي ترى كل حركة وتسمع كل صوت . ولم تبق حاجة الى المذبة بعد الغروب وقد خفت وطأة الذباب . ونسي كافور وجودها عند رأسه فوقفت لا تتحرك . وبعد قليل دخل أبو حامد وقد تزيا بغير زيه المعهود ودخل سالم في أثره وقد تغير شكله وهندامه حتى كادت تنكره لكنها ما لبثت ان سمعته يلقي التحية حتى تحققت أنه هو بعينه . فخفق قلبها وارتعدت فرائصها وهي

تتجلد وتتمالك لترى ما يكون . على انها لم يكد يقع بصرها عليه حتى تذكرت تاريخ معرفتها به وكيف كانت تستهلك في حبه وودت في تلك الساعة ان يخرج بريئاً من تلك التهم واستعاذت بالله ان يكون كما قيل لها عنه وندمت على مجيئها الى ذلك المكان لتسمع اقواله باذنها . وخافت اذا سمعت شيئاً يثير غضبها ان لا تقوى على امساك عواطفها فيفتضح امرها لكنها استجمعت قواها وتجلدت

الفصل التاسع والخمسون

الحديث

فلما دخل الرجلان القيا التحية فأشار اليهما كافور بالجلوس على كرسيين بين يديه فجلسا متأدبين وتصدر ابو حامد للكلام فقال « كنا في قلق عظيم على صحة مولانا الامير أعزه الله ونرجو ان يكون قد تعافى»

فناب الطبيب شالوم بالجواب عن كافور تخفيفاً للتعب عنه وقال « ان سيدي الامير في خير وهو أحسن اليوم من ذي قبل ولا يلبث أن ينهض من الفراش »

فقال كلاهما معاً « الحمد لله . الحمد لله على ذلك . ان اعتلال الامير تعتل به الامة كلها ولا سيما الآن وقد دنا الوقت الذى يظهر به نجمه ويتسع سلطانه »

فقال الطبيب « ان مولانا الامير في حاجة الى التسلية بما يفرحه وهو العلاج الذى يفيده حقيقة فهل عندك شيء من هذا القبيل ؟ »

وتقدم يعقوب فقال « لا انسى حديثاً سمعته منكما فى حضرة الامير رأيت مولاى انبسطت نفسه منه »

فقال ابوحامد « اظنك تعني حديث . . » والتفت نحو الطبيب ولسان حاله يقول « ان هذا الحديث لا يتلى جهاراً »

وكان كافور يسمع ويرى فلما رأى اشارة أبي حامد قال « لا تحتشم من وجود طبيبنا انه موضع ثقتنا »

فوقف الطبيب وأظهر انه مستعد للخروج . فاشار اليه كافور ان يجلس فجلس والتفت الى يعقوب كأنه يستشيره هل يقول . فقال « تفضل يا سيدى قل »

فاعتدل ابو حامد في مجلسه وقال « ان حديثنا في المرة الماضية لا يحلو تكراره ان لم يكن مشفوعاً ببشائر النجاح . وقد جئنا الليلة نحمل بشارة يفرح لها كل مسلم يريد ان يستقر الحق في نصابه »

فقال يعقوب « وما ذلك ؟ »

قال قصصت عليكم بالمرة الماضية ما دبرناه في سبيل نصرة الحق بانقاذ الدولة الاسلامية من ادعياء الخلافة في المغرب . اعني القوم الذين انتحلوا لانفسهم نسباً كاذباً في القيروان وزعموا انهم من نسل فاطمة الزهراء وهم ادعياء في هذا النسب . ان زعيمهم الذي سمى نفسه المعز لدين الله قد اصبح الآن في عالم الاموات . ولا بد من اضطراب دولته وقيام امراء كتامة وصنهاجة عليه وانما نحتاج الى جند يبعث به الامير أعزه الله الى اولئك الامراء هناك حتى يلتفوا حوله ويسلموا الامر اليه – فيدعى له على منبر القيروان كما يدعى له الآن على منابر مصر والشام والحجاز وحلب وانطاكية وطرسوس . فيستقيم له الامر وحده ولا يبقى لمنافسيه هنا مطمع في شيء لان الباقين من آل الاخشيد غلمان ونساء لا يستطيعون عملاً »

وكان كافور جالساً ينظر الى أبي حامد وقد بدا الانبساط في وجهه فلما سمع قوله زاد انبساطاً لكنه تنهد وقال « اني لا ألبث ان اعمل بذلك حالما أنهض من الفراش باذن الله » والتفت الى الطبيب كأنه يستشيره في ذلك

فقال الطبيب « قريباً ان شاء الله . . » والتفت الطبيب الى أبي حامد وقال « يظهر انك واثق بنجاح هذه المهمة . . »

فقال « اني لا اقول غير الحق وأنا منذ اعوام اعد المعدات وأهيء

الاحزاب وأجمع الاموال . اني على ثقة من انضمام قبائل البربر كلها في نصرة الامير أبي المسك أعزه الله . وانما كان ينقصنا أن نتخلص من رجلين هناك خدمهما الحظ حيناً فغلب عليهما الغرور وقد ماتا الآن »

قال يعقوب « من تعني ؟ »

قال « أعني المعز وجوهر قائده . انهما ماتا الآن ولا يمضي الا بضعة أيام حتى تأتينا كتب الامراء بذلك »

فأحب يعقوب ان يسمع لمياء كلام سالم عن نفسه فوجه الخطاب قائلا « ان الفضل في هذا النجاح ليس للامير أبي حامد فقط وانما هو لك ايضاً . وان حيلتك التي قصصتها في المرة الماضية غريبة في بابها » وضحك تحريضاً له على التصريح

فقال سالم « ان الفضل الاكبر لهذا الامير وهو صاحب الرأي الاعلى وعنده الرجال والاموال . وأما أنا فعملي مقصور على إغراء فتاة جاهلة توهمت اني أحبها فاتخذناها وسيلة لخدمة مصلحة صاحب مصر أيده الله »

ولا تسل عن لمياء وما أصابها عند سماع هذا الكلام . ورغم تجلدها وتمالكها أحست انها مدفوعة لتكذيب ما سمعته وحدثتها نفسها أن تتقدم في تلك اللحظة وتكشف الحقيقة . وكان يعقوب يلاحظ حركاتها ويشير اليها خلسة ان تتجلد

وهم في ذلك رأوا كافور يتحرك في سريره حركة غير اعتيادية وقد تغيرت سحنته فانتبه له الطبيب ونهض اليه فرآه قد اصيب بنوبة سعال شديدة. فأومأ الى القوم بالانصراف حالا فنهض ابو حامد وسالم وخرجا واشتغل الطبيب بمعالجة كافور فنادى غلامه (لمياء) أن يأتي بالجراب فاسرعت وفتحت الجراب ويداها ترتعدان من التأثر وقد احمرت عيناها من الكظم فتناول الطبيب قارورة الاستنشاق وقربها من انف كافور وأعانه يعقوب باسناده وهو لا يزداد الا سعالا حتى كاد يغمى عليه

وشغلت لمياء بذلك المنظر عما جال في خاطرها وقضوا ساعة وهم يسعفون الامير بالعلاج حتى سكن السعال ومال الى الرقاد

ثم جس الطبيب نبضه وقال « انه مرتاح الآن فينبغي ان نتركه نائماً »
فقال يعقوب « فنذهب نحن اذاً »
قال « نعم . أما انا فلا ينبغي ان اتركه إذ أخشى ان تعاوده النوبة »
فقال يعقوب « انا ذاهب مع غلامك هذا وسأترك عندك أحد غلمان الامير يقدم لك الجراب اذا مست الحاجة »

ففهم الطبيب مراده فوافقه فدفعت لمياء الجراب اليه وخرجت مع يعقوب وركبتاها ترتعدان من هول ما سمعته ورأته وعيناها شائعتان خارج المعسكر تبحث عن ابي حامد وسالم فلم تر لهما اثراً

ولحظ يعقوب فيها قلقاً وأدرك ما يجول في خاطرها فاشار اليها ان تتبعه . فوقفت وهي تكاد تسقط من شدة الاضطراب والغضب وقالت « لا استطيع المشي يا سيدي .. بالله ماذا رأيت . . ويل لك يا خائن . . »

فالتفت يعقوب اليها فوجد وجهها قد امتقع وتغيرت سحنتها ومشت وهي تتساند وتخاف السقوط . فاشار الى السائس ان يقدم الدابة فاسرع الى تقديمها وأعانها حتى ركبت وركب هو على دابة أخرى في اثرها ولحظ في اثناء الطريق ان لمياء منزعجة فاحس انه مسئول عن سبب انزعاجها لانه هو الذي جمعها بذلك الخائن واذا اصابها سوء فمن شدة تأثرها مما سمعته ورأته

وبعد قليل وصلا الى منزل المعلم يعقوب فترجل والتفت الى لمياء فاذا هي لا تزال على بغلتها لا تتحرك ولم يعهد بها ذلك التواني . فتقدم نحوها ومد يده ليعينها على النزول . ولما لمست يده احس بسخونتها وجفافها فاقشعر بدنه فناداها أن تنزل فنزلت وهي لا تستطيع حراكاً فنادى بعض الخدم فأعانوه على حملها الى دار النساء وهي غائبة عن رشدها كالمائتة

فتأسف يعقوب لما أصابها ونادى قهرمانة منزله وأشار اليها أن تسعف الفتاة بالتدابير المستعجلة ريثما يأتي الطبيب . وبعث رجلا يدعو الطبيب شالوم اذ لا يريد ان يطلع احد على وجودها عنده

ظلت لمياء غائبة رغم ما استخدموه في ايقاظها من المنعشات والمنبهات وأبطأ الطبيب عن الحضور لاشتغاله بالامير كافور فاشتد القلق بيعقوب وأصبح لا يدري ماذا يعمل فخطر له أن يطلع الشريف مسلم على حالها لانه ذو شأن في الامر فبعث اليه وقد أظلم الظلام . فجاء ولمياء لا تزال في تلك الحال فسأله عن امرها فقص عليه حقيقة خبرها . فجس نبضها فاذا هو يسرع كثيراً فعلم انها مصابة بحمى شديدة ورأى الاولى ان ينقلها الى منزله ليخدمها اهله ريثما يأتي الطبيب ويرى ما يكون . وكان قد استلطف الفتاة قبل ان يطلع على حقيقة امرها مع الحسين بن جوهر وغيرتها على المعز وخبرها مع سالم فلما اطلع على الحقيقة أحس بانعطاف شديد نحوها

وأمر بمحفة حملوها عليها الى منزله وأخذ على عاتقه ان يعالجها طبيب منزله

الفصل الستون

الحلم

قضت لمياء في تلك الغيبوبة أياماً لا تأكل ولا تشرب غير ما يسقونها إياه رغم ارادتها . ثم أفاقت وقد شحب لونها وبان الضعف في عينيها وحالما أفاقت التفتت الى ما حولها وقد استغربت كل شيء لكن الناظر في عينيها يرى انها لا تزال ضائعة رغم حركتها والتفاتها . وكان في الغرفة ساعتئذ الشريف مسلم نفسه وامرأة من أهله فتقدمت المرأة نحوها وقالت « ماذا تريدين يا حبيبتي »

فلم تجبها لكنها عادت الى استغراقها . وكانوا قد أعدوا لها لبناً تشربه فلم تستطيع ذلك لانها عادت الى الرقاد فأمر الحكيم أن تسقى اللبن كرهاً . وكانت الحمى قد انخفضت والغيبوبة هذه المرة لم يطل مكثها . ففي صباح اليوم التالى سمعوها تئن أنيناً شديداً كأنها تشكو ضيقاً . فاسرع مسلم اليها فسمعها تقول بأعلى صوتها « حسين ! حسين ! تباً لهم قبضوا عليك . . دعوه قبحكم الله . . أما كفاكم ما فعلتموه بأبي ؟ . . آه آه . . » وسكتت ثم فتحت

عينيها فجأة والتفتت الى مسلم وهو واقف الى جانبها وتفرست فيه وقد عاد اليها رشدها فعرفته فقالت « العفو يا سيدي ؟ . . انت هنـا . أين أنا ؟ ماذا جرى لى . أين الحسين ؟ قد قبضوا عليه ؟ . . ويل لهم . . » وشرقت بدموعها

ثم تراجعت وكأنها انتبهت انها في يقظة وليس هناك حسين فخجلت فتقدم الشريف نحوها بلطف وقال لها « ما بالك يا بنية . انك تهذين أو تحلمين لا تخافي انك في منزلى وأنت أعز من ولدي . . »

فاخذت تفرك عينيها بكلتا يديها وهي تنظر الى ما حولها وقالت « لست خائفةيا سيدي .. لست خائفة . ولـكن الحسين بن جوهر .رأيتهم اخرجوه مغلولا في فج الاخيـار . . وأولئك اللصوص حوله كالزبانية . . رأيتهم رأي العين . . »

فقال « انت يا لمياء في الفسطاط . وبيننا وبين فج الاخيار عدة أيام . . خففي عنك . وعودي الى رشدك . . لا بأس عليك . وبعد هنيهة يأتي الطبيب ويشير بما يجب أن تفعلي »

قالت « الطبيب ! وأي طبيب ؟ اني لا أشكو مرضاً ولـكنني أشكو ظلماً وخيانة . . قالت ذلك وغصت بريقها وأغرقت في البكاء حتى ملأ نحيبها الدار . فبعث الشريف يتعجل الطبيب فأتى والفتاة مستغرقة في البكاء فجس نبضها ثم أشار عليهم ان لا يخاطبوها ولا يقصوا عليها خبراً بل يكتفوا بالغذاء الخفيف . ووصف لهم ما ينبغي عمله ولـكنه ألح عليهم ان يتركوها هادئة ساكنة بقدر الامكان

ظلت لمياء في الفراش عدة اسابيع لا يخاطبها أحد الا بالضروري وهي تصحو تارة وتغيب اخرى والطبيب يتردد عليها ويصف الادوية والاغذية حسب الحاجة . ويعقوب يأتي كل يوم للسؤال عنها ويأسف اشد الاسف لما أصابها على يده ـ رغم اشتغاله في تلك الاثناء بأمور ذات شأن أهمها موت كافور وانتقال الامارة الى احمد بن علي بن الاخشيـد وهو غلام لم يتجاوز الحادية عشرة . وتحول النفوذ الى جعفر بن الفرات وزير كافور

المتقدم ذكره . ولم يكن بن الفرات يستطيع عملا في حياة كافور فلما صارت الامارة الى ذلك الغلام استبد هو في الامر وأخذ في مطاردة رجال الدولة ومصادرة الاغنياء . وكان يعقوب من جملة المهددين وخاف ان يصل الدور اليه فاستتر . وكان يقضي اكثر اوقاته عند الشريف مسلم بن عبيد الله المشار اليه بحجة السؤال عن لمياء ويتحادثان في شؤون الدولة ويرون قرب سقوطها لكنهما لا يتحدثان في شيء من ذلك أمام لمياء عملا باشارة الطبيب

وبعد مدة تقدمت لمياء نحو الصحة وأصبحت في شوق الى استطلاع الاحوال والحكيم يأمرها ان تلازم الصمت وبعد مدة أخرى أذن لهم ان يخاطبوها في الشؤون التي تريدها . وكانت لا تزال تتردد الى الفراش وتنزل الى الحديقة او تمشي في المنزل . ورأت وجهها بالمرآة فانزعجت مما صارت اليه من الضعف فبكت وعاد اليها رشدها فتذكرت ما اتاها في تلك المدينة وكيف خلفت اهل القيروان على مثل الجمر في انتظار أخبارها من مصر. وتذكرت انها رأت الحسين خطيبها مغلولا أو رأتهم يوثقونه ويضربونه كأنها رأت ذلك في يقظة

كانت هذه الخواطر تمر بذهنها في أواخر أيام النقه ولا تجسر على مفاتحة احد بها . فلما اذن لها الطبيب بذلك طلبت يعقوب وسألته عما جرى في أثناء مرضها فقص عليها ما كان من موت كافور وتنصيب احمد بن علي

فقالت « ألم تبعثوا بذلك الى القيروان ؟ »

فابتسم ونظر الى مسلم فابتسم ايضاً وفي وجهيهما علامات البشر فقالت « ما الخبر »

قال يعقوب« الخبر خير يا لمياء . . ان اهل القيروان علموا بكل ما جرى هنا وقد جاءوا الينا بخيلهم ورجالهم »

فصاحت « أتوا الى هنا ؟ القائد جوهر أتى ؟ المعز أتى ؟ اين هم ؟ »

فقال « المعز لم يأت ولكن القائد جوهر جاء بجند كثيف ونزل الاسكندرية ووقع الرعب في قلوب المصريين . . ولا ندري ما يكون »

فاطرقت لمياء وقد بان البشر في محياها وأحست بنشاطها الاول كأنها

كانت في رقاد وأفاقت . وتذكرت مهمتها التي جاءت من اجلها وانهـا لم تستطع عملا تخدم بهالمعز لان المرض أعاقها . وتذكرت للحال ما رأته من سالم فاقشعر بدنها فقالت « وماذا جرى بذلك الخائن وعمه ؟ »

قال « لا ادري لاني لم اعد اراهما من تلك الجلسة وأظنهما يشتغلان في دس الدسائس في قصر السيدة زينب بنت الاخشيد بعد موت كافور وضياع املهما . . »

فلما سمعت اسم بنت الاخشيد تذكرت اشياء اخرى هاجت اشجانها فاطرقت ومسلم ويعقوب يلاحظانها ولا يتكلمان . ثم انتبهت فجأة وقالت « ماذا جرى بامتعتي وجوادي ؟ »

قال يعقوب « أي أمتعة تعنين ؟ »

قالت « اعني ما حملته معي من الثياب والامتعة من القيروان وتركته في الفندق مع الجواد والخادم والدليل »

قال يعقوب « أي فندق ان الفنادق كثيرة هنا . . »

فقالت « في الفندق الذي اهداني صاحبه الى منزلك »

قال « لم أنتبه له »

قالت «أنا لم أعرفه وقد آن لي أن أخرج من البيت ولاخوف علي .. اخرج بالثوب الذي يعرفني صاحب الفنـدق به فالاقيه وأدفع له اجرته وآتي بالامتعة . . والحق يقال اني أحس بقصوري في خدمة امير المؤمنين وقد شغلت عن خدمته بخدمة نفسي ثم شغلني المرض »

قالت ذلك ووقفت وقد عاد اليها نشاطها والتفتت الى مسلم وعينـاها تنطقان بالشكر على ما ابداه من الغيرة . فاجابها على الفور «انك ستعودين الينا وتنزلين في دارنا .. أو الافضل ان تمكثي هنا فنرسل من يأتي اليك بالامتعة والجواد »

قالت « بل افضل الذهاب بنفسي وسأعود الليلة أو في صباح الغد ان شاء الله »

فقال مسلم « بل تأتين الليلة »

الفصل الحادي والستون

في اليقظة

فأشارت مطيعة واختلت في غرفة لبست فيها ثوب الصقالبة الذي دخلت به الفسطاط واستأذنت بالانصراف وخرجت وهي تذكر الطريق التي جاءت بها وتتوهم أنها مرت في تلك الطريق منذ بضعة أيام وقد مر على ذلك عدة اشهر . وصلت الفندق فرآها صاحبه بالترحاب وأبدى غاية الاستغراب لما رآها فيه من النحول وسألها عن سبب غيابها وان خاطره شغل عليها كثيراً حتى خاف ان تكون قد ماتت قال ذلك بين الجد والهزل

فاستلطفت مجونه وقالت « الحمد لله اني لا أزال حياً (لانه يعرفها غلاماً صقلبياً) ولو مت ما الذي كنت تصنعه بالجواد ؟ »

قال « اي جواد يا سيدي »

قالت « الجواد الذي جئت عليه »

قال « ان الجواد اخذه رفيقاك ومضيا » يعني الدليل والخادم

قالت « وكيف أذنت بذهابهما ؟ »

قال « لما استبطاءا قدومك استأذنا في الانصراف » وضحك لهذا التعبير

فقالت « وماذا فعلتم بثيابي وامتعتي ؟ »

قال « هي باقية في الغرفة التي كنت نازلا فيها ضمن صندوق مقفل ولكن جاء بعض المسافرين واستأجروا الغرفة مني فابقيت الصندوق في بعض جوانبها على ما أظن »

قالت « اعطني الامتعة أين هي ؟ »

قال « هي هنا تفضل يا سيدي » ومشى نحو الغرفة التي باتت فيها ليلة وصولها الفسطاط وهو يتثاقل في مشيته وهي تتبعه . فلما دنا من الغرفة هز بابها فاذا هو مقفل فقال « لا أدري لماذا يقفلون الغرف كأنهم يخافون ان أسرق ثيابهم . . »

قالت « ألا يمكن الحصول على الامتعة الآن ؟ »

قال « كلا . . اخاف ان افتح الباب في غيابهم فيتهموني بالسرقة . ليس كل الزبائن لطفاء الاخلاق والوجوه مثلك ياسيدي . لكن لايلبثون ان يأتوا . . تفضل واجلس في غرفتي . . يظهر انك تشكو تعباً على أثر المرض »

فمشت في اثره الى غرفة بجانب تلك وفتح الباب واشار اليها بالدخول وقال « ان هذه الغرفة لى وحدي وقد تركتها لك تفضل إسترح »

وكانت قد تعبت من المشي لانها اول مرة خرجت بها من المنزل فدخلت واستلقت على مقعد هناك واغلقت الباب خوفاً من انكشاف امرها واستلذت تلك الخلوة فاخذت تفكر بما اصابها بالفسطاط . وطرق ذهنها خصوصاً الحلم الذي رأته وهي مريضة إذ رأت الحسين مغلولا في اشد الضيق وقد حاولت ان تقنع نفسها انه حلم لكنها لا تتصوره الا واقعاً

وتذكرت تلك الجلسة في بيت كافور وما تحققته من خيانة سالم فاقشعر بدنها ولم تكد تتصوره حتى سمعت صوتاً مثل صوته يرن في اذنها فذعرت واصغت فاذا هي حقيقة تسمع صوته فجلست على المقعد واصاخت بسمعها وهي تحسب ذلك حلماً آخر . فاذا هي تسمع وقع اقدام بباب الغرفة فنهضت وتهيأت للوثوب واستعدت للمقاومة فاذا بالخطى تتجه نحو الغرفة الاخرى التي كانت لها وسمعت صوتاً مثل صوت ابي حامد فتسارعت دقات قلبها واسرعت الى باب غرفتها فاوصدته وجعلت انها نائمة ووجهت انتباهها لتتحقق هل هي في يقظة . فسمعت ابا حامد يقول « اوصد الباب يا بني وتعال »

وسمعته يوصده ثم سمعت قائلا يقول اوصدته .. هات ما عندك ؟» وهو صوت سالم . فتأكدت انهما نازلان في تلك الغرفة ففرحت بتلك الفرصة لكن تأثرها كاد يذهب بنفسها لتسارع دقات قلبها . فتجلدت وتذكرت ما كان من بسالتها ورباطة جأشها ومواقفها في ساحة القتال فتماسكت

واصغت . فسمعت أبا حامد يقول « ذهب ذلك الاسود ولم تنل منه وطراً . . ولكن ذلك من سوء حظه »

فقال سالم « وسوء حظنا ايضاً يا عماه »

قال « ما اضعف عزمك يا سالم . . أتحسب قدوم ذلك المملوك الصقلي (جوهر) يغير عزمي ؟ انه لا يلبث أن يعود على أعقابه . . »

قال « كيف يعود ؟ وقد أتى بجيش جرار ولحظت القوم هنا خائفين»

فقهقه ابو حامد فتصورت لمياء ما يرافق قهقهته من التكشير عن سنيه البارزتين ثم سمعته يقول « لا يلبث خوفهم ان يذهب متى وصل ذلك الغلام مغلولا »

قال « وأي غلام ؟ »

قال « أي غلام ! صحيح انك لم تعلم بعد بالقبض على الحسين »

فلما سمعت لمياء ذكر الحسين اختلج قلبها وتسارعت دقاته حتى شوشت عليها سماع الحديث فاذا سالم يقول « قبضوا على الحسين ؟ لا لم اعلم بذلك بعد . اين قبضوا عليه ؟ »

قال « في فج الاخيار . . لان لمياء اللعينة افشت السر وأخبرت المعز بوجود المال هناك فتبرع هو بالذهاب ليحمل ذلك المال اليهم . وجاءنى الرسول أمس ان رجالنا هناك قبضوا عليه وأوثقوه وسألوني عما يفعلونه به فاجبتهم ان يحملوه الى هنا . فاذا جاء حبسناه وجعلناه رهناً . . ما قولك ؟ »

فقال « لم أكن اعلم ذلك . . بارك الله فيك . كيف لم تخبرني به حتى الآن . . »

قال « لانى لا أثق باحد ولو لم أر خوفك لم أخبرك به . لكنني لم اعلم أين ذهبت تلك الفتاة المفتونة . فقد اخبرني الجواسيس انها خرجت من القيروان ولكني لم أعلم الى أين لانها أخفت جهة مسيرها »

قال « ما ظنك بها ؟ »

قال « أظنها أتت الى هنا لان يعقوب اليهودي هو الذي أنبأ المعز بعزمنا على قتله فنجا بذلك . ويغلب على ظني ان لمياء أتت الى الفسطاط

لكنني لم أستطع البحث عنها في حياة كافور لانه كان يقرب ذلك اليهودي ويصغي اليه . اما الآن وقد مات كافور فاني اوغرت صدر ابن الفرات عليه فأصبح يطارده ولا يلبث ان يصادره . وهو يسعى الآن في إقناع القواد ان يسلموا الجوهر . ولكنه لن يفلح لانهم مختلفون لا رابطة لهم وكل منهم يطمع بالمال لنفسه وهم طوائف اهمها الاخشيدية والكافورية والاتراك وليس عليهم امير حازم يجمع كلمتهم . وفي عزمي ان اجمع شتاتهم بواسطة السيدة زينب بنت الاخشيد لانها كانت نافذة الكلمة عندهم لكنها امرأة ولا تعلم كيف تعمل فضلا عن اشتغالها بامر نفسها . . لا تخف يا بني . . كن على ثقة من تدبيري »

وكانت لمياء تسمع كلامه وفرائصها ترتعد فاذا بسالم يقول « قد أدهشتني يا عماه بهذا التدبير . . بارك الله فيك »

فقال « كيف لا وقد قضيت عمري في دس الدسائس عملا بوصية ذلك المقتول ظلماً . . انى منتقم له كن في راحة . . ولكن تلك الملعونة أين ذهبت لا ادري »

قال سالم « ما لنا ولها فلتكن حيثما شاءت »

ثم استولى السكوت كأن الرجلين ناما وأخذت تفكر بما سمعته فرأت انها استطلعت اشياء كثيرة لم تكن تعرفها وخصوصاً امر الحسين والقبض عليه وان المصريين يسعون في مصالحة جوهر والتسليم له وان الامر موقوف على بنت الاخشيد . وقد صدقت انهم قبضوا على الحسين لانها رأت ذلك رأي العين في أثناء الغيبوبة . فلم تعد تستطيع البقاء هناك واحتالت في الخروج فلقيها صاحب الفندق فسألته عن الثياب فقال « هل أتى الاضياف ؟ » قالت « أظنهم أتوا لاني سمعت حركة » فقال « قبحهم الله يدخلون كاللصوص » وأسرع وعاد اليها بالثياب . فتناولتها ودفعت اليه أجرته وانطلقت تطلب بيت الشريف مسلم بن عبيد الله . وكان الليل قد سدل نقابه فاسرعت حتى وصلت فرأت الخيول متزاحمة في الباحة والناس وقوف بالباب فاستأذنت في الدخول فاذن لها وسألت عن الشريف فقيل لها انه في

خلوة مع جعفر بن الفرات . فجلست وهي في غاية الاضطراب وأصبحت في شوق لمعرفة ما يدور بين الرجلين

الفصل الثانى والستون

الصلح

وهى جالسة رأت جماعة عليهم ألبسة المصريين الوطنيين من التجار والمزارعين وقد تجمعوا ازواجاً وأثلاثاً وهم يتذمرون ويتأوهون وسمعت أحدهم يقول « مالنا وللحروب لقد خربت البلاد واختنق الناس من القحط والغلاء حتى فرغت أيدينا من النقود وهؤلاء الجند لا يزيدونا إلا ضرائب . وهم منعمون لا يهمهم الا اخذ الاموال . . انهم معذورون طبعاً اذا خافوا على سيادتهم وأحبوا محاربة اولئك المغاربة »

فأجابه آخر « مالنا ولهم .. الافضل لنا ان نصالح . وهذا الوزير قد وافقنا على طلب الصلح . ان هذه الدولة الجديدة رشيدة وقد سمعت الثناء على خليفتها وزهده في الاموال ورغبته في راحة رعيته . . »

فتقدم ثالث وقال « وقد بلغني ان هذا الجند قادم الينا وقد حمل الذهب على الجمال كالارحية . . أين ذلك من استبداد جندنا وحكومتنا باموالنا ؟ . »

ثم سمعت رجلا يضحك وفي وجهه هيأة المجون وقال « كيف تدعون الفقر يا قوم أليست الاموال مخزونة في بيت الاخشيدية والكافورية ؟ هذه بنت الاخشيد قد فرشت منزلها بما لم تبلغ اليه زبيدة زوج الرشيد وعندها الجواري بالمئات . . وتقولون مع ذلك أننا فقراء . ؟ » فضحك الجميع من مجونه . ثم شغلوا بحركة وضوضاء ظهرت هناك فالتفتت لمياء فرأت ابن الفرات خارجاً وقد خرج الشريف مسلم لوداعه وابن الفرات يبالغ في احترامه والثناء عليه . ولما ودعه قال ابن الفرات « أتعدني ياسيدي بالذهاب غداً الى الاسكندرية ؟ »

قال « كن مطمئناً اني باذل جهـدي في اقناع القائد ان يقبل بالصلح وأنا ضامن ذلك باذن الله »

ففهمت ان ابن الفرات يسعى في المصالحة وتذكرت ماسمعته من ابي حامد في هذا الشأن . وأرادت ان تخاطب الشريف فرأته تحول الى غرفته كأنه في شاغل عن المقابلات فاجلت مقابلته الى فرصة أخرى وذهبت الى دار الحريم وقد تعبت واستلقت على الفراش ومالت الى الخلوة وأخـذت تفكر بما سمعته فغلب عليها النعاس فنامت رغم ارادتها

ولم تفق الا في الصباح على ضوضاء القوم في الدار فنهضت وسألت عن الشريف فقيل لهـا أنه بكر الى الاسكندرية مع وفد من اعيان المصريين ومعه كتاب الوزير أبن الفرات في طلب الصلح [1]

أما هي فانها ما زالت في قلق لمـا علمته من مساعي أبي حامد وأسفت لانها لم تستطع مقابلة مسلم قبل ذهابه . وهي في ذلك رأت يعقوب داخلا فأحست براحة وأسرعت اليه فلما رآها هش لها وتقدم نحوها فأومأت اليه ان يجلس وقصت عليه ما سمعته أمس . فاستغرب قولها وأدهشه عزم ابي حامد وما دبره فقالت « لا حاجة بي ان أخبرك عن أهم ما قصصت عليك »

قال « اما من حيث الحسين فاذا صح ما قالوه عنـه وانه آت الى هنا فهو في مأمن ولا شك ان ذلك الغادر مغرور » ثم اطرق وهو يحك عثنونه وقال « ولـكن .. » وسكت

فقالت « ولـكن ماذا ؟ هل استطيع ان اعمل عمـلا . . اني اشعر بتقصيري في مهمتي لاني شغلت بنفسي عن خدمة مولاي المعز ما بالك . . قل »

قال « فهمت من حديثك ان ذلك الملعون يهـدد سعينا في الصلح بدسائسه عند بنت الاخشيد ولا سبيل لى الى هناك وأنا رجل فلا استطيع التنكر . . . »

---

(١) ابن خلكان ١١٩ ج ١

فادركت انه يلمح الى استطاعتها ذلك لانها فتاة فاطرقت ثم قالت « هل أقدر أنا على ذلك ؟ »

قال « طبعاً ولـكن . . »

قالت « ماذا قل . . قد ادركت الآن مركز بنت الاخشيد في هذه الدولة ويظهر ان الـكل يثقون بها رغم ما بلغنا من تهتكها وانغماسها فما الذي ترى فيّ القدرة عليه ؟ »

قال « ليس اقدر منك على ذلك .. أرى ان تدخلي دار بنت الاخشيد وتتسلطي على عقلها حتى تصير أطوع لك من بنانك »

فعلمت انها لا بد لها من التجسس وهي اكبر نفساً من ذلك . فتوقفت عن الجواب لحظة وهي تنظر في مرآة معلقة في الحائط أعجبها شكلها لانها صنع مصر ولم تكن رأت مثلها من قبل . كانت تنظر الى المرآة وهي تفكر في أمر تنكرها . فابتدرها يعقوب قائلا « لا تترددي يا بنية . . اذا كنت تحبين المعز وتريدين الفوز لجوهر فالامر في يدك ولا يستطيع عليه سواك »

فلما سمعت قوله تحمست وهان عليها كل صعب فقالت « روحي فداء أمير المؤمنين وأحسب اني مت في مرضي هذا . فما العمل ؟ »

قال « هل تعلمين شغف بنت الاخشيد باقتناء الجواري الحسان ؟ .. »

فقالت « نعم اعلم ذلك »

قال « أرى ان تتنكري بثوب جارية مغربية وان اجملك هدية لبنت الاخشيد ولا ريب عندي انها لا تلبث ان تخاطبك حتى تستسلم لرأيك والامر بعد ذلك لفطنتك »

فنهضت وقالت « أنا مستعدة للذهاب من يأخذني وكيف اصنع ؟ »

قال « مهلي .. اني عائد بعد قليل وإنما أتقدم اليك ان تلبسي ثوباً مثل أثواب الجواري .. » قال ذلك وخرج

فلبست واصلحت شعرها وغيرت هندامها حتى اصبح من يراها لا يشك في أنها جارية وقد زادها الضعف جمالا وهيبة . ثم جاء يعقوب ومعه رجل

عرفت انه تاجر الرقيق الذي قبضوا عليه في القيروان ووقف بين يدي المعز واعترف انه جاء ليبتاع جواري لبنت الاخشيد فتجاهلت

ثم تقدم يعقوب وقال « هذه هي الجارية يا سيدي .. كيف تراها ؟ »

قال « لا بأس بها »

فضحك يعقوب وقال « لا تقل لا بأس بل قل انها جميلة وأظنها تعجب مولاتنا كثيراً نظراً لما فطرت عليه من الذكاء والادب فضلا عن الجمال »

فقال الرجل « ما اسمها وكم ثمنها ؟ »

قال « اسمها سلامة واما الثمن فاني لا أتاجر بالرقيق كما قلت لك وانما أردت ان افعل ذلك خدمة لمولاتنا . خذها اليها ويكفيني ان تقبل هذه الهدية مني . ولكن هذه الفتاة عزيزة علي لاني اعرف منشئها فلا ينبغي ان تعامل مثل سائر الجواري . اوص السيدة بنت الاخشيد بذلك اذا شئت »

قال « سأفعل » وأشار الى لمياء فتبعته وهي تتجلد

الفصل الثالث والستون

بنت الاخشيد

وكانت بنت الاخشيد تقيم في قصر قرب دار عبد العزيز أكبر دور الفسطاط وقد تقدم ذكرها . وذكرنا ما فيها من الغرف وعدد من فيها من الناس . وهي واقعة على ضفة النيل الشرقية يقابلها في الغرب جزيرة الروضة . وقصر بنت الاخشيد فخم يطل على النيل قد فرش بأثمن الرياش . والدولة الاخشيدية يومئذ في ابان بذخها تقلد العباسيين بما في دورهم من الرياش الفاخر والاثاث الثمين بالابسطة المطرزة والاستار المزركشة قد شدت الى الجدران بمسامير الفضة وفرشوا غرف النوم بالاسرة الذهب أو

الابنوس المنزل بالعاج ونصبوا منائر الفضة عليها الشموع المنبرية اذا أوقدت فاحت رائحتها حتى تملأ الفضاء

فلا غرو اذا دهشت لمياء عند دخولها ذلك القصر بعد ان رأت بساطة دار المعز في القيروان. وكانت تحسب دار أبيها في سجلماسة قبل سقوط دولته قد بلغت أرقى أحوال الحضارة فاذا هي لا تعد شيئاً بالنسبة الى دور الاخشيديين وخصوصاً هذه الدار لان بنت الاخشيد كانت لفرط اعجابها بنفسها تقلد نساء الخلفاء العباسيين بالبذخ والرخاء ولا سيما زبيدة زوج الرشيد فقلدتها باصطناع قبة من الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب ملبسة بالوشي والسمور والديباج الاحمر والاصفر والاخضر والازرق [١] رغم ما كانت عليه البلاد من الضيق

تلك كانت طريقة الحكومة في تلك الايام ولاسيما في اواخر الدولة. انما يهم الحاكم ان يجمع المال لنفسه ويتلذذ بالشهوات وقد يبلغ من تمتعه بالملذات ان يموت من التخمة والرعايا حوله يموتون من الجوع

وكانت بنت الاخشيد في حدود الكهولة تظهر لاول وهلة انها قوية الخلق وهي بالحقيقة ضعيفة الرأي لكنها جسورة لا تبالي ما تفعل ولا تقدر العواقب وكانت مثالا لطبقة المترفين من أهل ذلك العصر لا يفوتها ضرب من ضروب الملذات. وكانت وجيهة نافذة الكلمة ليس في رجال الدولة من لا يخشى بأسها ولا سيما في تلك السنة وقد مات كافور وصارت الامور الى احمد بن علي حفيد أخيها وهو غلام. فاصبح طبعاً طوع ارادتها هو وكل رجال دولته الا جعفر بن الفرات فاحب ان يستأثر بالنفوذ فاغضبها وأغضبته فمال مع الاهلين الراغبين بالتسليم لجوهر قائد جند المعز. وأما سائر الاجناد فكانوا يلتمسون رضاها لا يبرمون أمراً الا برأيها

وكانت جميلة الخلقة لا تزال الملامح التركية ظاهرة في محياها لان أباها فرغاني. ويظهر انها لم تتزوج رغبة في استبقاء عصمتها في يدها فانصرفت قواها الى التمتع بالحياة والتماس النفوذ والشهرة فجعلت قصرها مباء لرجال

(١) المسعودي ٣٦٦ ج ١

الدولة . وكانت في تلك الاثناء مشغولة الخاطر لما بلغها من عزم المصريين على التسليم ومعهم ابن الفرات لكنها لم تكن تتوقع حدوث ذلك فعلا إذ لم تكن على بينة من حقيقة حال الوطنيين ولا مقدار ما بلغوا اليه من الضنك . ولم يخطر لهـا انهم يجسرون على مخابرة الاعداء وكان ينبغي ان لا يفوتها ذلك ولكن حكام ذلك العصر لم يكونوا يحسبون للامة حساباً وانما يهمهم احتلابها وابتزاز أموالها

اصبحت بنت الاخشيد في ذلك اليوم وهي تتوقع ان يأتي رجال الدولة يشكون اليها ما فعله ابن الفرات . وقبل نهوضها من الفراش أتتها المواشط والولائد يخدمنها في ما تحتاج اليه من الغسل أو اللبس أو تسريح الشعر وتصفيفه . قضين في ذلك ساعة وهن يتسابقن الى استرضائها بالاطراء أو المجون . وهي في ذلك أتتها جارية تقول « ان صاحب الرقيق يستأذن على مولاتي »

قالت « دعيه ينتظر في البهو الكبير ريثما أخرج . . وهل هو وحده ؟»

قالت « معه فتاة لعلها جارية »

قالت « جارية سوداء ؟ »

قالت « كلا بل جارية بيضاء جميلة لم اشاهد مثلها قبل الآن »

فاهتمت بنت الاخشيد بذلك الخبر وأمرت الماشطة أن تسرع في إلباسها

اما لمياء فكانت قد اقبلت مع ذلك النخاس على قصر بنت الاخشيد وهو يمتاز بفخامة بنائه وبوقوف الحجاب ببابه ـ فمرت اليه في حديقة طرقها مرصفة بالحصى الملونة على أشكال الطير والوحوش فتقدمها النخاس وهي تتبعه حتى دخل باب القصر الى ردهة واسعة فرشت بالسجاد . وبعض السجاجيد عليها وشي جميل باشكال الزهور او بعض الحيوانات او ابيات من الشعر . فاستقبلتها القهرمانة قيمة القصر وعليها الاساور والدمالج وحول عنقها العقود حتى تكاد تنوء تحت أعبائها . فقالت لمياء في نفسها « اذا كانت هذه القيمة فكيف تكون السيدة » فدعتهما القهرمانة الى بهو الاستقبال فدخلا ولمياء تزداد شوقاً لمشاهدة بنت الاخشيد وذهبت القيمة لابلاغ الخبر

وبعد قليل اقبلت السيدة وهي تجر ذيل ردائها الوردي وراءها وعلى رأسها عصابة مرصعة قلدت بها العالية اخت الرشيد وصففت شعرها تصفيفاً خاصاً لا يجسر احد من اهل الفسطاط على تقليده وشبكته باكليل من الذهب بشكل طائر . وتمنطقت بمنطقة مزركشة لها عروة مرصعة على شكل الكروبيم ـ قلدوا به بعض ما على الآثار المصرية من الرسوم . وأدركت لمياء قدومها من حركة الخدم في الدهليز ومما تضوع من الطيب فوقفت ووقف النخاس وتقدم حتى اكب على يد الاميرة كأنه يقبلها وفعلت لمياء مثل فعله فظهر التكلف في حركاتها لانها لم تتعود مثل ذلك

فحالما رأتها بنت الاخشيد وقعت من نفسها موقعا جميلا وأعجبها ما في عينيها من المعاني السحرية والضعف زادها سحراً . فتقدمت الى لمياء ووضعت يدها على كتفها كأنها تحاول ضمها فاستأنست لمياء بها ووقفت مطرقة فاشارت اليها ان تجلس وجلست على مقعد من الابنوس فرشه مكسو بالحرير وقالت « من أين لك هذه الفتاة ! »

قال « هذه هدية من عبدك يعقوب بن كلس رآها لا تليق بأحد سواك نظراً لما هي عليه من الادب والذكاء . وقد كلفني ان انوب عنه في تقديمها »

فلما سمعت اسم يعقوب مرَّ في ملامحها شيء من الانقباض لكنها اظهرت الامتنان وقالت « انها هدية نفيسة لا أظن يعقوب أهدى مثلها في حياته فالظاهر انه يلتمس منا خدمة بعد ان اغضب الوزير جعفر (ابن الفرات) . ان أولئك اليهود امرهم عجيب . قد قبلنا هذه الهدية مع الشكر بارك الله فيك » قالت ذلك ومدت يدها فاستخرجت خاتماً من احدى اصابعها ودفعته اليه فتناوله وقبله ومضى . وظلت لمياء صامتة وقد أدهشها ما رأته من التباين العظيم بين حال الامة المصرية وحال حكامها أو اهلهم وقابلت بين بنت الاخشيد بمصر وأم الامراء في القيروان . وترجح عندها قرب سقوط هذه الدولة . وهي في ذلك أتى الحاجب فوقف قرب الباب فعلمت بنت الاخشيد انه يريد مخاطبتها في امر فأومأت اليه فتقدم فقالت « ما وراءك »

قال « ان بعض القواد الاخشيدية يلتمسون المقابلة »

فاظهرت استنكافها وقالت « دعهم ينتظرون » ونهضت وأشارت الى لمياء أن تتبعها وسألتها « ما اسمك »

فبغتت وأوشكت أن تقول اسمها الحقيقي فبلعت ريقها وقالت « سلامة. يا سيدتي »

فقالت « اسمك جميل » وصفقت ونادت القهرمانة فأتت فقالت لها « كيف ترين هذه الفتاة المغربية ؟ »

فنظرت اليها وهي تبتسم وقالت « ما شاء الله انها جديرة أن تكون في قصرك »

قالت « فاليك هي افردي لها غرفة خاصة ولتسترح الآن »

فأشارت مطيعة وانصرفت ولمياء تتبعها حتى أدخلتها غرفة بها نافذة تطل على النيل فاستأنست بمجرى الماء . لكنها لم تأت الى ذلك القصر وتركب ذلك المركب الخشن لتتمتع بالمناظر الطبيعية فاخذت تفكر فيما ينبغي ان تفعل . وتذكرت ان الحاجب أنبأ بنت الاخشيد وهي في حضرتها عن قدوم بعض القواد لمشاهدتها وهي فرصة ينبغي لها أن لا تفوتها والوقت ضيق لا يأذن بالتأجيل فاخذت تفكر في حيلة تستنبطها لحضور تلك الجلسة لعلها تستطلع شيئاً

الفصل الرابع والستون

الطعام

واذا بالقهرمانة دخلت وهي تتهادى بمشيتها تيهاً وتشمخ بأنفها عجباً . ولما دنت من لمياء وقفت لها تأدباً فقالت القهرمانة « يظهر انك وقعت من نفس مولاتنا موقعاً جميلا لم توفق اليه غادة قبلك » قالت ذلك وضحكت فبانت اسنانها متفرقة لان الزمان ذهب بنصفها . وكانت تلك القهرمانة جميلة في صباها لكن عيشة الرخاء أسمنتها وداهمتها الشيخوخة فجعلت جلدها

طيات يتقطر العرق من بينها . واذا مشت خطوتين لحقها التعب . لكنها مع ذلك كانت خفيفة الروح فاستأنست لمياء بها وسرها ما سمعته من اعجاب بنت الاخشيد لان ذلك يعجل ما ترجو الاطلاع عليه أو الوصول اليه في سبيل خدمة المعز . فأطرقت وقالت « ليس في ما يدعو الى اعجاب سيدتي الاميرة ولكنها ربما اشفقت على الضعف الظاهر في وجهي »

فقطعت القهرمانة كلامها قائلة « ان هذا الضعف يزيدك جمالا ولطفاً . . والآن فان مولاتنا الاميرة كلفتني ان اصلح من شأنك وآخذك اليها لتتناولي الغداء معها »

فشغلها ذلك التلطف عن التفكير بأبي حامد ورفيقه . واشتغلت القهرمانة بالاصلاح من شأنها فاتتها بثوب من الحرير الناعم الملون نسيج مصر وعليه صور تأخذ بالابصار وحوله منطقة مذهبة . وأخذت الماشطة في اصلاح شعرها وتضفيره على نسق خاص . فضايقها ذلك وتقدمت الى القهرمانة أن تعفيها من هذا التصفيف فاجابتها « هكذا تريد مولاتنا » فقالت « اسأليها لعلها تعفيني لان ذلك يضر برأسي »

فمضت ثم عادت وهي تقول « وهذا دليل آخر على حب مولاتنا لك فانها سمحت ان تكوني كما تشائين وأن تسرعي في الذهاب اليها فان المائدة قد اعدت »

فسرحت شعرها بيدها تسريحاً بسيطاً وضفرته ضفيرتين أرسلتهما الى الوراء الا خصلا صغيرة أرسلتها على الصدغين وأبت الاكتحال أو التزجج وبين يديها جارية سوداء تحمل لها المرآة فنظرت الى وجهها فيها فرأت انها اجمل مما كانت تظن . ثم مشت في أثر القهرمانة في دهليز يؤدي الى قاعة واسعة في صدرها دكة مرتفعة قد نصبت عليها المائدة ويشرف الجالس اليها على ضفاف النيل فيرى السفن ذاهبة جائية ووراءها جزيرة الروضة وفيها الابنية الفخمة وفي جملتها المقياس . ووراء ذلك بر الجيزة الى الاهرام

والقاعة مفروشة بالبسط والسجاد مثل اكثر غرف تلك الدار غير الاراثك والوسائد والمقاعد وكلها مذهبة او منزلة . وقد ارخيت الاستار

المزخرفة على الجدران التي تكسوها . ومنها ستارة في عرض القاعة مرفوعة بامراس من الحرير ترخى عند الحاجة فتحجب مجلس الاميرة عن سائر الجلوس . كانت هذه القاعة فرشت لعقد المجالس الكبرى . فاذا حضرت بنت الاخشيد المجلس أرخت الستارة المشار اليها ودار الحديث او المفاوضة ولا يراها أحد من الحضور . وأحبت ان تتناول طعامها فيها فى ذلك اليوم لاشرافها على النيل . فنصبوا لها بجانب المائدة مقعداً مكسواً بالخز المطرز باسمها . فجلست هي عليه والتفت بملاءة كالمطرف من القطيفة الحريرية وقد طرزت بالقصب ورصعت بالاحجار الكريمة باشكال بديعة تمثل شجراً وطيوراً وحيوانات أخرى وهي من جملة ما قلدت به نساء العباسيين في ابان بذخهم . ولعلها قلدت بها بساطاً لأم الخليفة المستعين عليه الطراز والترصيع بصور كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها من يواقيت وجواهر [١]

دخلت لمياء وبنت الاخشيد متكئة على ذلك المقعد والمطرف على جنبيها يأخذ لمعانه بالابصار والمائدة بجانبها عليها الاطعمة . وقد وقف الخدم من الجواري يحملن الاطباق فيها الحلوى او الفاكهة . وهن في اجمل ما يكون من الاثواب وتصفيف الشعور إلا لمياء فانها ظلت على بساطتها

فتقدمت القهرمانة اولا وأنبأت السيدة بنت الاخشيد بقدومها وانصرفت فدخلت سلامة (لمياء) وعليها ذلك الثوب الباهر الذي زاد وجهها اشراقاً وهيبة . ولم تمالك بنت الاخشيد عند دخولها عن الجلوس ووسعت لها مجلساً على المقعد ودعتها الى القعود بجانبها فقعدت فرحبت بها وقالت « ان هدية ابن كلس اليوم قد كفرت عن سيئاته وسيئات شيعته » وضمتها وقبلتها ولمياء مطرقة وقد زادها الحياء وقاراً — والحياء من أجمل ما تزدان به المرأة بل هو اجمل اثواب زينتها الحقيقية

ثم تقدمت بنت الاخشيد الى لمياء أن تتناول الغداء معها . وأشارت الى خادم بيده طبق أن يضعه على المائدة بين يديها وفيه سكباج فتناولت

(١) راجع تاريخ التمدن الاسلامي ١١٠ ج ٥

قطعة وناولت لمياء قطعة تشجيعاً لها فاطاعتهـا وتناولت مما حضر من الالوان . ولم يكن بينها شيء لم تعرفه الا لوناً في جام انكرته ولم تستلذ طعمه . ولحظت بنت الاخشيد ذلك فقالت « يظهر انك لم تستطيبي هذا اللون مع ان الدرهم منه يكلف مئات الدنانير انه مصنوع من أدمغة نوع من الطير لا يوجد في غير مصر ونحن تنفق في جمعه الاموال الطائلة لان دماغه كثير الغذاء واللقمة منه تغني عن عدة اطباق من اطعمة اخرى »

ثم امرت بالحلوى فاتوا بعشرات من اشكالها بين معاجين ومطبوخات وفاكهة . ويقدمون في اثناء الطعام باقات الازهار الطيبة الرائحة غير ما يرشونه في ارض القاعة من ماء الزهر او العطر وما يحرقونه فى المباخر المنصوبة بين الابواب من الند او العود

وكان في جملة ما قدموه على المائدة سائل محمر اللون (خمر) لم تعرفه لمياء ولا مدت يدها اليه بل هي حالما وقع بصرها عليه اقشعر بدنها لانهـا تذكرت الشراب الذي ذهب بحياة أبيها . على أنها كانت تنظر الى كل ذلك بعين الاستغراب وتقابل بين ما كانت تراه من تقشف المعز وأم الامراء والاموال عندهم في الخزائن وسلطانهم في ابانه وبين ذلك الرخاء والبلاد في ضيق والناس يتضورون جوعاً

وكانت بنت الاخشيد تأكل بنهم ولذة وتعجب لتعفف لمياء وتحسبهـا تفعل ذلك من علة لانها تعودت ان ترى غاية الانسان في دنياه ان يتمتع بالملذات على اختلاف اشكالها وضروبها . ولا تقدر تتصور أحداً يمتنع عن لذة الا اذا عجز عن نيلها ـ ذلك شأن المنغمسين في الشهوات وهم يكثرون في اواخر الدولة قرب سقوطها إذ تذهب ملذاتهم العقلية أوالادبية بذهاب مجدهم ونفوذهم فلا يبقى لهم غير الملذات البدنية فينصرفون اليهـا فلا تزيدهم الا ضعفاً وانحطاطاً ـ ان ملذات الرجال في اوائل الدولة تقوم بالنصر أو الفوز والمسابقة في الفتح أو نيل المناصب وتقويمها وتوسيع دائرتها لاتهمهم الملذات البدنيـة الا قليلا . فاذا ذهب المجد وأخذ أصحابه بالتقهقر لا يبقى غير هذه الملذات

أمرت بنت الاخشيد برفع المائدة وقد امتلأت معدتها وانتفخت عروقها وأسرعت دورتها وبان ذلك في عينيها واستلقت على ذلك المقعد . وأحبت لمياء ان تنتقل الى المقعد الآخر فامسكتها واقعدتها بجانبها وأخذت تحادثها فبدأت بالسؤال عن بلدها فقالت « من أين أنت يا سلامة ؟ »

فلم تعرف ماذا تجيب لانها لا تريد ان تكذب ولا ان تقول من هي فاجابت جواباً وسطاً فقالت « اني من افريقية (بلاد المغرب) »

فوقع اسم افريقية وقعاً شديداً على سمعها لانه شغلها الشاغل منذ عدة اشهر فتصاعد الدم الى وجهها لكنها تجاهلت وابتسمت وقالت « ان افريقية واسعة فمن أي قسم منها ؟ »

فقالت « ان الجوارى يا سيدتي لا يطلب منهن معرفة انسابهن لانهن ينتسبن الى مواليهن فأنا الآن في دار السيدة بنت الاخشيد وانما انتسب اليها وكفى »

فاستحسنت جوابها الدال على الذكاء وأحبت تبديل الحديث واذا بالحاجب دخل وقال « القواد الاخشيدية لا يزالون في انتظار الاذن لهم بالمقابلة يا سيدتي ... »

فتأففت وهزت رأسها وقالت « اقلقوا راحتي بمقابلاتهم .. ما أصنع لهم هذا اميرهم احمد فليقابلوه . . . » قالت ذلك ونظرت الى لمياء

فرأت لمياء ان لا تضيع هذه الفرصة فابتسمت ابتسامة مسايرة وقالت « صدقت يا سيدتي ان هذه المقابلات تزعجك لكنك تعلمين ان الرأس كثير الاوجاع ولولا ثقتهم بتعقلك وسداد رأيك لم يطلبوا مقابلتك . فاذا جاز لي أن أشير عليك أرى ان تأذني بدخولهم وتشجيعهم وتنصحي لهم فان أميرهم صغير السن .. »

فقطعت بنت الاخشيد كلامها قائلة « أحسنت يا سلامة لكنني لا أستطيع مجالستهم الآن بعد الطعام فأرى ان أؤجل الاجتماع الى المساء »

فقالت « ذلك لك اذا شئت . لكنني لا أظنهم يلحون للاجتماع في هذه الساعة الا وهم في أشد الحاجة اليه واذ استثقلت الانتقال الى قاعة

أخرى أدعيهم الى هنا وانزلي هذا الستر بينك وبينهم وخاطبيهم بما تريدين»
فاعجبها هذا الرأي كثيراً لانها يمكنها ان تتمتع براحتها في الجلوس أو الاتكاء وقالت « هذا الرأي صواب على شرط ان تبقي أنت معي »

ففرحت لمياء بتلك الدعوة وهي غاية مناها لكنها قالت « اذا لم يكن بأس من وجودي فاني باقية حسب أمرك . . »

قالت « ان وجودك يؤنسني .. ولا تستغربي ما ترينه من اعجابي بك لاول مرة رأيتك فيها فاني لم أجد هذه الاخلاق في واحدة من الجواري فانت اميرة باخلاقك » ثم التفتت الى الحاجب وقالت « اذا شاء القواد فليتفضلوا الى هنا » وامرت بعض الخدم ان يرخوا الستر فاصبحت القاعة قاعتين بينهما ذلك الستر وهو من الديباج المطرز وفيه ثقوب ترى منها من شاءت من الجلوس ولا يرونها

الفصل الخامس والستون

الجاسة

ولبثت لمياء جالسة وهي تنظر من أحد الثقوب لتتعرف الداخلين وما لبثت ان سمعت وقع الاقدام وقلقلة السيوف واذا بثلاثة عليهم الالبسة الفاخرة والعمائم الصغيرة والدراعات المزركشة مما يلبسه كبار القواد . وقد تقلد كل منهم سيفاً يجر الى جانبه وحالما دخلوا ألقوا التحية فأمرتهم بنت الاخشيد بالجلوس وهمست للمياء « هؤلاء ثلاثة من قواد جندنا المخلصين ويعرفون بالاخشيدية نسبة الى والدي الاخشيد رحمه الله

فاظهرت لمياء الاعجاب . فقالت بنت الاخشيد بصوت عال « مرحباً بقوادنا الاجلاء عسى ان يكون مجيئكم لخير »

فابطأوا في الجواب هنيهة لحظت لمياء في خلالها ان كلا منهم يدعو

الآخر للكلام . ثم تصدى اكبرهم سناً وقال « اننا جئنا لخير ان شاء الله ونأسف اننا ازعجنا مولاتنا بمجيئنا ولكننا لم نر بداً من ذلك والعدو على الابواب وهؤلاء الكافورية لايزالون ينازعوننا على هذه الدولة . وكنا نحسب مبايعة مولانا الامير احمد توقفهم عند حدهم فيكفون عن تعدياتهم فاذا هم على ما كانوا عليه يفسدون الجند علينا ويوغرون القلوب على مناوأتنا والوزير جعفر لم يزدد الا استبداداً في الدولة وقد قبض على الاموال فلم يترك بيضاء ولا صفراء . وقد بلغنا انه كاتب العدو بالتسليم فهل ترضى مولاتنا بهذا العمل ؟ أم هو استخف باميرنا لانه صغير السن »

فقالت بنت الاخشيد « أنا لا أرضى بذلك . . هذا لا يكون ابداً . . نسلم البلد الى العدو وعندنا الجند والقواد ؟ كيف يفعل الوزير ذلك . لا بد من عزله »

فأجاب أحد القواد « انما فعل ذلك بايعاز الكافورية لانهم على رأيه وقد ساءهم كما ساءه ان يعود الامر الى نصابه ويتولى الملك أهله واصحابه وقد خرج من أيديهم فارادوا ان يخرج من يد اميرنا ولو صار الى عدونا . . » قال ذلك والحنق باد في كلامه

ولم تكد بنت الاخشيد تتدبر كلامه حتى سمعت ضوضاء بباب القاعة ثم دخل بضعة رجال عرفت انهم من قواد الكافورية وكأنهم كانوا بالباب وقد سمعوا الطعن بهم وأرادوا الدخول فمنعهم الحجاب فدخلوا قهراً وتصدى واحد منهم للكلام ووجهه الى الطاعن وقال « تقولون انا أفسدنا الدولة وانها لكم وقد اختلسناها مدة . انا لم نختلسها ولولا أميرنا كافور رحمه الله لصارت هذه الدولة في خبر كان . فهو الذي حفظها ونظمها وثبت دعائمها من أول أمرها منذ تولاها مولانا الاخشيد رحمه الله . فقد كان له خير نصيح ومشير ولو ظل كافور حياً الى الآن لم يجسر العدو على حربنا . وها أنتم ولاة الامر الآن فاخرجوا العدو من الدار »

فاجابه الاخشيدي « نعم اننا نخرجهم اذا تركتمونا ولم تمالئوهم وتطلبوا صلحهم .. دعونا اننا نعيدهم على اعقابهم .. »

فصاح فيه قائد آخر « ويحك تقول ذلك بجسارة بين يدي مولاتنا . تقول اننا نمالىء الاعداء ؟ »

فأجاب « نعم إنكم تمالئونهم ألم يكن الوزير جعفر سيدكم ونصير اميركم وهو الآن يخابر الاعداء في طلب التسليم .. »

فضحك ضحكة اغتصابية وقال « انه يفعل ذلك برأينا . . ومع ذلك فقد أحسن صنعاً .. ان دولتكم قد شاخت واذا أنكرتم ذلك هلم الى العدو وحاربوه واخرجوه »

فحمي غضب الاخشيدية وصاحوا بصوت واحد « اننا لا نقبل هـذه الاهانة وخصوصاً بين يدي مولاتنا ومولاتكم . » وتقدم أحدهم ويده على قبضة حسامه وقال « والله لولا حرمة هذا المكان لضربت اعناقكم بهذا الحسام وألحقتكم باميركم العبد الاسود الذي تفاخروننا به . . صدق فيـه المتنبي (اشارة الى هجوه إياه)

فتصدى رجل من الـكافورية واستل حسامه وقال « ويحك تطعن في الاموات .. انها وقاحة لم يكن لمولاتنا بنت الاخشيد ان تسكت عنها »

وعلت الضوضاء فصفقت بنت الاخشيد وصاحت « ويحكم ما هـذا . تتشاتمون في حضرتي . واغرب من ذلك ان نسمع الطعن في اسلافنا باذننا هـذا أمر لا نرضاه . وليس هـذا وقت الخصام والعدو بالباب . . وأنتم يا اصحاب كافور ان كافوراً كان خادماً أميناً رحمه الله فما بالكم تفاخروننا به أما امارته فقد كانت فلتة انتحلها لنفسه أو انتحلهـا له بعض اصحاب الاغراض وزعم ان الخلعة أتته من بغداد .. ما لنا ولهذا الآن انه خصام في غير أوانه . . »

فوقف الـكافورية جميعاً وقال كبيرهم « اما وقد سمعنا هـذه الاهانة من فم مولاتنا فلم يبق لنا الا ان نخرج ونترك الامر لاصحابه وولاة امره » قالوا ذلك وانسحبوا بعجلة والغضب باد في كل حركة من حركاتهم

وكانت لمياء في اثناء ذلك لا تزداد الا وثوقاً بنجاح جنـد المعز . فقد

رأت بعينيها وسمعت باذنيها اختلال امور الدولة وانقسام قوادها وتباغضهم مما لا سبيل الى اصلاحه

فلما خرج الكافورية التفتت بنت الاخشيد الى لمياء كأنها تستشهدها على هذه الوقاحة وقالت « أرأيت أجهل من هؤلاء . . ويلاه كيف نحارب الاعداء .. اننا لا نقوى على حربهم . . »

فاستبشرت لمياء بالفوز وقالت « يسوؤني يا سيدتي ان تكوني قد نطقت بالصواب وعسى ان تكوني مخطئة »

وكأن بنت الاخشيد ندمت على ما فرط منها فاستأنفت الكلام قائلة « بل أنا مخطئة لا . لا اريد ان اتصور ذلك ولو بالحلم . يدخل البلاد عدو غريب يحكم في رقابنا ؟ » ورأت انها كان ينبغي لها ان تستعطف الكافورية باللين وانها أخطأت بما قالته فارادت أن تلقي التبعة على سواها شأن ضعيف الرأي في مثل هذه الحال . فالتفتت الى الاخشيدية وكانوا لا يزالون واقفين يتحدثون بما أتاه الكافورية وقالت « لم يكن ينبغي لكم أن تجافوهم بمثل هذا الكلام وهم اخوانكم وعليهم المعول في الحرب فاغضبتموهم »

فاجابها احدهم « وأنت يا مولاتنا تلقين هذه التبعة علينا ؟ وقد سمعت الاهانة التي لحقت بنا وبك وبسائر آل الاخشيد . فليكن ما تشائين . أو لعلنا أخطأنا بمبايعة الامير احمد مع صغر سنه لكننا لم نفعل ذلك الا اعتماداً على نصرتك . فاذا كنت ترين اننا غير كفء لشيء فانذهب » قال ذلك وتحول وتبعه رفاقه

فاحست بنت الاخشيد عند ذلك بضعف العزيمة وأنها اصبحت منفردة لا نصير لها الا اذا تذللت واستعطفت فانقبضت نفسها وبان الانقباض في وجهها وسكتت هنيهة ولمياء تراقب حركاتها وتقرأ ما يجول في خاطرها . فلما رأتها في تلك الحال قالت « ما بال سيدتي كئيبة . . أمن اجل كلمة تقبض نفسك ؟ »

فتنهدت وقالت « آه يا سلامة ليس من اجل كلمة ولكن هؤلاء

لا يقدرون العواقب وقد خرجوا من هذه الجلسة اخصاماً يتوعد بعضهم بعضاً وهم يدنا وساعدنا وجندنا فبمن نحارب عدونا ؟ لا نصالح ولا نقدر ان نحارب . ويلاه ما العمل » ودمعت عيناها . فاكبت لمياء عليها وضمتها وقبلتها وقد أشفقت عليها وقالت « لا بأس عليك يا سيدتي لا تخافي »

فاستأنست بذلك الحنو وقالت « كيف لا أخاف ؟ واذا كان العدو كبيراً كما يظنون وقدر له الغلب ماذا يصيبني ؟ »

قالت « لا يصيبك شيء يا مولاتي »

قالت « لا تلطفي الامر علي . . »

قالت « اني لا ألطفه ولا يجب مع ذلك ان تيأسي من النصر . ولكن هب لا سمح الله ان العدو اغتنم هذا الضعف وتغلب فانت في أمان لأن هؤلاء المغاربة مع كونهم اعدائكم اقرب الى الضن بكم من هؤلاء الاجناد المتمردين »

فرأت في لهجتها شدة وعزيمة فقالت « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت « اعرفه بالاختبار لأني من بلاد المغرب كما تعلمين وكان سيدي الاول له علاقة كبيرة باهل القيروان وتعرف الى المعز وقائده . وكثيراً ما سمعتهم يتحدثون وعرفت طباعهم — انهم اقرب الى الخير من هؤلاء الاجناد و . . »

فقطعت كلامها قائلة « هل تعرفين المعز وقائده ؟ »

قالت « نعم يا سيدتي اعرفهما معرفة جيدة وهما يعرفانني ايضاً »

فضحكت من السرور بهذه البشارة وأحست بنفوذ تلك الفتاة وأحبت أن تقول شيئاً فمنعها الحياء وحالت دونه الانفة فادركت لمياء غرضها فبادرتها قائلة « انظري يا مولاتي . . ان ما لقيته من لطفك ومحبتك يوجب علي ان أغار على مصلحتك فاذا اذنت لي اقول كلمة »

قالت « قولي »

قالت « انكم الآن في حرب مع المغاربة وسمعت الآن ان ابن الفرات ساع في الصلح فاذا وفق اليه كوني على ثقة انك تكونين معززة

مكرمة فاني اعرف ام الامراء زوج المعز وهي من ألطف خلق الله وتحبني حباً جماً . فانا ضامنة كرامتك . واذا لم يفلح ابن الفرات بالصلح وجرت حرب فاذا فاز المصريون فانت صاحبة السيادة طبعاً . واذا غلبوا على أمرهم فانا افديك بروحي وأكون وسيلة لحفظ كرامتك وأموالك كوني براحة »

ففرحت بنت الاخشيد بهذا الوعد ولكنها أحست بصغر النفس وندمت على تصريحها بما قالته وخافت ان تستضعفها لمياء أو تحتقرها فقالت « ولكن الفوز مع ذلك راجح لنا باذن الله »

فقالت لمياء « ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء . . لكني قلت لك ما أستطيع ان اخدمك به والامر لله »

فضمتها بنت الاخشيد الى صدرها وقالت « اني أشكرك يا عزيزتي في كل حال . . »

الفصل السادس والستون

جلسة أخرى

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل وتحفزت بنت الاخشيد للنهوض فوقع بصرها على قارب يجري في النيل بسرعة فالتفتت لمياء وتفرست بمن فيه فلم يطل تفرسها حتى رأت فيه جماعة فيهم ابو حامد وسالم فخفق قلبها وارتعدت فرائصها وعلتها البغتة وتوردت وجنتاها لكنها تجلدت وتجاهلت فقالت بنت الاخشيد « هل ترين ذلك القارب ؟ يظهر انه قادم الينا وقد تعبنا اليوم من المقابلات » قالت ذلك ونهضت حتى أطلت من الشرفة ولمياء معها فرأتا القارب وقف عند المسناة بقرب باب القصر فقالت « انهما قادمان الينا بلا شك فهل اقابلهما ؟ »

قالت لمياء « تسأليني يا سيدتي ؟ اني لا أرى بأساً من المقابلة من وراء

هذا الستر لعل مع القادمين خبراً جديداً فاذا اعجبنا استفدنا منه والا اهملناه »

قالت « لله درك من حكيمة عاقلة . . يا ليتني ظفرت بك من قبل »

وبعد هنيهة جاء الحاجب يستأذن لرجلين من اعيان المغرب . فاذنت بنت الاخشيد في ادخالها وأخذ قلب لمياء بالخفقان حتى خافت أن تخونها عواطفها فتشاغلت بالالتفات الى النيل لئلا يبدو ارتباكها . ثم دخل الرجلان فرأت من وراء الستر انهما ابو حامد وسالم فجعلت تغالب عواطفها لترى ما يكون وهي تتوقع أن ترى شيئاً جديداً يتم لها به ما كشفته في تلك الجلسة وكان قد أقلقها ما سمعته من القبض على الحسين

فلما دخلا ألقيا التحية كالعادة فامرت لهما بنت الاخشيد بالجلوس ورحبت بهما ولمياء تتفرس فيهما فرأت سالماً على غير ما تعرفه من الجمال فظنت أن السفر غيره والواقع ان ما عرفته من خيانته وغدره قلل كثيراً من جماله ـ بعضه من تأثير الاحتقار والبعض الآخر من تأثير العواطف على الملامح . فان الرجل ضعيف الخلق قد ينشأ وفي وجهه هيبـة وأنفة فاذا توالى عليه الذل ظهر في سحنته شيء منه

فلا غرابة لما ظهر لهـا من تغير سحنته وقد مضت سنة وبعض السنة وهو ينقاد لابي حامد ويظهر بما يريده له من المظاهر المختلفة ـ أما ابو حامد فقد كان أقوى خلقاً وأثبت عزيمة . يدلك على ذلك بقاؤه على المطالبة بدم ابي عبد الله الشيعي دهراً لا يرى لنفسه عنه متحولا رغم ما لقيـه من الفشل على انواعه وآخر فشله في امر كافور وقد أوشك أن ينجح لو بقي كافور حياً ولم يصب جند مصر ما أصابه من الانقسام . ومع علمه بانقسام الجند وضعفه فان عزمه لا يزال ثابتاً ولم يرجع عما عزم عليه منذ أعوام وهو يسوق سالماً معه فيطيعه ويقول بقوله

فلما جلسا بعد القاء التحية قالت بنت الاخشيد « مرحباً بالاضياف من أين أتيتم ؟ ومتى كان قدومكم ؟ »

قال ابو حامد أتينا مصر منذ بضعة اشهر ونحن من امراء المغرب في

سجلماسة أصابنا ما أصاب سائر امراء المغرب من ظلم العبيديين ففتحوا بلادنا واستبدوا فينا وطلبوا الينا التسليم فلم نقبل فاتينا مصر لنعيش في ظل الاخشيديين حيث لا يقع بصرنا على أحد من اعدائنا ولعلنا نستطيع خدمة لهذه الدولة . وقد بلغنا أمس ان دعاة الخلافة بالمغرب زحفوا على مصر بقيادة المملوك الصقلي فصرنا نتوقع أن تجتمعوا لدفعهم لان هذا الامر يهمنا كثيراً وعدو عدوي صديقي . لكننا سمعنا بما أصاب قلوب بعض القواد والوزراء من الخوف حتى تحدث بعضهم بطلب الصلح . فاستغربنا هذا الضعف واحببنا أن نبرهن للاجناد خطأهم فلم نر أوجه من بنت الاخشيد لان الامير حفيد أخيها وهو غلام فهي صاحبة الصوت الاقوى »

وتنحنح ابو حامد ومسح شاربيه بيده وأرسلها على لحيته وحك عثنونه

فقالت بنت الاخشيد « بارك الله فيك ما الذي جئتنا به من اسباب الاطمئنان ؟ »

قال « ان ما جئتك به يا مولاتي انما هو ان اسعى في التوفيق بين القواد الاخشيدية والكافورية . وهذا لا يكون إلا ان اثبت لهم ان جند المغاربة لا يستطيع ان يفتح هذه البلاد لان انقسامهم انما وقع بسبب خوفهم من الفشل وهذا طبيعي في كل زمان ومكان ـ لا يختصم شريكان الا اذا خسرت تجارتهما . فاذا برهنت لهم على يدك ان اولئك الدعاة لا يمكن ان يفتحوا مصر تشددوا واتحدوا وطردوا العدو عن بلادهم »

فاعجبت بنت الاخشيد بفصاحته وقوة حجته ونظرت الى لمياء فوجدتها مصغية بكليتها ولم تتنبه الى ارتباكها فقالت لابي حامد « وماهو دليلك ؟ »

قال « دليلي ان قائد جند المغاربة رجل اسمه جوهر الصقلي ولهذا الرجل غلام اسمه الحسين هو عزيز عليه . فعلم الحسين هذا بمال كنا قد خبأناه في بعض الاماكن قرب سجلماسة لنستعين به على استرجاع ملكنا فاغتنم غيابنا وذهب بشرذمة من الجند ليقبض ذلك المال . لكن رجالنا هناك قبضوا عليه وأرسلوه الينا مغلولا فاذا شئت دفعناه اليك ليكون رهنا تهددون به أباه ان توهم اقتداره على مصر »

وتذكرت بنت الاخشيد قول لمياء انها تعرف المعز وقائده وسائر رجال الدولة في القيروان فلما سمعت ما قاله ابو حامد عن الحسين بن جوهر التفتت اليها فوجدتها لا تزال شاخصة تتطاول بعنقها لسماع بقية الحديث فقالت لها همساً « هل تعرفين الحسين بن جوهر ؟ »

قالت « نعم اعرفه وأحب أن تأمري باحضاره لئلا يكون هذا الرجل كاذباً »

قالت « وهل تعرفين هذين الرجلين ؟ »

قالت « نعم رأيتهما في القيروان وسمعت عنهما ما يضعف الثقة بهما فاذا أمرت باحضار اسيرهما لنراه كان ذلك اقرب الى التحقيق »

فالتفتت بنت الاخشيد من وراء الستر وقالت « أين هو ذلك الاسير »

قال أبو حامد « هو عندنا واذا شاءت مولاتى اتيناها به »

قالت « افعل ولك الفضل »

فاشار أبو حامد الى سالم ان يمضي لاستقدامه فمضى ولبثت لمياء على مثل الجمر تتماسك وتتجلد لئلا تغلبها عواطفها وهي تحب ان يكون كاذباً في قوله فيكون الاسير المزعوم رجلا آخر لكنها ما لبثت ان سمعت ضوضاء قرب الباب وسالم يقول « تقدم يا جبان لتراك مولاتنا بنت الاخشيد »

فتطاولت لمياء بعنقها حتى وضعت عينها على ثقب الستر واذا بالحسين نفسه داخل والاغلال الحديدية في عنقه ويديه لكنه مشى بقدم ثابتة والتفت الى سالم وقال له « متى رأيتني أحاول الفرار حتى تدعونى جباناً »

فالتفتت بنت الاخشيد الى لمياء لتستطلع رأيها في الرجل فرأتها ترتعد وقد احمرت عيناها وكادت تغلب على أمرها فقالت « هل هذا هو الحسين كما يقول ؟ »

فاشارت برأسها ان « نعم » ولم تفه بكلمة لئلا يختنق صوتها فينفضح أمرها فاستغربت بنت الاخشيد ما بدا من اضطرابها لكنها وجهت خطابها الى الحسين قائلة « هل أنت الحسين بن جوهر قائد جند المعز ؟ »

فأجابها وهو رابط الجأش ثابت الجنان « نعم أنا الحسين بن جوهر فاتح افريقية وقائد جند المعز وسيفتح مصر عن قريب »

فوخزه سالم بيده وقال « اخرس يا نذل أبمثل هذه الوقاحة تخاطب مولاتك ؟ »

فرفسه الحسين برجله وقال اخرس انت انها مولاتك انت . ولعلها لو عرفتك تبرأت من هذه الولاية أما مولاي فهو المعز لدين الله الفاطمي »

فتصدى أبو حامد للكلام وهو يضحك ضحك الاستخفاف وقال « ألا تزال تسمي ذلك الدعي فاطمياً وفاطمة بريئة من نسبه »

فقال الحسين « انه فاطمي رغم خيانتك وغدرك »

فقالت بنت الاخشيد « الذي أوقعك في هذا الاسر ، ما كان اغناك عنه »

قال « وقعت فيه تفانياً في خدمة مولاي المعز وقد فزت والحمد لله بما أردت . فأخذت المال الذي خزنوه في فج الاخيار وبعثت به الى القيروان وهو الآن مع والدي وقد صبوه قطعاً كالارحية حملوها معهم على الجمال ..

قال ابو حامد « لا تكذب ! »

قال « انما الكاذب أنت ! . انى قد فعلت ما يطلب مني وارسلت ذلك المال الى مولاي المعز وسيستعين به في فتح مصر. ولا يغرنك ما أتاه رجالك من الخيانة في القبض علي فان ذلك غير ضائري . قد قمت بما علي واذا مت الساعة لا أبالي فان الاعلام الفاطمية لا تلبث ان تخفق فوق الفسطاط واذا لم اوفق الى رؤيتها وأنا حي فان عظامي تراها وتفرح »

فاعجبت بنت الاخشيد بتلك الجسارة التي لا تقدر ان تتصورها ولا سمعت بمثلها لما نشأت عليه من الخمول والرخاء فالتفتت الى لمياء فرأتها مع عظم تأثرها قد غلب البشر على محياها فقالت لها همساً « استغرب ما اسمعه »

قالت لا تستغربى يا سيدتى . فان ذلك شأن اولئك الاقوام وهم لم يفتحوا افريقية الا بمثل هذ التفانى »

قالت ومع ما سمعته من هذا الشاب فاني شعرت بانعطاف اليه ولم يعجبني تطاول هذا السجلماسي »

فلم تتمالك عن الانتصار لحبيبها فقالت « فكيف لو علمت الفرق بين الرجلين بالاخلاق »

قالت «هل تعرفين شيئاً عنهما ؟ »

قالت « ان أهل القيروان يتحدثون بذلك . . أما الآن فاذا شئت مري ان يكون هذا الاسير في دارك ولينصرف ذانك وترى ما يأتي به الغد »

قالت « أحسنت الرأي وقد اصبحت لا اطيق ان أرى الحسين مغلولا » وصفقت فاتى بعض غلمانها فقالت « خذ هذا الاسير الى غرفة يقيم فيها حتى تنظر في امره لكن احلل وثاقه إذ لا خوف من فراره »

فتناوله الغلام بيده وخرج فوقع هذا العمل من لمياء موقعاً جميلا وكاد قلبها يطير من الفرح . ولحظت بنت الاخشيد ذلك فيها فظنتها فعلته لشعور مثل شعورها فعذرتها والتفتت الى أبي حامد وقالت « سننظر في ما عرضته علينا وسأقص ما رأيته على قوادنا فعسى ان ينفعنا ذلك » ففهم ابو حامد انها تطلب انصرافهما فنهض وخرج مع سالم وقد سقط في ايديهما وان لم يفهما ما جال في خاطرها

الفصل السابع والستون

الرأي

ونهضت بنت الاخشيد للحال وهي تتثاءب وتقول ما اشغل هذا اليوم وما أثقله فقد تعبت من المفاوضات ـ ان هذا لا يستطيعه الا كبار الرجال وقد اخطأنا بتولية هذه الامارة غلاماً صغيراً »

فنهضت لمياء معها والشمس قد غربت وأخذت الظلال تتكاثف وتتحول الى ظلام . وأصبحت تود الاختلاء بنفسها للتفكير في ما تراكم في ذهنها من الحقائق الجديدة وما أصاب قلبها من الصدمات المتوالية فرأت بنت الاخشيد تحولت الى غرفتها وأشارت اليها أن تتبعها فأطاعت وقد أدهشتها تلك الغرفة بما فيها من الرياش الثمين وفي صدرها سرير من الابنوس المنزل بالعاج والذهب فوقه ناموسية من الحرير الشفاف (الملس) وكل ما في الغرفة زاه زاهر عكس قلب صاحبته المسكينة فانها تحولت من تلك الجاسة وقد تراكمت عليها الهموم والمخاوف ولم تكن تشعر بشيء من ذلك قبلا . وأصبحت شديدة التعلق بلمياء ولا سيما بعدما آنسته من تعقلها والخدمة النافعة التي عرضتها عليها فأحبت أن تتوثق منها

فجلست على سريرها وأمرت لمياء أن تقعد بجانبها فقعدت وهي تفضل الخلوة لكنها أطاعتها ولحظت ما هي فيه من القلق فاشتركت معها في احساسها وشعرت انها امتلكت قلبها ــ ظلتا هنيهة صامتتين وبنت الاخشيد مطرقة ويمناها على كتف لمياء واليسرى على قلبها كأنها تتقي صدعاً أصابه . ثم تنهدت ونظرت الى حولها لتتحقق خلو المكان من الناس ثم التفتت الى لمياء وضمتها الى صدرها وقبلتها في عنقها وأطالت تقبيلها فشعرت بسائل حار يقع على عنقها فأجفلت وعلمت ان بنت الاخشيد تبكي وهي تحبس نفسها لئلا تلحظ لمياء ضعفها . فتلطفت لمياء ورفعت رأسها وضمتها وهي تقول « ما بالك يا سيدتي ؟ خففي عنك . اني لا أرى باعثاً على ذلك . ومن كان في ما انت فيه من الوجاهة والنفوذ لا يستغنى عن امثال هذه المشاكل »

فرفعت رأسها وتنهدت ثانية وقالت « لا تعجبي من إبداء ضعفي بين يديك في اول يوم عرفتك فيه فاني اشعر كأني اعرفك منذ اعوام . وقد اطلعت على حالنا الليلة فاشيري علي . اشيري يا حبيبتي »

فسرت لمياء من وثوق تلك المرأة بها وأحست فعلا بالعطف عليها واستغربت انقلابها بهذه السرعة عما كانت عليه من الزهو والتيه لما قابلتها

في ذلك الصباح . وشاركتها بالبكاء وليس اسهل عليها من ارسال الدمع فان مصائبها تترى واحساسها حي فقالت « هوني عليك يا مولاتي اني لا أرى باعثاً على هذه الشكوى . وقلت لك ما اقدر ان اخدمك به وقد فتح لنا باب جديد بوجود الحسين بن جوهر اسيراً في قصرك وتحت رعايتك ولا ينفعك ان تثقليه بالقيود والاغلال فان ذلك لا يؤذيه . ولا اقول لك اطلقيه فان في ذلك خيانة لبلدك . ولكنني اقول لك لاطفيه واحسني وفادته فاذا قدر النصر لجند مصر كان الحسين هذا من جملة اسرى الحرب . واذا فاز القيروانيون وانهزم المصريون عرف الحسين فضلك وسعى في صيانتك وحفظ كرامتك »

فدهشت بنت الاخشيد لهذا الرأي الذي لا يقبل التعديل فقالت « بورك فيك .. ولعلك علمت اني غضبت لهذا الشاب من تلقاء نفسي وساءني ما أتاه ذلك السجلماسي من الفظاظة في معاملته وشعرت بما علمته منك بعد ذلك من التباين في اخلاقهما فأنا ميالة الى محاسنة الحسين وسافعل . . »

فاطرقت لمياء لحظة ثم قالت « وعندي رأي أظنك توافقينني عليه اعني أننا اذا صارت حالنا الى الخطر استكتبناه كتاباً الى ابيه في الوصاية بك وبمن في دارك »

فاظهرت امتنانها ونهضت تظهر رغبتها في الانصراف فاحست بنت الاخشيد انها اتعبتها في ذلك اليوم فنهضت وودعتها بقبلة وقالت « اذهبي الى فراشك يا عزيزتي واستريحي فقد اتعبتك في هذا اليوم »

فودعتها وانصرفت الى غرفتها وقد امتلأ صدرها أملا بالفوز وأصبح همها ان تنقل ما شاهدته من فساد احوال الدولة والجند الى يعقوب حتى ينقله الى معسكر جوهر بالاسكندرية فلبثت تتربص الفرص

أما الحسين فانه كان قد ذهب الى فج الاخيار في شرذمة من الفرسان وتمكن من استخراج الاموال وارسالها الى القيروان ثم غافله حفاظ ذلك المخبأ واستفردوه فعقروا فرسه وبعد معركة جاهد فيها جهاد الابطال تكاثروا عليه حتى سقط فشدوا وثاقه ووضعوا الاغلال في يديه ورجليه

وعنقه وبعثوا به الى أبي حامد بمصر ولم يخبروه انه تمكن من حمل المال قبل القبض عليه . أو لعلهم أخبروه وتجاهل . وثم وصل الحسين باغلاله ومصر في تلك الحال فرأى أبو حامد ان يتخذه تتمة لمساعيهم فحمله الى بنت الاخشيد كما رأيت لكنه أحس قبل خروجه من حضرتها أنه لم ينجح بتلك الحركة ولكنه تجاهل بين يدي سالم وأوهمه أنهما نائلان ما يريدان عن قريب وان الجند القيرواني سيعود بالفشل . وكان يحسب التوفيق بين الاجناد اسهل مما رآه على أثر ذلك النزاع في مجلس بنت الاخشيد

أما الحسين فشعر أنه سيق الى ذلك القصر لحسن حظه . وفاتحة الفرج حل اغلاله فبات تلك الليلة مرتاحاً وفي صباح اليوم التالي أتوه بثياب نظيفة وفرشوا له غرفة خاصة ووقفوا خادماً للقيام بما يحتاج اليه من طعام وشراب كل ذلك باسم السيدة بنت الاخشيد . فلم يكن ينقصه شيء غير الخروج من ذلك القصر فهذا كان محظوراً عليه فكان يقضي أوقاته مفكراً في ما مر به ولم تبرح صورة لمياء من ذهنه . ولم يكن يعرف الى أين ذهبت وكلما تصور معاملة سالم وأبي حامد له يغضب ويتوعد . وكان وهو في أثناء الطريق قد علم بحملة أبيه على مصر ونزوله الاسكندرية وسمع وهو في قصر بنت الاخشيد ان بعض المصريين خابروه بشأن الصلح والتسليم وود لو انه مطلق ليشترك في المعارك . وبقدر ما كان من نقمته على أبي حامد وسالم بقدر ذلك وأكثر منه كان امتنانه من بنت الاخشيد لاكرامها اياه بلاسبب يعلمه

وبعد ايام جاء رسول يدعوه الى مقابلة بنت الاخشيد في قاعتها فلبس ثيابه وصعد فادخله الحاجب الى تلك القاعة ونادى السيدة من وراء الستر قائلا « هذا يا سيدتي الحسين بن جوهر في حضرتك وها اني خارج وقد تركته وحده كما امرت »

فتقدم الحسين والقى التحية فردت السلام وقالت « كيف ترى نفسك يا حسين »

قال « أراني مقيداً »

قالت « ألم نحل قيودك ؟ »

قال « بلى وهذا فضل لا انساه لك وقد فعلت ما هو أليق بالكرام ولكنني لا أزال أراني مقيداً .. اني كالحبيس في هذا القصر »

قالت « لا ألومك لضجرك من هذا الحبس ولكن لو كنت في مكاننا هل كنت تفعل غير ذلك ؟ ان أباك حامل علينا بخيله ورجله ووقع لنا ابنه وبلغنا انك من خير القواد فهل نطلقك لتكون عوناً لعدونا علينا ألا يكفي اننا حللنا قيودك واطلقنا لك الحرية وقمنا بما تحتاج اليه من اسباب الراحة . . . »

فاعجب بتلك الحجة الدامغة وقال « لا أنكر فضلك يا مولاتي والحق يقال انني لا أنسى هذا الجميل .. والدنيا دول . . »

فقالت «عسى ان تنتهي هذه الحرب بالمصالحة ونجتمع على مودة ــ وقد بعثت اليك الآن لاطمئن على راحتك فاذا كنت ترى تقصيراً في ما تحتاج اليه اخبرنا »

قال « كلا . انى لا أرى تقصيراً قط »

قالت « تقدم قليلا لاقول لك كلمة »

فتقدم حتى دنا من الستر فقالت له « سأرسل اليك بعد قليل جارية من قبلي اسمها سلامة تطلب منك امراً فاقضه لها . . وقد لا احتاج الى ارسالها فاذهب بسلام »

فتراجع حتى فتح الباب فلقيه الحراس فرافقوه الى محبسه باحترام واكرام وقد شغل باله ما اقترحته عليه وكان ذلك بتدبير لمياء لزيادة طمأنته حتى اذا احتاجوا الى كتاب توصية لا يكون ثم مانع من الاجابة حالا

الفصل الثامن والستون

الحرب

قضت لمياء أياماً وهي عالمة بقرب الحبيب وقدرتها على الوصول اليه لكنها لم ترض ان تلقاه لانها عاهدت نفسها على الصبر حتى تفرغ الحرب

وهي تخاف من الجهة الاخرى اذا عرف الحسين بوجودها هناك ان يحدث ما يعرقل مساعيها فتجلدت وهي تبحث طبعاً عن راحته وكرامته . ومع شجاعتها ورغبتها ان يشترك الحسين في ذلك الفخر كانت نفسها تميل في باطن سرها الى صيانته من خطر الحرب . وكانت على ثقة من قدرة جنـد المعز على الفتح بدون الحسين فلماذا تعرضه للسهام ؟ وقد يجيئه سهم يصيب منه مقتلا وهي حريصة على بقائه . وفي ذلك من التعقل والحكمة والتسلط على العواطف ما هو جدير بعروس روايتنا

لـكن الفرصة لم تبطىء فأفاقت ذات يوم على اصوات المنادين في اسواق الفسطاط ـ وكانوا لا يفعلون ذلك لامر هام يريدون نشره سريعاً مما يعلن عنه في الصحف أو تنشر به المنشورات الرسمية في هـذه الايام . فـكانت حكومة ذلك العصر تذيعه على أيدي المنادين . فسمعت لميـاء صوت المنادي وله لحن خاص ينادي به وعبارات خاصة ينادي بها تدل على فحوى ما بعده ـ كما يقرأ الـكتاب من عنوانه

سمعته يقول « يا أهل الفسطاط قد جاءنا عدو من افريقية يتعدى على بلادنا بلا ذنب اقترفناه سوى طمعه في الاستيلاء علينـا . وبلغ مولانا الامير ان بعض الخونة المارقين أغرى جماعة من الاعيان على التسليم وكتبوا بذلك كتاباً بعثوا به الى الاسكندرية . فاعلموا ان هـذه الخديعة انما الغرض منها الايقاع بالدولة . واعلموا ان الامير اعزه الله وسائر رجال الدولة والقواد الاخشيدية والـكافورية والاتراك وغيرهم لا يقبلون بصلح أو تسليم وانما يتحاكمون الى السيف ـ ولذلك اقتضى الاعلان حتى يكون الناس على بينة فلا يخدعون بقول ولا يصغون لوشاية . وهذه جنودنا المظفرة قد خرجوا بمضاربهم الى بر الجيزة لملاقاة العدو إذ قد جاءت الانباء أنهم يتقدمون الى هناك . فيا أهل الفسطاط عليكم ان تأخذوا بأيدي الجند وتقدموا ما في طاقتكم من الاسعافات المالية . تقدمونها الى من يأتيكم من قبل الوزير أو الامير ولا تضنوا بالمال فانه أقل ما يبذل في سبيل الدفاع

عن الدولة والملة . والنصر من عنـد الله يؤتيه من يشاء وهو على كل شيء قدير . . . »

فأطلت لمياء من نافذة عالية تشرف على الشارع فرأت ذلك المنادي يسير وراءه الجماهير من الرجال والاولاد وقد علت الضوضاء وساد الاضطراب . فقالت في نفسها « لا بد ان يكون لذلك اللعين أبي حامد دخل في جمع قلوب الجند على الدفاع ولكنه باطل والقلوب متنافرة والنيات فاسدة والضغائن متبادلة »

وهي في ذلك أتتهـا القهرمانة تدعوها الى بنت الاخشيد فاسرعت فرأتهـا جالسة على شرفة من ذلك القصر تطل على النيـل وما وراءه الى الجيزة فابتدرت لميـاء قائلة « يظهر ان ذلك السجلماسي قد افلح في جمع قلوب الاجناد .. انظري كيف يعدون النيل في القوارب الى الجيزة وهذا الجسر بين الفسطاط والروضة يكاد ينكسر من تزاحم الاقدام عليه ولا بد ان يكون الجسر الآخر بين الروضة والجيزة كذلك أيضاً . وهذه الجسور مصنوعة من السفن متلازة جنباً لجنب وفوقها سقايف من الخشب وطبقة من الرمال والحصى يتوهم غير العارف انها ضعيفة وهى متينة . . . هل ترين معسكر الاعداء ؟ اني لا أراه »

وكانت لمياء في اثناء ذلك تبحث ببصرها عن ذلك المعسكر ولم تفرغ السيدة من كلامها حتى ظفرت لمياء بمكانه فصاحت « انظري يا سيدتي الى ذلك الغبار المخيم الى اليمين والاعلام تخفق في خلاله وقد نصبت الخيـام والفساطيط . هل ترينها ؟ »

فقالت وقد امتقع لونها « نعم قد رأيت ويظهر انهم جند كثيف . . ما العمل الآن ؟ . ماذا ترين هل تظنين جندنا يغلب ؟ »

قالت « أما سمعت قول المنادي ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ؟ »

قالت « ما العمل الآن »

قالت « أما نحن هنا فلا خوف علينا كما قلت لك قبلاً »

قالت « هل أخذت الكتاب من الحسين »

قالت « هذا وقته . هل تأذنين لي بتدبير ذلك . »

قالت « افعلي ولكن من يوصله الى القائد جوهر ؟ »

قالت « أنا أوصله كوني في راحة وانما احتاج الى ثوب أتنكر به بزي الرجال فأمري لي بذلك وبفرس أركبه . »

قالت « وهل تستطيعين ركوب الخيل ؟ »

قالت « نعم .. وقد تعودتها منذ صباي »

فأمرت لها بما طلبته فلبست ثوب أحد الاجناد وتلثمت ونزلت الى الحسين وقلبها يخفق من هول تلك المقابلة لكنها صممت على التكتم

وكان الحسين قد سمع المناداة كما سمعها غيره وأصبح كالاسد الهائج اذا رأى الفريسة وهو مقيد . وقد قعد على سريره منفرداً واذا بذلك الجندي قد دخل عليه فقال « من أنت وماذا تريد ؟ »

نخفضت لمياء صوتها واجتهدت في تغييره وقالت « أنا سلامة الجارية أتيت لاطلب اليك ما وعدت به مولاتي بنت الاخشيد »

فقال « وما ذلك »

قالت « ان تكتب كتاباً الى والدك تقول فيه اذا قدر له النصر ودخل الفسطاط ظافراً أن يأمر رجاله بحماية هذا القصر جزاء لما لقيته من رعاية اصحابه هل تفعل ؟ »

قال « نعم .. ان لصاحبته فضلا علي لا انساه .. » قال ذلك وتناول قرطاساً وكتب عليه بخطه رسالة في هذا المعنى ودفعها الى لمياء فتناولتها واسرعت في الذهاب خوفاً من أن تغلب على امرها ويتسلط قلبها على عقلها. وركبت جوادها وخرجت تخترق الصفوف تطلب منزل مسلم بن عبيد الله وهي تراقب ما تراه من أحوال الناس في اثناء تلك الغوغاء . فرأت تلك الحماسة مقصور على الاجناد ، وانهم قد اتخذوا ذلك النداء ذريعة لابتزاز الاموال . والمصريون لا يريدون حرباً لانهم ملوا استبداد هذه الدولة ومالوا الى استبدالها بدولة أخرى قد تكون أكثر استبداداً منها لكنهم

يحبون الجديد . فرأت بعض الاجناد يسوقون جماعة من اعيـان التجار ويضربونهم ويهينونهم لانهم لم يؤدوا الاعانة والناس يصيحون ويستغيثون ويشكون فراغ جيوبهم . ثم اجفلت لسماعهـا صوتاً كصوت سالم فالتفتت فرأته ومعه عمه في جماعة من القواد سائرين على افراسهم نحو الروضة وهم يحرضون الناس على الطاعة وسمعت سالماً يقول لبعض الاغنياء من الاهلين رآه يستغيث من تطاول الجند عليه في طلب المال « اخرجوا الاموال فان هذا الجند يدافع عن ارواحكم وأموالـكم ألا تسعفونهم بالمال على الاقل ؟ » فعلمت ان لهذين الرجلين دخلا في جمع كلمة الجند ونكث الصلح

وبعد قليل وصلت الى بيت الشريف مسلم فرأت بابه مزدحماً بالناس بين راكب وواقف وأكثرهم من الاهلين جاءوا يتظلمون أو يستظلون وسمعت نقمتهم على الاجناد وغضبهم لنقض الصلح . فاخترقت الصفوف حتى وصلت الباب فوسعوا لها رغم ارادتهم وهم يحسبونها جندياً جاء بمصادرة أو اغتصاب حتى دخلت الباب وطلبت ان ترى الشريف فقيل لها أنه في شاغل فقالت « قد جئت في رسالة مستعجلة »

الفصل التاسع والستون

الرسالة

فوسعوا لها حتى دخلت عليه بعد ان ترجلت وسلمت الجواد الى بعض خدمه . وكان مسلم مختلياً في غرفته مع بعض الاعيان والتجار وقد علت أصواتهم من النقمة على نقض الصلح . فلما قيل لهم جاء أحد الاجناد سكتوا فدخلت لمياء بلثامها وأشارت الى مسلم أنها تريد مقابلته على حدة . فدخل معها الى غرفة فاوصدت الباب وراءها ثم ازاحت اللثام فدهش لرؤيتها وقال « ما وراءك .. من أين أتيت ؟ »

فقصت عليه خبرها كما هو وأخبرته عن وجود الحسين في القصر بمأمن وانها احتالت في المجيء اليه بحجة تلك الرسالة،وانما غرضها ان تبلغ القائد

جوهر حال الدولة من الاختلال والضعف حتى لا يغتر بهذا الصياح.
فاعجب الشريف بحميتها وبسالتها وقال « لله درك من فتاة صادقة باسلة هل تريدين الذهاب الى القائد بنفسك ؟ »

قالت « نعم . . لاني أستطيع بذلك أن أزيده بياناً شفاهياً »

قال « تفعلين حسناً وسيفرح بلقياك لانك تنقلين اليه خبر الحسين وانه حي آمن وقد سمع بوقوعه في الامر ولا يدري أين هو »

قالت « أين المعلم يعقوب ؟ »

قال « ألم تسمعي بما أصابه ؟ »

قالت « كلا . . ماذا جرى له ؟ »

قال « ان الوزير بن الفرات صادره على أربعة آلاف وخمسمائة دينار عرف بوجودها عنده وأراد قتله فالتجأ الي مدة ثم فر الى معسكر القائد جوهر[1] وقد حملته ما استطعت من الاخبار والملاحظات . ولكن رسالتك أعظم أهمية عنده لانك استقيت الخبر من مظانه . . . اركبي . وسأرسل معك بعض رجالي . . ليس خوفاً عليك . ولكنك لا تعرفين الطريق فيدلونك عليها »

فقبلت ذلك منه وخرجت فامتطت فرسها وركب معها بضعة من رجال الشريف وساروا يطلبون معسكر القائد جوهر من ورائه . فقطعوا جسراً على النيل اسفل الفسطاط والشمس قد مالت عن خط الهاجرة فوصلوا المعسكر قبيل الغروب . وكان رفاقها قد عرفوا فسطاط جوهر فساروا تواً لا يعترضهم معترض

وكان جوهر جالساً في فسطاطه وقد أوقدت الشموع واجتمع قواده حوله وهم جلوس وجوهر مطرق يفكر في ضياع ابنه الحسين . وكان قد سمع من الذين حملوا اليه الاموال من فج الاخيار انه تخلف عنهم ولعله قتل أو وقع أسيراً . وهم في ذلك دخل الحاجب وقال « ان بالباب رسولا من الفسطاط يشترط أن يلتقي القائد في خلوة »

---

(١) ابن خلكان ١١٠ ج ١

فاشار الى الحضور بالانصراف وأمر بادخال الرسول فدخلت لمياء بثوبها ولثامها وأزاحت اللثام وأكبت على يده تقبلها فلم يتمالك عن النداء « لمياء لمياء ! »

فاشارت بأصبعها على شفتها ان يكتم امرها فضمها الى صدره كأنها ابنته وهو يحبها كما يحب الحسين . لكنه تذكر الحسين فانقبضت نفسه وكادت الدموع تترقرق في عينيه فقالت «جئتك يا سيدي ببشرى مزدوجة »

قال « ما هي . . قولي »

قالت « الاولى ان سيدي الحسين في أمان ولو عرفني عندما حملني رسالته هذه اليك لكلفني بالقاء التحية ولكني اضطررت للتستر . والثانية ان عدوكم الذي يحاربكم وتسمعون صياحه ونداءه كالقصبة المرضوضة أو كالطبل صوته قوي وقلبه فارغ »

قال « ماذا أرى أنت لمياء جئت بهاتين البشارتين وأهمهما وجود الحسين حياً بعد أن يئست من وجوده . ولكن أين هو وكيف عرفت ذلك ؟ أخبريني »

فجلست وقصت عليه ما رأته وقاسته منذ برحت القيروان الى أن أخذت تلك الرسالة من الحسين ودفعتها اليه فقرأها وقال « سأفعل ذلك حباً وكرامة ـ وأين ذلك الخائن وعمه ؟ » فتنهدت وقالت « رأيتهما مع الجند يحرضانهم على الحرب وسينالان الجزاء . . . كيف فارقت مولانا المعز وأم الامراء ؟ »

فهز رأسه هز الاعجاب وقال « ان مولانا المعز أعزه الله وأتم نصره من معجزات الزمان . . »

قالت « ومن أكبر اسباب سعادته انك قائده »

قال « كلا يا لمياء اني لو سفكت دمي عند قدميه لا أكافئه على صنيعه .. انت تعلمين منزلتي عنده ولكنني لو أخبرتك ما فعله يوم خروجي من القيروان بهذه الحملة لرأيت عجباً ـ انه أمر بافراغ الذهب في هيئة الارحية وأن تحمل معي ظاهرة . وأمر أولاده واخوته الامراء وولي العهد وسائر اهل

الدولة ان يمشوا في خدمتي وأنا راكب . وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا أنا قدمت أن يترجلوا مشاة . فكنت حيثما سرت في طريقي من القيروان كل من مررت به فعل ذلك . فلما أتيت برقة عظم على صاحبها أن يفعل ذلك فافتدى ترجله ومشيه في ركابي بخمسين الف دينار ذهباً فابيت الا ان يفعل ما أمر به أمير المؤمنين ففعل [1] أمثل هذا الخليفة يكثر فيه الافتداء بالروح ! »

قالت « صدقت والله انه نابغة الخلفاء . وهل أنسى أنا ما أكرمني به حتى كان يناديني ابنته . وهل مثل هـذا الخليفة يكون نصيبه من حربه غير النصر ؟ وهل تصلح الدولة ان لم يكن رجالها قلباً واحداً في طاعة اميرهم ؟ أين ذلك من جنـود مصر ودولتهم فقد سمعتهم يختصمون على امور تافهة ورأيتهم يضربون الناس لاستخراج المال منهم وهـذا أمير المؤمنين قد بعث المـال معك بشكل الارحية . لا شك ان الله أذن بانقضاء دولة الاخشيديين .. هل ترى ان أعود الى الفسطاط . وماهى العلامة التي تجعلها على دار بنت الاخشيد حتى لا يقر بها أحد بسوء ؟ »

فضحك وقال « كأنك واثقة من دخولنا ظافرين ؟ »

قالت « لاشك عندي في ذلك »

فربت على كتفها بيده وقال « بارك الله فيك انصبوا بباب القصر علماً اخضر وسأوصي الجند ان يجتنبوا ذلك الباب »

قالت « أتأذن بانصرافي . . »

قال « تبيتين الليلة هنا ونرى ما يكون في الغد ولا باعث الى العجلة في الذهاب »

فأطاعت . أما أهل الفسطاط فقد رأيت ما كان من اضطرابهم وما سامهم الجند من الخسف والاهانة والسلب حتى أصبحوا يفضلون الفاطميين عليهم – وأما بنت الاخشيد فانها مكثت بعد ذهاب لمياء وقد تولتها الدهشة لما شاهدته من مروءة هذه الفتاة وبسالتها . ولبثت تنتظر رجوعها وقضت

(١) المقريزى ٣٧٨ ج ١

أكثر أوقاتها في الشرفة المطلة على الجيزة لتراقب حركات الجندين وقلما كانت ترى شيئاً منهما لبعدهما عن مجال البصر لكنها كانت تتلاهى بذلك ووجهت عنايتها خصوصاً للحسين وأمرت باكرامه ورعايته

الفصل السبعون

العلم

وكان الحسين بعد ذهاب لمياء قد احس بشيء أذكره حبيبته فلم تعد تذهب صورتها من ذهنه وهو لايدري السبب الذي بعث على ذلك . ولكن السبب ان صوتها وهي تخاطبه لم يخل من غنة تعود قلبه ان يطرب لها يوم اجتماعه بها فطرب لها الآن وهو لا يعلم ان مخاطبته خطيبته — وكثيراً ما يحدث ذلك والناس لا ينتبهون له . قد يخطر لك أمر يتردد في ذهنك وأنت لا ترى باعثاً على تذكره . وانما تذكرته لانك رأيت أو سمعت شيئاً تعودت ان تراه أو تسمعه مرافقاً لذلك الامر

قضى الحسين ليلته وهو يفكر في لمياء وأين هي . وتذكر قولها يوم وداعه انها ستلاقيه في الفسطاط وتصور تحمسها ووثوقها بالظفر من ذلك الحين . فاختلج قلبه وأحس بشوق الى رؤيتها أو معرفة خبرها ولم يكن نسيها من قبل لكنه تذكرها على الخصوص في ذلك اليوم

مضت أيام ولم ترجع لمياء بالجواب من جوهر فقلقت بنت الاخشيد وهي في كل يوم يترجح عندها النصر للفاطميين فاصبحت تخاف على حياتها وانما طمأنها كون الحسين بن جوهر أسيراً عندها تحتمي به عند الحاجة ولما اشتد قلقها بعثت اليه فجاءها فسألته عما يراه من أمر تلك الحرب

فقال « لا ريب عندي بفوز جندنا يا سيدتي »

قالت « عجباً .. كيف تؤكد ذلك ؟ . »

قال « لاننا متحدون قلباً وقالباً في خدمة أمير المؤمنين نساء ورجالا ليس فينا الا من يفدي أمير المؤمنين بروحه فهل أنتم كذلك ؟ »

فقالت وقد غلبت على عواطفها « لا يا بني . . لسنا كذلك لسوء الحظ . . » وغصت بريقها

قال « أما نحن فان أحدنا لا هم له الا التفاني في نصرة الخليفة . اضرب لك مثلا عن ذلك فتاة خطبتها في القيروان وجاء ذكر الحملة على مصر فأبت أن يتم الاقتران إلا في الفسطاط بعد فتحها . ثم هي هجرت بيتها وسافرت في خدمة مصلحة الدولة تمهيداً لهذا النصر لا يعلم أحد أين هي . ولا أنسى قولها ساعة الوداع « سنلتقي في الفسطاط في قصر مولاي المعز لدين الله على ضفاف النيل » ذلك هو مقدار وثوقها بالنصر والجند لم يتحرك من القيروان . واعترف لك يا سيدتي اني اعتقد صحة قولها وان ذلك لا بد من اتمامه »

فاستغربت بنت الاخشيد قوله وقالت « لله درها من فتاة نادرة المثال وأين هي الآن ؟ وكيف قلبك عليها ؟ »

قال « قلبي على مثل الجمر ولكنني أثق أننا سنلتقي هنا »

قالت « يظهر ان نساء بلادكم أقوى من نساء بلادنا وأشد حماسة فاني عرفت جارية مغربية اهداها الي يعقوب بن كلس بالامس لم تر عيني أعقل منها ولا أطيب من قلبها وهي مع ذلك شجاعة باسلة لا تبالي بارتكاب الاخطار وقد قالت أنها تعرفك وتعرف أباك والخليفة وتعرف ايضاً الاميرين السجلماسيين اللذين حملاك الينا أسيراً . »

قال « ما اسمها »

قالت « سلامة . . »

قال « هي التي أتتني متنكرة بثوب جندي وأخذت الكتاب الى والدي ! »

قالت « نعم هي بعينها لله درها . . . اني لم أعهد مثل هذه الحماسة والبسالة في النساء حتى قلت لها مرة « ليست هذه الاخلاق من أخلاق الجواري »

فرأى الحسين مشابهة بين أخلاق لمياء وما سمعه عن سلامة وتذكر

خروج لمياء من القيروان لخدمة المعز . . . فاطرق وهو يقول في نفسه « هل يمكن أن تكون سلامة هي لمياء متنكرة ! »

واستبطأت بنت الاخشيد جوابه ورأت اطراقه فتصورت انها جددت ذكرى خطيبته وهو بعيد عنها فلم ترد أن تشغله عن تأملاته فحولت بصرها نحو النافذة المطلة على النيل والجيزة ووراءه فرأت الروضة تعج عجيجاً بالناس وفيهم الفرسان بالرماح والسيوف والمشاة بالحراب في غير زي المصريين وقد تطايرت السهام وأبرقت السيوف فصاحت « ويلاه هذه هي الحرب . . قد دخل العدو بلدنا »

فالتفت الحسين الى الروضة وأجال نظره في تلك الجهات فقال « قضي الامر يا مولاتي هذا جندنا يقطع الجسر وهذه أعلامنا ولا يلبث أن يدخل الجند الفسطاط ظافراً . . لكن كوني مطمئنة اني أفديكِ بدمي ها انى نازل لاقف بالباب وأمنع رجالنا من دخوله طمئني اهل القصر جميعاً » قال ذلك وأسرع نحو الباب الخارجي الكبير وكان مقفلا وقد أوصدوه . فرأى جندياً مغربياً يتسلقه وخدم القصر يستغيثون به ويتقدمون اليه أن لا يفعل لانهم لا يحاربون وهو لا يبالي . فصاح فيه الحسين « انزل يا رجل ان الذي يخاطبك هو الحسين بن جوهر »

فلم يكترث الجندي لقوله بل ظل في عمله حتى وصل الى عتبة الباب العليا فاستخرج من جيبه علماً أخضر نصبه فوقها وتحول الى الداخل وأشار الى أهل القصر أن يتركوا الباب مقفلا . فنظر الحسين في وجهه فرآه ملثما فقال له « من أنت يا رجل ؟ لماذا لم تجبني »

فأومأ اليه بوضع السبابة على شفته « أن اسكت الآن » ودخل مسرعاً فتذكر الحسين الجارية سلامة كيف تركته متنكرة بثوب جندي مصري وما خامره من الشك فيها عند سماع خبرها من بنت الاخشيد . فاصبح شديد الميل الى تحقيق ذلك فلحق بها ولم ينتبه له أحد من أهل القصر لاشتغالهم بالحذر والخوف وبما قام من الضوضاء في المدينة بين عويل وصياح . ودخول ذلك الجندي المغربي أرعبهم لكنهم ما لبثوا أن رأوه ينصب الراية

الخضراء حتى اطمأنوا ولكن الذين رأوه داخلا يعدو ولم يروا الراية ذعروا

أما الحسين فما زال مسرعاً حتى دخل القاعة وطلب الى الحاجب أن يدعو له السيدة بنت الاخشيد فناداها فأتت ولم ترسل الستر بينها وبينه وانما اكتفت بالنقاب وحالما وقع نظره عليها استغرب ما عليها من الاثواب الثمينة والحلي وهو يسمع بما عليه اهل مصر من الضنك . أما هي فحالما رأته صاحت « ماذا جرى ؟ »

قال « كل شيء في أمان وهذا علم والدي قد نصب فوق الباب وهو علامة الامان فلا يجسر أحد أن يمس هذه الدار بسوء كوني في اطمئنان »

قالت « ومن غرسه هناك »

قال « جندي مغربي أظنه نفس الجندي الذي حمل رسالتي الى والدي وقد أسرعت لاراه . . »

قال « أتظن سلامة رجعت ؟ أين هي . . » وصفقت فأتت القهرمانة وهي تلهث من الخوف فضحكت بنت الاخشيد من منظرها وقالت لها « ما بالك يا خالة لماذا تلهثين »

قالت وهي تقطع صوتها « ان الاعداء دخلوا . . الفسطاط . . و . . و . . ودخل رجل منهم هذه الدار . . »

قالت « لا تخافي ان هذا الجندي جاءنا بعلم الامان من قائد جند المغاربة . كوني مطمئنة لا بأس علينا . وهذا الحسين بن ذلك القائد . . . أين سلامة الجارية »

قالت « لم أعد أراها منذ أيام »

قالت « ابحثي عنها في غرفتها الآن وادعيها الينا حالا »

وقعدت وأشارت الى الحسين أن يقعد فقعد وعيناه شائعتان نحو الباب ينتظر وصول تلك الجارية ولحظت بنت الاخشيد قلقه فقالت « مالى أراك قلقاً كأنك تنتظر أن تأتيك سلامة بكتاب من والدك ؟ »

قال « كلا . فان هذا العلم يكفي جواباً . . ولكنني أتوقع أن تكون سلامة هذه غير ما تتوهمينها »

قالت « وكيف ذلك ؟ »

قال « تمهلي ريثما نرى »

واذا بالقهرمانة عادت وهي تقول « لم أجد سلامة هناك ولكنني رأيت جندياً نخفت ورجعت »

فنهض الحسين وقال « أين هو ذلك الجندي ؟ اوصليني اليه »

الفصل الحادي والسبعون

النصر

فمشت القهرمانة وبنت الاخشيد والحسين حتى وصلوا الغرفة فوجدوا ذلك الجندي واقفاً الى النافذة يراقب حركات المتحاربين لا ينتبه الى أحد في الدار فمشى الحسين بخفة حتى وقف وراءه بحيث يرى ما يراه . فرأى المغاربة تكاثروا والاخشيدية يفرون من أمامهم الى المدينة وقد تراكم القتلى منهم على الجسر وتجاوزهم بعض المغاربة على خيولهم وظهر الفوز واضحاً لهم فصاح (الجندي) « الحمد لله قد كتب النصر لنا » والتفت فوجد الحسين وراءه فبغت ووقف لا يبدي حراكا فصاح فيه الحسين قائلا « من أنت »

فلم يجب وانما أشار الى ثوبه انه جندي فقال « أنا الحسين بن جوهر فانزع هذا اللثام عن وجهك »

فأطرق ولم يجب . فقالت بنت الاخشيد « هذه سلامة حبيبتنا . . . اكشفي وجهك للحسين يا بنية أنه حامي ذمارنا »

فلم تجب فتقدمت بنت الاخشيد ورفعت اللثام بيدها فأرادت لمياء تحويل وجهها حتى لا يراها الحسين فرآها وعرفها وصاح « لمياء . . . » وأمسك بيدها وأدارها نحوه ليتحقق ظنه وهي تحول وجهها عنه حياء فدهشت بنت الاخشيد لما رأته وتذكرت ما قاله عن خطيبته فعلمت أنها هي نفسها

فتقدمت وساعدت الحسين عليها وأمسكت بيدها الاخرى وقالت « أنت لمياء خطيبة هذا البطل وتزعمين أنك جارية ؟ تكلمي . . »

فالتفتت الى الحسين لفتة تعودها منها فأثرت في قلبه تأثير السهم وقال « تكلمي ما بالك ؟ . »

فقالت « وعيناها تلمعان » قد تعاهدنا ان نلتقي هنا بعد فتح مصر . . فهل فتحت ؟ »

قال « أوشكت ان تفتح .. »

قالت « اصبر لا تفرح قبل تمام النصر .. أنت هنا منذ أيام وأنا عالمة بذلك ولم أشأ أن أطلعك على وجودي لئلا نشتغل بالقلوب عن السيوف ولا أزال على ذلك حتى الآن .ان خدمة المعز مقدمة على كل شيء فاذا فرغنا منها وفتحنا البلد واستقر لنا الامر فاني أمتك أترامى عند قدميك . . »
قالت ذلك وغصت بريقها وأبرقت عيناها وبان الهيام فيهما واسترخت عزائمها .. والحسين ينظر اليها نظر الاعجاب والخجل وقال « ابيت يا لمياء الا ان تكوني السابقة الى الفضل في خدمة أمير المؤمنين اني متفان في خدمته ولكنني دهشت لرؤيتك هنا وأنا أعهد مقرك منذ افترقنا بالقيروان الحمد لله على هذا اللقاء »

فنظرت اليه نظرة عتاب وقالت « وذانك الرجلان اللذان ساقاك الينا في القيود والاغلال .. اني لا أعد النصر واقعاً وهـذان الرجلان في قيد الحياة .. وأنا في شوق الى سماع ما جرى لك في اثناء هذا الغياب وأنت مشتاق الى حديثي فاذا تم النصر كما نريده تتحادث كثيراً »

فلما تذكر أبا حامد وسالماً هاج الدم في عروقه فقال « أين هما ؟ »

قالت « سأخبرك عن ذلك بعد قليل »

والتفتت بنت الاخشيد الى لمياء وقالت لها « سنتركك هنـا تبدلين ثيابك »

قالت « كلا يا سيدتي لا أريد ان اغير شيئاً قبل الفراغ من هـذا العمل . وهل ترين منظراً أجمل ممـا أرى هنا . . ليس في الدنيا ألذ من

النصر في ساحة الحرب . . لا صبر لي عن هذا المنظر هيا بنا الى المعركة »
قالت ذلك واسرعت فتبعها الحسين وهو يقول « المعركة .. لست أشد مني غيرة على الدولة ولكنك شغلتني ..» ونزلا فركب كل منهما فرسه وتسلحا وبنت الاخشيد ترى وتعجب . فلما خرجا قالت في نفسها «ان قوماً أنصارهم مثل هذين أحرِ بهم ان يفتحوا العالم »

ولم يسيرا الا قليلا حتى رأيا رجلا من اتباع الشريف مسلم حاملا علماً ابيض يؤمن الناس فنادته لمياء فوقف فقالت « من ارسلك بهذا العلم وكيف الحال . »

قال « لما غلب الاخشيدية وقتل منهم خلق كثير ارتدوا الى مصر واخذوا من دورهم ما قدروا عليه وانهزموا فخرج حرمهم مشاة الى الشريف ابي جعفر وكلفنه ان يكاتب القائد جوهر باعادة الامان . فكتب اليه يهنئه بالفتح ويسأله اعادة الامان وهذا جوابه معي يؤمنهم وهذا العلم الابيض شاهد على ذلك . فاطمأن الناس وخرج الاشراف والعلماء ووجهاء البلد بموكب حافل يتقدمه الوزير ابن الفرات وجماعة الاعيان الى الجيزة لملاقاة القائد عند دخوله الفسطاط ولا يلبثون ان يعودوا به . ألا تسمع المنادي ينادي بذلك »

فالتفتت لمياء الى الحسين وقالت « قد تم النصر والحمد لله . . فلا حاجة الى الخروج بل ننتظر وصول الموكب »

ونحو العصر (١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ) أقبل الموكب حتى دخلوا الفسطاط وعليهم السلاح والعدة فدخل جوهر وطبوله وبنوده بين يديه وعليه ثوب ديباج مثقل وتحته فرس أصفر[١] فرافقوا الموكب حتى شق البلد ونزل في مكان أناخ فيه جوهر جماله وبنيت فيه القاهرة بعد ذلك .
فالتفت الحسين الى لمياء يستشيرها فيما ينبغي ان يفعلا فقالت « هلم بنا الى مقر ذينك اللعينين في الفندق أظنهما هناك »

فتبعها وساقا الجوادين وقد قاربت الشمس الغروب حتى أتيا الفندق

(١) ابن خلكان ١٢٠ ج ١

فلما رآهما صاحبه رحب بهما خوفاً منهما وان كان المنادون قد نادوا بالامان ثم وقع نظره على لمياء فعرفها ورآها بلباس جند المغاربة فاستأنس بها وتقدم اليها وهو يقول « هذا صديقنا الصقلبي »

فضحكت له وقالت « اننا في حاجة الى تلك الغرفة الآن »

قال « قد دخلها الرجلان في هذه الساعة »

الفصل الثانى والسبعون

ابو حامد وسالم

فالتفتت الى الحسين وقالت « قد تم سعدنا » وساقا الجوادين الى داخل الفندق حتى صارا في وسطه وترجلا وأسرعا الى الغرفة فطرقا بابها فسمعا لغطاً ولم يفتح الباب فاستل كل منهما خنجره وصاح الحسين « افتح »

فأجابهما ابو حامد من الداخل « لن أفتح لكما . . ليس خوفاً على حياتي ولكنني لا أريد أن أموت بيد أحدكما . . ولا ينبغي أن أبقى حياً بعد هذا الفشل . وأخاف أن يجبن هذا الغلام فيستعطف ويتذلل وأنا أعرف ضعفه وجبنه . فأنا الآن قابض على عنقه وها اني أطعنه في قلبه . . قد طعنته فمات وهذه طعنة في قلبي وهذا الباب قد فتحته لكما فاستلما جثتين بلا روح »

ثم سمعا وقوع الجثة وفتح الباب فوجدا الرجلين يختبطان بدمهما فغطت لمياء عينيها حتى لا ترى ذلك المنظر الرهيب ولا تريد أن ترى سالماً حبيبها الاول في تلك الحالة رغم ما رأت منه أو سمعت عنه . وتحولت الى فرسها وهي تقول للحسين « هلم بنا الى المعسكر لنرى قائدنا العزيز . فقد قضي الامر وتم النصر »

فتبعها وهو يقول « كنت أود أن اقتلهما بيدي »

قالت « قتلهما الفشل »

وهما خارجان اعترضهما صاحب الفندق وهو يبكي ويقول « قتلتما

الرجلين .. وذهبتا . الآن يقبضون علي ويتهمونني بقتلهما..بالله لا تذهبا »

فتقدمت لمياء اليه وقالت « قتلا بامر القائد جوهر .. وهذا هو الحسين بن جوهر القائد لا تخف »

فاكب على ركاب الحسين يقبله ويقول « اعـذرني يا سيدي على جسارتي .. والله ان هذا الصقلبي رجل طيب .. مع السلامة يا سيدي مع السلامة »

وانصرفا حتى أتيا المعسكر وقد أظلم الليل ولـكن الانوار كانت تسطع في تلك الانحاء وقد اقبل المصريون زرافات ووحداناً على جوهر يهنئونه بالنصر وعرفا فسطاطه من كبره وكثرة من حوله من الحجاب فما زالا حتى وقفا بالباب واستأذنا بالدخول . فلما قيل لجوهر ان الحسين يستأذن عليك نهض له وضمه الى صدره وقبله فقبل الحسين يده . ثم تقدمت لمياء بثوب الجند فقبلت يد القائد فدعاها الى الجلوس هي من جانب والحسين من الجانب الآخر . وكان في جملة الحضور هناك أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الشريف فعرفهم اليه فرحب بهما وهنأهما بالنصر . واذا بصوت خرج من جوانب الخيمة يقول « ويعقوب ؟ » فعلمت لمياء انه صوت يعقوب بن كلس فالتفتت الى جوهر وقالت « لا اقدر ان اصف لك الفضل الذي اولاني إياه الشريف أبو جعفر والمعلم يعقوب فاننا مدينون لهما بكثير من أسباب هذا النصر وبحياتي ايضاً ولولاهما لـكنت الآن في عالم الاموات »

فقال « الحسين فالفضل إذاً علي أنا »

وبعد قليـل انصرف المهنئون وبقي جوهر ومسلم ويعقوب والحسين ولمياء وكان اجتماعهم لذيذاً على أثر ما عانوه من التعب حتى كتب لهم النصر فقص كل منهم ما عاناه في اثناء الغياب والتفت جوهر الى لميـاء وقال « قد صحت نبوءتك يا بنية فالتقينا في الفسطاط بعد فتحها ألم يئن العقد عليك »

فقالت « الحمد لله على ذلك لـكن العقد اشترطت فيه ان يكون في قصر مولاى المعز لدين الله على ضفاف النيل . . . »

قال « ألم تصر الفسطاط كلها قصراً له . »

قالت « بلى لـكنني اريد قصره الخصوصي . »

فضحك جوهر وقال « انك تريدين ان يؤجل الاقتران حتى يحضره المعز بنفسه فانك أهل لذلك .. وفي الغد نبدأ ببناء القصور لمولانا وبعد قليل يأتي الى مدينته ويعقد لـكما بيديه المباركة »

وأخذ جوهر في اليوم التالي في بناء القاهرة ثم بنى القصور وبعث الى المعز باخبار الفتح فانتقل المعز الى مدينته وأقام بها وتوارثها أعقابه بعده على ما هو مدون في كتب التاريخ . وكان اول عمل عمله انه عقد للحسين على لمياء باحتفال لم يسمع بمثله

(تمت الرواية)

*